دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد العاشر - السنة السابعة
يوليوز 1964 - ربيع الأول 1384
ثمن العدد - 1,50 درهم

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد العاشر
السنة السابعة
يوليوز 1964
ربيع الأول 1384
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



ساحة الشرف بقصر المامونية
بمدينة مراكش
(مجموعة وزارة الانباء والسياحة)

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط.
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط.

دراسات إسلامية

من أهداف الاسلام

تكوين مجتمع متبصر

للأستاذ: محمد الطنجي

صح وثبت عن الرسول عليه السلام قوله : سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابى فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعته امراة ذات منصب وجمال فقال اني اخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه .

ان من يتامل فى سيرة نبي الاسلام العظيم يجد انه عاش من الوقت الذي اكرمه الله بالرسالة الى وقت انتقاله للرفيق الاعلى ناصحا امينا لامته ، مبلغا صادقا لشريعته ودعوته ، ما ترك شيئا يقرب امته الى الخير والجنة الا امرها به وحضها عليه ، وما ترك شيئا يباعدها من الشقاء والنار وعذاب الاخرة الا نهاها عنه ونفرها منه ، ومن ذلك الدعوة الى الخير العظيم عن طريق البشارة الكبرى عن العمل الخيري اذا فعله الانسان كما فى هذا الحديث الشريف ، فالنبي اخبر فى هذا الحديث ان سبعة اشخاص تجلت فيهم الصفات الحميدة يكونون فى ظل الله وحمايته ورعايته آمنين من الخوف والعذاب واهوال الموقف يوم الحساب لانهم قاوموا شهوات النفوس ، واتصفوا بالطهارة وسمو الروح وكانوا امثلة حية للكمال الانساني فى ميدان الخير والبر والتقوى ، وفى واقع المحيط الاجتماعي نجد ان الرسول الاكرم الذي بشر هؤلاء برعاية الله وحفظه وامنه يريد ان يكون المجتمع الاسلامي مجتمعا متكونا من هؤلاء جميعا فيكون مجتمعا روحيا راقيا تكاملت فيه كل عناصر المجتمع الطاهر المتبصر ، فيه العدل الذي هو اساس كل خير وفيه التربية والتنشئة على العبادة الخالصة وفيه عمارة المساجد بازكى معانيها وفيه المحبة فى الله والبغض فيه بمحبة الخير واهله والبعد من الشر وذويه ، وفيه العفة وترك الزنى وترك الانسياق وراء ارضاء الغرائز الجنسية والانحلال الخلقي وفيه المساواة والاحسان للمحتاجين بكثرة الصدقة واخفائها حفظا لكرامة المحتاجين الانسانية وفيه خشية الله التي تجمع كل خير وتوصل الى كل سعادة . فاول من قدم الرسول لهم البشرى الامام العادل على جماعة المومنين الذي ينصح للرعية ويخلص لهم النصح والارشاد فى السر والعلانية ، فلا يحكم بالشهوة ، ولا تبلغ ساحته الرشوة والذي يولي نوابه الذين لهم التصرف على الرعية او الاستشارة فى اية قضية ، مختارين نزهاء فى احكامهم واستشاراتهم وجميع اعمالهم ، شرفاء فى اخلاقهم واحوالهم ، فينتشر العدل الذي هو اساس كل ازدهار من الامام ونوابه فى كل مكان ، استجابة لقول الله تعالى ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل . وما عظماء الامة المحمدية الذين بقي لهم الذكر الحسن الجميل بطاول الدهور والازمان الا من طراز العادلين المتقين الغيورين على مصلحة الامة والشريعة وحفظ الدين .

اما البشارة الثانية فى الحديث الشريف فهي للشاب الناشيء فى عبادة الله وفى ذلك حض على التربية الدينية العملية منذ النشاة الاولى لان النشوء على العبادة يجعل نفس الشاب طاهرة نقية ومداومته عليها تجعل سيرته محبوبة مرضية فيكون لاخوانه واقرانه قدوة حسنة لهم باستقامة سلوكه واظهار نسكه ، فتكثر جماعة الشبان المتعبدين المتخلقين بكل خلق كريم ، وفى ذلك كل حصانة لطهارة المجتمع ، لان الشباب هم عمدة الامم واصحاب الهمم ورجال المستقبل فاذا نشأوا على التعبد والتدين اخلصوا فى خدمة امتهم كما اخلصوا فى عبادة ربهم ، وما الاخلاص فى خدمة الامة الا نوع من العبادة والتقرب الى الله بالسعي فى مصالح الامة العامة فيحوز هؤلاء السبق فى كل الميادين الخاصة والعامة ، والعاقبة للمتقين ، وما تربية المصطفى عليه

السلام للامام علي الذي تقول في حقه كرم الله وجهه لانه لم يسجد لصنم ولجميع اقرانه الشبان الصغار الذين نشأوا على التربية الدينية الخالصة في عهد الرسول الذي هو خير العهود وبتوجيهه وتربيته الا امثلة حية ادوا لدينهم وامتهم اعظم الخدمات فدخلوا دخولا اوليا فيمن زف لهم النبي عليه السلام بشرى الامن والسلام في موقف يكون الناس اشد حاجة فيه الى هذا الامن والرعاية والحفظ والسلام .

والثالث من الذين قدم لهم الرسول البشرى الكريمة هو ذلك الرجل الذي تعلق قلبه بالمساجد لانها موطن التهجد ومناجاة الخالق الرزاق سبحانه ، فمن كان طاهر الروح يرى في الصلاة قرة عينه ، كما حكى الرسول عن نفسه بقوله : وجعلت قرة عيني في الصلاة فلا بد ان يبقى قلب المخلص في عبادته معلقا بالمكان المقدس الذي تقر فيه عينه بمناجاة ربه والتقرب اليه حيث يطمئن قلبه باستشعار عظمة الرب وجلاله وبكونه في مرضاته ومناجاته بالصلاة التي هي افضل القربات فاقرب ما يكون العبد من ربه اذا كان راكعا او ساجدا ، فيكون من الذي لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وبكثرة امثال هؤلاء يقوى الخير والبر في المجتمع وتعظم قيمته بين المجتمعات البشرية حيث يكون بطهارته الحسية والمعنوية غرة في جبين الدهر ، لان الصلوات الخمس تطهر النفس وتمحو عنها كل وضر ورجس وقد قال الرسول عليه السلام : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، وهذا مثل ضربه النبي عليه السلام للاثر النفسي الكريم الذي تتركه الصلاة في نفوس المصلين المخلصين .

والرابع من الذين قدم لهم الرسول البشرى رجلان تحابى في الله اجتمعا عليه ، ولا يوجد هذا الا اذا كانت مبادىء الاسلام السامية هي التي تجمع القلوب وتوحدها حول الاهداف والمثل العليا ، بحيث يسمو ذلك على صلة القرابة وعواطف الارحام وعلى العصبية والجنسية والقومية حيثما كانت وهذا هو الطابع الذي كان سائدا في عهد الرسول حتى قال عليه السلام : سلمان منا آل البيت وكان لبلال رضي الله عنه مكانة مرموقة عند الصحابة رغم حبشيته . وقد قال البوصيري في حق عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

والذي تقرب الاباعد في الله اليه وتبعد القرباء

والخامس من الذين قدم لهم الرسول البشرى رجل دعته امراة ذات منصب وجمال فقال انى اخاف الله يعني دعته المراة الى الاتصال الجنسي بها فقال اني اخاف الله وهذه صورة رائعة من تقوى الله تدل على ان العفة ومخافة الله امتلكت من هذا وامثاله القلوب والمشاعر والاحساسات حتى صارت المعيار الصحيح للاعمال بحيث دفعته للاعراض عن الشهوات والاماني في ازهى صورها واقوى دواعيها ، وما عمت هذه العفة في مجتمع الا كان طاهرا نقيا بعيدا عن كل الفواحش والموبقات وهذه الطهارة هي التي يريدها الاسلام لاتباعه ، قال الله تعالى « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

والسادس من الذين قدم الرسول لهم البشرى الرجل المتصدق المخلص في صدقته واحسانه لاخوانه وابناء جنسه ، بحيث يخفيها حتى تكون لوجه الله وحده لا تشاب برياء ولا حب ظهور من حظوظ النفوس البشرية التي تدفع كثيرا من المنفقين الى التفاخر والمن على الضعفاء بما قل من الصدقات مما يدل على عدم اخلاص او يعرض اصحابها بريائهم الى ابطال اجرها عند الله يوم الجزاء .

والسابع من الذين قدم الرسول لهم البشرى هو الرجل الذي دفعه الشوق الى ربه والهيام بتمجيده وحبه ، والتفكر في عظمته وصنعه الى الخشوع وفيضان الدموع اذا خلا بنفسه ، منفردا عن ابناء جنسه فالاخلاص في السر يبعث على التفكر ودوام الذكر لا حرمنا الله من خشيته .

ايها القارىء الكريم ان هؤلاء السبعة الذين اخبر الرسول بانهم يكونون في كنف الله ورعايته اذا كثروا في المجتمع يكون مجتمع ابرار اطهار ، تغمره السعادة وتؤهله لكل مجد وسيادة وهكذا كان مجتمع المسلمين الاولين ساد فيه الايمان وعمل الصالحات فحقق الله وعده الصادق للمومنين الصالحين المتعبدين كما قال سبحانه « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا » .

وفق الله المسلمين في مشارق الارض ومغاربها للتمسك بتعاليم الاسلام وجعلها ملجا وحكما في كل مجال ومقام ووفق الله امامنا امير المومنين الحسن الثاني اعزه الله للسير قدما في احياء شريعة الاسلام ومعالم سننه ، وتعميم تعاليمها في المدارس والمعاهد نظريا وعمليا حتى يعود لهذا المجتمع طهارته وتكمل بعد الاستقلال في كنف الامامة الاسلامية سعادته انه ولي كل هداية وتوفيق .

محمد الطنجي

درة الغواص في أوهام الخواص

للأستاذ : احمد التيجاني

قرات في العهد المدرسي للحريري صاحب المقامات كتابا سماه درة الغواص في اوهام الخواص نبه فيه على عدد من الالفاظ خرجت مع الزمان والتطورات الفكرية عن معناها الاصلي الى معنى مخالف لما هو مدون في امهات اللغة ، فكان هذا التحول منشا خلاف بين اهل العلم هذا يحمل الكلمة على المعنى الذي وضعت له ، وهذا يحملها على المعنى الطارىء اذكر من ذلك على وجه المثال كلمة « بساط » فانها تدل بحكم الوضع على الاتساع وبه جاء القرآن : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ــ والله يقبض ويبسط ــ وزاده بسطة في العلم والجسم ــ وزادكم في الخلق بسطة ــ » ثم طرا مع الزمان على الكلمة ما خرج بها عن معناها الاصلي الى المعنى الهندسي الذي هو التسطيح ، فوقف الناس على المعنى الطارىء وتنوسي المعنى الاصلي او كاد ، الامر الذي ادى اصحابه الى انكار كروية الارض استنادا في زعمهم على قوله تعالى : « والله جعل لكم الارض « بساطا » مع انهم لو تدبروا لتبين لهم ان حمل الآية على هذا المعنى يتعارض مع قوله تعالى : يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، اذ من المعلوم ان التكوير لا يكون الا على شيء مكور كتكوير العمامة على الراس .

ارجع الان الى المقصود من هذا المقال فاقول ان الداعي للحريري لوضع كتابه درة الغواص قد وقع بعينه فيما بيننا فيما يرجع للقرآن ، فان عددا من آياته تحولت عن معناها الى معنى لا يتفق مع السياق ولا يرتضيه المعنى الذي جاءت الاية لتقريره يرجع السبب في هذا التحويل الى كون الناس يستشهدون بالآية مقتضبة مختزلة من غير اعتبار للسياق ولا للاشباه والنظائر المبثوثة في مختلف السور مما مؤداه الحتمي الوقوع في مخالفة الايات بعضها لبعض ، وحاشا ثم حاشا ان يحوم الاختلاف حول حمى كتاب يقول فيه سبحانه : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم . كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . » وزاد جل ذكره سجل عليه بقوله : « لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » .

والى اهل التدبير والذوق السليم نماذج من الآيات التي هي من نمط ما نبه عنه الحريري :

1) استفاض بين الناس حتى المنتسبين للعلم الاستشهاد كانه من قبيل المعلوم بالضرورة بقوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » على ان القرآن فيه كل شيء على وجه العموم والاستغراق ، وفاتهم ان للآية من الاشباه والنظائر ما يمنع من حمل الاية على هذا العموم ، وذلك قوله تعالى في سورة المائدة : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، » لاشك ان ما عفا عنه سكت عنه ونظيره ما جاء فيسورة النمل : «ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون اقتصر هنا ايضا على بيان الاكثر لا الكل فلم يبق بعد الا التماس تفسير للاية يتفق مع نظائره وينسجم مع امثاله حتى تامن الوقوع مما حذر الله منه: ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

والمعنى المنشود هو ما جاءت به معظم التفاسير من ان المراد بالكتاب في الاية هو كتاب الاحصاء المعبر عنه باللوح المحفوظ المترجم عنه في سورة يس : «وكل شيء احصيناه في امام مبين » وذلك ما يرتضيه السياق

وهو قوله جل ذكره : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ، معناه حتى على اختلاف اجرامها واشكالها ، والطيور على اختلاف اصنافها واجناسها لم نهملها بل هي محصاة في الكتاب العام الجامع وبهذا التاويل تنسجم الايات فيما بينها .

2) يجري على الالسنة ايضا الاستشهاد بقوله تعالى : فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون على ان معناها ليسال من لا علم له من له علم وهذا المعنى وان كان في حد ذاته صحيحا فليس هو معنى الاية في نظر العلم البحث ، وبيان ذلك ان ما قبل الاية والذي هو مرتبط بها ارتباط الجواب بالشرط هو قوله تعالى ، وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحي اليهم لا ملائكة كما تقترحون فان كنتم في شك من هذا فاسالوا اهل الذكر قبلكم اهل الكتاب ان لم يكن لكم علم بكتبهم فانهم وان كانوا مشايعين للمشركين في معاداتهم لرسول الله لا يسعهم الا ان يعترفوا بان الرسل انما كانوا من البشر كموسى وابراهيم وعيسى وغيرهم ، اذ كيف يتاتى منهم ان ينكروا شيئا هم عليه ، فتبين من هذا ان المراد باهل الذكر في قوله جل ذكره فاسالوا اهل الذكر هم اهل الكتب السالفة وبالاخص اهل الكتاب القريبين منهم اليهود والنصارى .

3) ينتظم في هذا العقد ايضا قوله تعالى : ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها ، نعم لا اجهل ان الكثيرين من المفسرين يقولون بالنسخ وان القرآن ينسخ بعضه بعضا ، بل بنيت على هذا القول احكام واخذ محله في اصول الفقه ، لكن هذه الشهرة على ما هي عليه لا تمنع من القول بان هناك من المفسرين من انكروا وجود النسخ في القرآن بالمعنى الشائع كما سأشرحه ، من جملة هؤلاء المفسرين ابو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني ومن نحا نحوه .

وشرح الحال باختصار ان الآية المتكلم عنها جاءت في سياق كلام طويل كله في محاجة اليهود ، ابتداء من قوله تعالى : يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي فارهبون . **وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا اول كافر به** . ثم بعد ان افاض في تذكيرهم بالنعم الحسية والمعنوية قال سبحانه : ولما جاءهم كتاب من الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم مما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ، لما ذا كفروا به ؟ كفروا به بغيا وحسدا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وهكذا استمر الكلام مع بني اسرائيل الى قوله سبحانه : ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء : العرب او غيرهم بالنبوءة ثم ختم بآخر استرعاء لاهل الكتاب يقول لهم فيه : يا معشر اليهود انكم لا ترجعون بصفة المغبون في هذا الانتقال للنبوءة الى العرب ما ننسخ من آية مما عندهم نات بخير منه وما ننوسي من وحي وطواه الزمان فيما طوى نات بمثله كصحف ابراهيم او غيرها من الانبياء المتقدمين لان الذي ينزل القرآن على محمد هو الذي اوحى ما اوحى الى النبيئين من قبله فان الضوء الذي جاءوا به ينبثق من مشكاة واحدة ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ، واذ اخذ الله ميثاق النبئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه ، واذ اخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم — وهذه الايات كلها تتجاوب اصداؤها في سورة الانعام في قوله تقدست اسماؤه : وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه الى قوله : اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد ، والى هذا يشير قوله عليه الصلاة والسلام : نحن معاشر الانبياء بنو العلات الاب واحد والامهات مختلفة .

ان قال قائل ما جوابك عن قوله تعالى في سورة النحل : واذا بدلنا آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر ، اقول : قال الامام الواحدي في اسباب النزول عن عبيد بن صمابة قال كان لنا غلامان نصرانيان من اهل عين التمر ، اسم احدهما يسار والاخر جبر وكانا صيقلين فكانا يقرآن كتابا لهم وكان رسول الله يمر بهما فيسمع قراءتهما فكان خصومه عليه السلام من مشركين واهل كتاب يقولون يتعلم منهما ، فانزل الله هذه الآية الى قوله ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، يعنون بالبشر الذي يعلمه ذينك الغلامين لان محمدا رجل امي لا علم له لا بتوراة ولا بانجيل لذلك في زعمهم هو يتحيل للاخذ والاستمداد من اتباع الكتابين التوراة والانجيل ، وبهذه الوسيلة يمكنه ان ينسخ ما ينسخ منهما وان يترك ، وعلى هذا المنهاج جاء كلام ابي مسلم محمد بن بحر الذي لا يقول بالنسخ بانيا مذهبه على ان النسخ انما هو بين الكتب السماوية بين القرآن والانجيل والتوراة وبين الانجيل والتوراة يشهد لها قوله سبحانه حكاية عن سيدنا عيسى في

سورة آل عمران : ومصداقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، فتحليل عيسى بانجيله لما هو محرم على اليهود في توراتهم نسخ خصوصا اذا علمنا انه سبحانه حرم على اليهود الكثير من الطيبات ، فقال لهم سيدنا عيسى ان انتم آمنتم بي وصدقتموني ارفع عنكم الحرمة في بعض الطيبات المحرمة عليكم ، والى هذا يشير مسلم في صحيحه بقوله : ما وقعت نبوة قط الا تناسخت ، زد على هذا فيما يخص كتابنا معشر المسلمين ، ان مدة التشريع لم تتجاوز عشر سنين وهي مدة ليس من شانها ان يحدث فيها من التطورات الاجتماعية ما يستوجب تبديل حكم بحكم ، اذكر بهذه المناسبة اني كنت استدعيت للحضور للمؤتمر الاسلامي في القاهرة بواسطة فضيلة كاتبه العام السيد انور السادات عند زيارته للمغرب سنة 1957 ، ومن جملة من اجتمعت به من العلماء معالي مدير الازهر العلامة صاحب المآثر الجليلة في خدمة القرآن المرحوم محمود شلتوت ، فجاذبته اطراف الحديث في عدد من المسائل القرآنية من جملتها مسألة النسخ فلم يتردد ان اجابني بانه ما سمع منه واحد من تلاميذه القول بوجود النسخ في القرآن ، ومنه سمعت ان مدة التشريع لم تتجاوز عشر سنين وزادني قائلا بانه مستعد لجواب كل من يكاتبه في الموضوع من المغرب او غيره من الاقطار الاسلامية .

4) الآية الرابعة : واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (الآية 16) ، يقول الزمخشري في تفسيرها وهو من هو في علوم العربية : اذا دنا وقت اهلاك قوم ولم يبق من زمان امهالهم الا قليلا امرناهم (ففسقوا) اي امرناهم بالفسوق ففعلوا وبعد هذا التاويل اخذ يتعجل في توجيه امرناهم آتيه على سبيل المجاز ، وفاته رحمه الله وغفر له ما جاء في سورة الاعراف وهو قوله تعالى : واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل : **ان الله لا يامر بالفحشاء** ، وانما معنى آية الاسراء : واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها بما شاننا ان نأمر به المذكور في سورة الاعراف وذلك قوله : قل امر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد الخ وهكذا القرآن يفسر بعضه بعضا كما قرره العلماء .

5) والله خلقكم وما تعملون (سورة الصفات الآية 97) جاءت هذه الآية خاتمة لقضية محاجة ابراهيم عليه السلام لابيه وقومه ابتداء من قوله تعالى : وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون ؟ واطرد الكلام على وتيرة واحدة الى ان ختم بالآية المتكلم عنها والله خلقكم وما تعملون. استنكر ابراهيم على ابيه وقومه ان يصنعوا آلهة بايديهم ثم هم مع ذلك يعبدونها وعاب عليهم ان يعبدوا آلهة هي وهم من خلق الله : فان الاصنام من خلق الله ومن عملهم كالباب والكرسي هما من عمل النجار باعتبار الشكل والصورة ، ومن خلق الله تعلم باعتبار جوهرها وكالسوار هو من عمل الصائغ باعتبار شكله ومن خلق الله باعتبار جوهره ، وقد اطال المتكلمون في الكلام على هذه الآية من جهة دلالتها على ان العمل مخلوق لله تعالى ، مع ان الآية ليست في باب العمل الذي هو مصدر وانما هي في العمل بمعنى المفعول لان قوله : **وما تعملون** ترجمة عن قوله **ما تنحتون** والا لاختلفت الترجمة والمترجم عنه ولما كان لاحتجاج ابراهيم على قوله معنى اذا كان تاويل الآية والله خلقكم وخلق عملكم وبالاختصار نظرا لكون المسالة ملئت بها كتب علم الكلام فلا يشفي فيها القليل الا ان تصاغ في قالب رواية يرى فيها الناس على شاشة التلفزيون موقف ابراهيم عليه السلام وموقف ابيه وقومه ، ثم ليحكموا بعد ذلك ما هو التاويل الذي تنهض به حجة ابراهيم ودعوني من انتحال التاويلات ويرحم الله القائل :

لي صاحب افديه من صاحب
حلو التأني حسن الاحتيال

لو شاء من رقة الفاظه
الف ما بين الهدى والضلال

اخواني العلماء اناشدكم بقوله تعالى : قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا، ان اولادنا اصبحوا يتخرجون من الجامعات والكليات يتخاون ما يطالعون وما يسمعون نخلا فلا يقبلون الا ما قبله العقل وسكن اليه الضمير لا كل ما شحنت به الحواشي والتعاليق ، نعم من كانت له ملاحظة فليطرحها على بساط المناقشة والبحث وطالب الحق ضيف الله.

والمقصود من النماذج التي عرضتها على الانظار التنبيه الى ان القرءان ينظر فيه في افقه الواسع لا في زاوية ضيقة ، وما زلقت الارجل في فهم قوله تعالى والله خلقكم وما تعملون الا لكون الآية اخذت مقتضبة منتوفة من السياق الذي كانت هي خاتمة ، مما ذكرني والشيء بالشيء يذكر ، مجلسا كنت فيه وتلا احد الحاضرين قوله تعالى في سورة يوسف : قالوا واقبلوا

عليهم ما ذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم ، قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ، فبدا باوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها (بهاء التانيث) من وعاء اخيه مع ان الصواع مذكر واطرد الكلام على التذكير الى هذا وامثاله يؤدي قصر النظر مع عدم الحفظ وفات صاحب هذا القول ان القصة تحدرت من قوله تعالى : ولما دخلوا على يوسف آوى اليه اخاه قال اني اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، ولما جهزهم بجهازهم جعل **السقاية** في رحل اخيه الى ان انتهت القصة عند قوله تعالى ثم استخرجها يعني السقاية من وعاء اخيه . يقرب من هذه الآية ايضا قوله تعالى : فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، ثم قال: ومكروا ومكر الله ، لا شك ان المولع بتحكيم القواعد النحوية يخيل اليه ان الضمير في قوله ومكروا يعود على الحواريين عملا بالقاعدة النحوية اعني عود الضمير الى اقرب مذكور ، وبما ان القرآن روح : « وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا) فان الحكم فيه للمعنى الذي تمليه روح القصة وفي ذلك ما فيه .

اجمل خاتمة هذا المقال حكاية وقعت لي مع احد مشاهير المستشرقين الاستاذ وليام مارصي عميد كلية السوربون بباريز صاحب ترجمة صحيح البخاري في اربعة اجزاء اجتمعت به في مكتبة رودوصي في الجزائر بعد ان تجاذبنا اطراف الحديث قال لي شاع عنك انك من المشتغلين بالقرآن وان لك فيه اطلاعا واسعا ، وعندي ما افحمك به وابين لك بان القرآن فيه التناقض ، فلم اتمالك ان تبسمت في وجهه تبسما له معناه ومغزاه وقلت له مما اعده من العجب ان يفحم اوربي عربيا في القرآن والعربي وجد الحال انه من حفاظه ، هات ما عندك فقال : يقول القرآن في سورة المائدة : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار . فانت ترى انه حرم عليهم الجنة وحكم ان ماواهم النار بتاتا بينما يقول في آخر نفس السورة ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم ، فاي موضع بقي للمغفرة بعد ان حرم عليهم الجنة وسجل عليهم بان ماواهم النار ؟ فقلت له حضرة الاستاذ : الآن تحقق فيك عجبي على انه لا عجب فان القرآن بوجه عام يصعب فهمه حتى على اهله الذين لا يحفظونه فكيف بالاجنبي وبينت له طائفة من الاغلاط في تراجم القرآن التي ترجمها العجم امثال مونتي وكاز مرسكي وسفاري ثم عدت به الى سورة المائدة محط الاشكال فقلت له الفرق بين الآيتين كالفرق بين الحياة والموت ، الآية الاولى تقول على لسان المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة الخ الكلام كما ترى في الدنيا موجها من سيدنا عيسى الى بني اسرائيل ، واما ما ختمت به السورة فهو حكاية سيدنا عيسى في الآخرة اول القصة قوله سبحانه : واذ قال الله يا عيسى بن مريم انت قلت للناس اتخذوني وامي الاهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك ، الى ان ختمت الآية بقوله ان تعذبهم فانهم عبادك لان في ذلك اليوم لم يبق كلام لسيدنا عيسى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، ولنفرض انك قاضي صلح ووقفت انا امامك بصفة نائب عن الغير لا شك انك تكلفني باحضار وكالتي من طرفي الغائب كذلك القول في قضيتنا : سيدنا عيسى تكلم وهو في الدنيا بصفته رسولا عنده رسالة التي هي بمنزلة الوكالة بخلاف موقفه في الآخرة فلم تبق بيده وكالة كما انه لا يتصور ان يحجر على الله ؛ الامر يومئذ لله ، والرسل كلهم واقفون ، يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب ، هنالك التفت الي والكآبة تغشي وجهه وقال لي : فلان غاية ما اقول ان القرآن يبقى لغزا بالنسبة للاجانب فقلت له كلا ثم كلا هو ميسور ولكن على شرط ان يستعينوا باهله كما في مجلسنا هذا .

على هذا انفض المجلس وخرج الاستاذ يجر ذيل الهزيمة والخيبة ومن اين لحقته هذه الخيبة لحقته من كونه نتف الآية الاخيرة من قصة طويلة وهكذا فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا .

الرباط : ابو العباس احمد التيجاني

الدعوة الخالدة

للأستاذ : عبد السلام الهراس

تجتاز الدعوة الاسلامية فى هذه الايام صعابا خطيرة لم تعرفها منذ بدايتها .

وقد كانت هذه الدعوة خلال عشرين سنة اقوى التيارات فى العالم الاسلامي ، واستطاعت ان تشيع فى هذا العالم الممزق المتداعي آمالا واسعة فى تحقيق ذلك الحلم الدفين فى اعماق كل مسلم : حلم تحقيق الدولة المثالية التي ستتحمل من جديد مسؤولية رسالة الاسلام ، وستعيد بناء حضارتنا وعزتنا وكرامتنا ، وتمد يد الانقاذ للانسانية التي تشعر كل يوم بمزيد من التهديدات والخراب .

وقد استطاعت هذه الدعوة ، ان تكون قادة وساسة ومفكرين وكتابا وشبابا يتقد غيرة وحماسة ونفخت فى روح الشعوب الاسلامية واثارت حنينهم الى الماضي واشواقهم الى المستقبل المشرق وفرضت نفسها على التاريخ فاملت عليه صفحات مجيدة من البطولة والفداء وانشأت تفكيرا اسلاميا منظما ، فكون هذا التفكير « ايديولوجية اسلامية » متلألأة جذبت نحوها كثيرا ممن يريدون الاصلاح ، وتعصب لها فتية آمنوا بانها طريق الخلاص ، وهكذا سيطرت الدعوة الاسلامية فى معظم البلاد الاسلامية وتحكمت فى مصائرها واستطاعت ان توحد المشاعر والعواطف والعمل والفكر الى حد كبير .

وقد كان الناس يترقبون من حين لآخر ميلاد الدولة الاسلامية وتحقيق الحلم الرائع ، وقد عشنا نحن هذا الخيال الذي كان قاب قوسين او ادنى من الحقيقة كما كان اعداء الفكرة الاسلامية يعيشونه غصصا وانزعاجا والما وكان التاريخ يستعد لكتابة صفحات مشرقة للعالم الاسلامي وصفحات جديدة للعالم كله بميلاد هذه الدولة التي كانت حسب فكرتها بمثابة علاج شامل لازمات الحضارة الجديدة ، لكن سرعان ما اجهض الوليد واستحال الحلم الى وقائع مفزعة وتلاشى او كاد ضياء الدعوة وشيعت الحوادث نحو مصائر مظلمة ملتوية لا تؤدي الا الى الضياع والحيرة ، واخرست الالسن المؤمنة ، وخنقت الاصوات الطاهرة وحومت على النفوس حوائم اليأس وتتابعت فصول المأساة فى نسق مهول ، فاحيط بالذين آمنوا من كل جهة ، ومزقوا شر ممزق ، واصبحوا كاليتامى فى مآدب اللئام ، وقد استسلم بعضهم الى تصوف كالذي استسلم اليه الاندلسيون عند ما شاهدوا انهيار المسلمين فى الفردوس المفقود ، واقام بعضهم صلاة الجنازة على العالم الاسلامي ولما يلفظ انفاسه الاخيرة.

وهكذا استولى الصمت المطبق على الدعوة الاسلامية فلم تعد تسمع الا نقيق الضفادع فى المستنقعات واصبحت الشعوب الاسلامية تبعا لذلك تائهة لا تعرف لها سبيلا .

ولعل الذين يكيدون للاسلام فى الداخل والخارج يسجلون فى دفترهم الاسود انتصارهم على فكرته ، وقد يذهب بهم التفاؤل الى الاعتقاد بان الدعوة الاسلامية وشيكة الاختفاء نهائيا كقيادة فكرية فى العالم الاسلامي وبالتالي يتلاشى كل ذلك الحلم الذي كان يهددهم ويقض مضجعهم ويكاد يقضي على مصالحهم .

واننا نقرر كما هو الواقع ان الميادين اصبحت ملعبا للذئاب والثعالب ، واليوم اصبح هذا العالم اليتيم مسرحا لافكار مضللة تشغل المسلمين بالتوافه عن الدوافع نحو بناء حضارة اسلامية عتيدة مما يعوقهم عن التفكير فى حقيقة امراضهم وحقيقة علاجها ، ولكن

أيعني هذا ان الفكرة الاسلامية قد انقضى دورها في التاريخ وانتهت رسالتها في الحياة ؟ وانها استسلمت لهذا الواقع المر واعلنت انهزامها ؟ انه يقع ذلك بالنسبة للافكار المنحرفة التي تبرز من حين لآخر لتصارع الحق ولكنها سرعان ما تتلاشى ، ويقع ذلك ايضا للدعوات المزيفة التي تنبعث من المصالح الشخصية والنوازع الجاهلية ، ولكن بالنسبة لفكرة كالاسلام ، لا ينتظر ان يقع بها ذلك ولا شبيهه ، لان الفكرة الاسلامية كفلسفة تتمثل فيها آمال الانسانية خالدة وقوية لا يمكن ان تصاب بضعف او فتور او نكسة لانها مستمدة من الخلود نفسه ولا تموت بموت احد ولا بياس احد لان لها خلودا ذاتيا كالشمس بل اقوى واخلد ، لن تستطيع اية قوة او عنف ان يحد من استعداداتها وامكانياتها ، وقديما قال رجل لرسول الله (ص) : اني احبك ، فقال عليه السلام : استعد للفقر ، فقال اني احب الله تعالى، فقال له : استعد للبلاء .

وان الحضارة بما ابدعته من افكار وما انشاته من قيم وما استهدفته من غايات قد ابرزت بطريق غير مباشر قيمة الاسلام واهميته ومدى حاجة العالم الجديد اليه لانه دين حضارة متكاملة منسجمة تستجيب لجميع اشكال الانسانية وفي مختلف اطوارها لانه يتجاوب مع فطرة الانسان والفطرة لا تتبدل ولا تتحول وان خدعتنا بعض الاعراض والالوان الطارئة .

ولو قدر للاسلام ان يختفي من تاريخ الانسان لكان اقل الحوادث والمؤامرات التي نزلت به في الماضي كافيا لاقباره وجعله نسيا منسيا ، فمنذ الفتنة الكبرى التي كان لاعداء الله نشاط كبير في مصيرها والنكبات تتوالى على المسلمين ، والمؤامرات تبرم ضدهم في السر والعلانية ، وفي جميع المجالات ولكن الاسلام رغم ذلك لم يعلن الخضوع والاستسلام بل صارع الاهوال وخرج دائما مكللا بالنصر .

ان النكبات التي تمر بالدعاة ليست سوى درس طبيعي يتلقاه المؤمنون من حين لآخر ابتلاء من الله وتمحيصا لان الدعوة تحتاج الى رجال ذوي جلد وصبر واناة ليس في حسابهم غنم منتظر سوى القيام بواجبهم وليس عليهم الانتصار ، لان النصر بيد الله يعلنه متى شاء ، وانما على الداعية ان يسارع الى مرضاة الله حينما ينادي الواجب حي على الفلاح حي على الجهاد ؛ وان الامل المشبوب في قلب كل مؤمن ليشيع فينا جوا من التفاؤل والحياة ، وقد قال احد الذين اوذوا في سبيل الله : بان هذه النكبات التي تحل بنا قد طهرت صفوفنا واطلعتنا على اخطائنا واكسبتنا مناعة تضمن لنا اكبر النجاح في المستقبل القريب .

ان ذلك اليوم المشئوم الذي ينتظره اعداء الفكرة الاسلامية لن يحل ابدا لان الاسلام ظاهرة كظاهرة الشمس لا تغيب ابدا وان اتيح للشر ان يستبد بالامر بعض الوقت فما ذلك الا جولة وتنقضي ، وفي القريب العاجل ستشرق الدعوة الاسلامية الخالدة لانها تستمد خلودها من فكرتها التي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظها : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وعندما يشتد الظلام يشرع جنين الفجر في الانفصال فيبعث اوائل خيوطه للحياة ليعلن ميلاد النور .

تطوان : عبد السلام الهراس



أسلوب القرآن الكريم

للأستاذ : إبراهيم علي أبو الخشب

نزل القرآن الكريم على العرب بلسانهم العربي ، وبيانهم الادبي ، واسلوبهم الذي كانوا يستعملونه في الحجاج ، وطريقهم التي كانوا يسلكونها في الخطاب ، فلم يكن بدعا من القول ، ولا غريبا في الحروف والكلمات ولا جديدا في المفردات ، ولا نمطا خاصا في اداء المعنى حتى تكون الحجة به الزم ، والافحام به اوجب (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وكان المعروف ان العرب يقدسون الشعر ، ويحترمون القصيد ، ويحتفلون لهذا النوع من الكلام الذي يقيمون له الاسواق ويختارون فيها المحاكمين الذين يرفعون بشهادتهم الشعراء الى الجوزاء ، وهم بهذا يطاولون الناس ، ويختالون بما نالهم بفضل الشعر من مجد شامخ ، وعز باذخ وسؤدد لا ينازعهم فيه احد ، ولا يلحقهم فيه مخلوق ، ويقول ابن رشيق في كتابه العمدة انهم ما كانوا يحتفلون الا بفرس تنتج ، او شاعر يولد ، وكان للعرب الى جانب الشعر الخطب والنثر المسجوع الذي يجري على السنة الكهان ، وهو الفاظ متكلفة ، وجمل ثقيلة ، وعبارات هزلية ، وكلام اشبه برقي الجن ، والفاظ المشعوذين ، فلما نزل القران وامعنوا النظر فيه ، وراوا انه بحروفهم والفاظهم واسلوبهم ظنوا لاول وهلة انه لايسمو عن مستواهم ، ولا يرتفع عن هذا الافق الذي ينتهي اليه حديث قس بن ساعدة الايادي ، او سحبان وائل ، الا ان ظنهم هذا طار مع الريح حينما تيقنوا انه على ما هو عليه (لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ولا يستطيعون ان يرتفعوا الى درجته من البلاغة ومنزلته من الفصاحة (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فهل كان القرآن — حقا — قد احدث جديدا في الاساليب البيانية من حق الكاتب او المؤرخ ان يقول ان له اسلوبا انفرد به ، وانه جدير ان يسمى في تاريخ الادب (الاسلوب القرآني) .

فاننا نعلم ان الباحثين في الادب وتاريخه وصلوا في نهاية البحث عن الاساليب ومعايير الاداء والوان الكلام ، الى ان هناك اسلوبا ادبيا ، وآخر علميا ، وان الاول يدخله من الاناقة والحسن ، والابداع والزخرفة ، وروعة وجودة التصوير ، ما لايكون في الثاني الذي لايتجاوز الكشف عن الحقيقة ، وسرد الانواع ، ووضوح المعنى ولا يلتفتون الى ان القرآن الذي جاء وللعرب نثر جاف غليظ ، واسلوب ممجوج ، كان تعبيره من السهولة والسلامة ، والبساطة والوضوح ، والخفة والروعة ، بحيث لا يمل منه قارىء ، او يتحول عنه سامع ، وكان — كذلك — مشتملا على النثر الادبي الجميل التعبير ، الحسن التصوير الرقيق اللفظ ، اللطيف الاسلوب مثل (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب) ، فانه رسم لك صورة ذهنية رائعة لذى الجلال سبحانه في علو شانه ، وسمو عرشه ، الذي يلقي منه الروح باختياره على من يشاء من عباده ، ليتقوا نقمته يوم لقائه ، يوم هم بارزون لايحجبهم عنه شيء ، وله وحده الملك والملوك ، وهي من غير شك تبعث على الرهبة ، وتحمل على الخوف .

والى جانب هذا اللون الذي يشتمل على روعة الشعر وخياله ، وجمال تصويره وحسن ادائه ، وخفة بيانه ، يوجد فيه الاسلوب العلمي الذي يجيء على هيئة السرد والعد ، كما في قوله تعالى (ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ، من بعد وصية يوصين بها او دين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم

ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين . . وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت ، فلكل منهما السدس ، فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ، من بعد وصية يوصي بها او دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم) او على سبيل التعليم والارشاد كما في آية صلاة الحرب (واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم . فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا ، فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ، ود الذين كفروا لوتغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم ، وخذوا حذركم ، ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا) فانه لم يحفل بحسن الاداء ، وجمال العرض ، كما احتفل ببيان الحكم المجرد لا مزيد فيه ، ولا مبالغة معه ، ولا الاقة عليه .

ونحن لا يعنينا من حديثنا عن اسلوب القرآن ان نعرض عليك الاسلوب الادبي ، والاسلوب العلمي ، فان حديثهما ليس من الاهمية بهذه المثابة ولكننا نعرض عليك شيئا آخر لم يفطن اليه كثير من الباحثين في القرآن ، او المتحدثين عن اسلوبه البياني . . . ذلك هو غزوه للشعر وارغامه له ، وتعاليه عليه ، بما جاء به من الوان كانت جديدة على الناس ، وكان لابد ان تهزهم هزا عنيفا ، وان تشغل بالهم الى حد ان يحتقروا الشعر الذي تخلف بيانه ، وتأخر لفظه وكبابه جواده ، وضاق عطفه ، وقصر لحاقه . . .

ومما لا خلاف فيه ان القرآن شغلهم عن الشعر، وصرفهم عنه ، وزهدهم فيه ، وجعل كثير منهم لا يعنون بامره في كثير ولا قليل ، الا اننا لا نعني من وراء هذا ان نقول ان الشعر قد اختفى من الميدان كل الاختفاء ، فان واقع الحال يكذب ذلك ، لان الشعر كان موجودا يؤدي دور المعارضة او التأييد ، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم مؤيدون ينافحون عنه ، ويحمون ظهره كما كان هنالك معارضون ، يصرفون الناس عنه ويحولون الانظار الى سيره من انصار الشرك ، ودعاة التخلف الى الوراء . . . واذا حاولنا ان نسجل تسجيلا صحيحا ذلك الدور الذي لعبه القرآن الكريم ــ حينئذ ــ الى درجة انه صد النفوس عن الشعر ، وبغض فيه ذلك التبغيض ، لا نجد سبب ذلك ان دعوته كانت جادة وان دعوة الشعر كانت هازلة او ان هدفه كان نبيلا ، وان هدف الشعر ليس كذلك ، او ان القرآن كان يعلن صوت الحق ، وان الشعر في هذه الاونة كان يعلن صوت الباطل ، ولا انه الثورة الاصلاحية الكبرى التي ذهل لدويها اهل الارض جميعا حتى لم يعد عندهم من الفراغ ولا من القبول ما يساعدهم على الاقبال على الشعر ، ولا على الرغبة في الاشتغال به ، انما نجد ــ ايضا ــ انه تناول الموضوعات والاغراض التي كان الشعر يتناولها فاربى عليه ، وجاء باسلوب جعل العقلاء من الناس يحكمون بان اسلوب الشعر لا قيمة له بعده . . .

فمن حيث الموضوعات التي تناولها الوصف ــ مثلا ــ وذلك كقوله تعالى في تصوير خيبة آمال الكفار ــ يوم القيامة ــ في اعمالهم التي عملوها في الدنيا زاعمين انها تنفعهم عند الله فتحول بينهم وبين عذاب جهنم . . (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه ، لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه) فانها تتحدث عن انسان في مفازة قاحلة بعيدة عن العمران والبنيان ، يوجد بها هذا الظامىء الذي اشتد به الظما ، والح عليه العطش ، وهو يبدو له على البعد شيء كالماء وليس بماء ، وهنالك تدفعه الحاجة والرغبة ، والامل الخادع ، والشغف الملح ، والطلب الدائب ، مستهينا بالتعب الذي يلاقيه ، والنصب الذي يعانيه ، والجهد الذي يكده ويهده ، ولكنه بعد الاعياء ، والهزال والعناء ، يتكشف له الحال ، وتظهر له الخيبة ، ويتأكد ــ حينئذ ــ انه كان عابثا ، ويؤمن بانه كان مغرورا، يطلب موهوما ، ويبقى معدوما ، ويجري وراء سراب ، أو يطمئن الى كذاب . . . وهو ــ كما ترى ــ وصف رائع ورسم دقيق ، زاد في روعته وحسن تصويره ، ذلك الرقي في الاسلوب الذي جعل الكافر مع هذا العمر الضائع ، والامل الخائب ، والعناء الذاهب ، ستكون خسارته مزدوجة ، لانه ــ مع ذلك ــ لا يفلت من العقاب ، ولا ينجو من العذاب ، ولا يهرب من طائلة القانون (ووجد الله عنده فوفاه حسابه) .

والتهديد والتوعد ، وذلك كقوله تعالى : (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون، فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون، فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدوا ، انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين ، ولا تصل على

احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ، ولا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم فى الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون) فهو يتوعدهم بنار جهنم التي هي مصيرهم المنتظر ، ولئن كانوا يسخرون من المومنين ويضحكون من المسلمين فسوف يكون بكاؤهم مضاعفا ، واسفهم كثيرا ، ومثل هؤلاء لا يخرجون للقتال مع النبي (ص) لانهم جرثومة فساد ، وعناصر ضعف ، وليس من حق الرسول ان يصلي على موتاهم ، او يزور قبورهم ، ولئن كانوا فى غنى من المال وكثرة من الاولاد فان ذلك إبتلاء من الله فى الدنيا وعذاب شديد — بعد ذلك — فى الآخرة ... وما اظن احدا يرتسم له مستقبله بتلك الخطوط يكون له بقية من امل ، او اثارة من رجاء ، او معنى من تفاؤل او شيء من تماسك قوي ، او بعض من ترابط مفاصيل ...

ولا نريد من وراء ذلك ان نقنعك الاقناع كله لتؤمن بان القرآن الذي نحدثك عنه طرق ابواب الشعر جميعها حتى الهجاء والرثاء ، وحديث المعارك والملاحم ، وان كنت لا تعدم — اذا اردت البحث — ان تجد لذلك ملامح بارزة وصورا ظاهرة ولكننا نريد — فقط — ان نقول لك ، ان للقرآن اسلوبا يتميز به وخصائص من البيان لم يشاركه فيها غيره ، لانه كتاب تشريع وهداية ، وتهذيب واصلاح ، وانتشال للبشرية من وهدة الضلال الذي كانت تعانيه ، والطيش الذي كانت تقاسيه ، ومثل هذا الكتاب الذي يكون صاحب رسالة خاصة ، وغرض يعنيه ، ما كان ينتظر منه الا ان يكون جاف المعين خشن التصوير ، غليظ البيان ، جامد الادب ، تحيط بالناظر فيه الملالة والسأم ، الا انك ربما وجدته مؤرخا يعبر بك القرون فيحدثك عن آدم وقابيل وهابيل او عن بني اسرائيل وما عانى منهم نبي الله موسى من العنت والارهاق ، او عن قصة البقرة والمائدة التي ارادوا ان تكون لهم عيدا لاولهم وآخرهم ، او يحدثك عن دعوة ابراهيم ابي الانبياء واصطدامه بابيه ، ومناقشته له ، وتحطيمه للاصنام ، والقاء النمرود له فى النار ، وانقاذ الله له ، وقوله سبحانه للنار (كوني بردا وسلاما على ابراهيم) وغير هذا وهذا مما انطوى فى لفائف الزمن ، واندثر فى غبار التاريخ ، يذكره ذكرا خاطفا ، ويعرضه عرضا مجملا ، ويقصه فى روعة وجمال ، مملوءا بعناصر البهجة والهشاشة ، والرغبة والشغف ، والظمأ الى المزيد ، والتطلع الى الاكثار ، والاعادة والتكرار .

ولئن كان احسن ما اهتدى اليه الناس فى الاسلوب (البياني) فى النثر الادبي ان يكون مرسلا من القيود ، خاليا من الاغلال ، بعيدا عن الصناعة ، حرا مما ينقله من الالتزامات البغيضة المستكرهة مثل اسلوب ابن المقفع فى عهد بني العباس ، او المنفلوطي من كتاب عصرنا الحديث ، فان للقرآن منهجا غريبا الى ابعد حد فى اسلوبه الذي جاء به .. فأنت تظنه يلتزم الفواصل فى مثل قوله (طه ما انزلنا عليه القرآن لتشقى، الا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا من خلق الارض والسموات العلا ، الرحمان على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى ، وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ، الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ، وهل اتاك حديث موسى اذ راى نارا لخ) اذ تراه يلتزم ما يسميه علماء الرسم الاملائي (بالالف اللينة) ولكن الالتزام يشعر باجتلاب الحرف وهذه كلها لا اجتلاب فيها ، والالتزام يصاحبه تقارب المقاطع فى الجمل والحروف ، وانت قد ترى تقاربا ، وقد ترى عدم تقارب ، على انك لا تلبث ان تراه بعد ذلك وقد ترك الروى الى غيره ، اذ يقول (اذهب الى فرعون انه طغى ، قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي امري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي اشدد به ازري ، واشركه فى امري) ثم يأخذك العجب كل العجب فى الانتقال من (ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) وقوله بعد ذلك (وهل اتاك حديث موسى اذ راى نارا) الى آخر قصته مع فرعون والسحرة ، وربما بدا لك ان تقول هنالك طفرة فى الحديث ، وتفككا فى الارتباط ، ولكنك بعد ان تمعن فى النظر تدرك المناسبة فى الدعوة واحتمال الشدائد ، وانتصار الحق ، وعلو كلمة التوحيد ...

وهذا الاسلوب البياني فى القرآن الكريم الذي تظنه — لاول وهلة — مثقلا بالصناعات اللفظية ، ترى فيه الآيات الطويلة ، مثل آية (ولكم نصف ما ترك ازواجكم التي تقدم ذكرها ، ومثل آية (واتموا الحج والعمرة لله ، فان احصرتم فما استيسر من الهدي ، ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله ، فمن كان منكم مريضا او به اذى من راسه ، ففدية من صيام او صدقة او نسك ، فاذا امنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج ، فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة، ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب) ومثل آية (ثم انزل

عليكم من بعد الغم امنة نعاسا يغشى طائفة منكم قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الامر من شيء؟ قل ان الامر كله لله ، يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور) ومثل آية (ليس على الاعمى حرج ، ولا على الاعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم ، او بيوت آبائكم ، او بيوت امهاتكم ، او بيوت خالاتكم ، اوما ملكتم مفاتحه ، او صديقكم ليس عليكم ان تأكلوا جميعا او اشتاتا ، فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون)

ونرى ــ كذلك ــ الآيات التي هي اقل في الطول من تلك الآيات ، ثم ترى مثل آيات سورة طه ــ المتقدمة ــ او آيات سورة مريم ، او ترى تلك المقاطع الصغيرة مثل (والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، وما خلق الذكر والانثى ، ان سعيكم لشتى) .. وهكذا يتنوع في طويل من الآيات وقصير منها ، وفي جمل اقصر من هذه وهذه ، ليستطيع طويل النفس ان يرخي العنان لنفسه ان يمتد كما يشاء له هواه وميله ، وليستطيع متوسط النفس ــ ايضا ــ ان ياخذ بحظه من اللذة التي يدركها المومن الذي يتغنى بالقرآن ، وليستطيع الطفل الذي يريد اهله ان ياخذوه بنطق المقاطع الصغيرة ان يقرا .. وهو على كل حال تلوين من الطول والقصر في الآيات والسور والاغراض والموضوعات ، ما بين شدة مزعجة ، ولين هادىء تأنس به النفس ، ويطمئن اليه القلب ، ومع ذلك وذلك تراه يخاطب العقل بمنطق قوي ، وحجة ظاهرة ، ودليل واضح ، مثل (قل من يرزقكم من السماء والارض ، ام من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامر فسيقولون الله ، فقل افلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق ، فما ذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون) وتراه يخاطب الشعور والوجدان خطابا يستدر العطف ، ويوقظ الحس ، مثل قوله (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) وهذا النوع الاخير يفتن في عباراته ، ويتألق في الفاظه بكل اسلوب من شانه ان يجعل في القلب ميلا ، وفي الفؤاد رقة ، وفي النفس استجابة ، وربما استعمل كلمة الود او الحب ، مثل (أيود احدكم ان تكون له جنة) .. (وان يات الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب) .. (سيجعل لهم الرحمان ودا) ومثل (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) .. (قل ان كان آباؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله الآية) ..

ونحن اذا رحنا نتقصى كل هذه الخصائص للاسلوب البياني في القرآن وجدنا مجال الحديث واسعا، وميدان القول فسيحا ، ونواحي الكلام متشعبة ... غير ان الذي يسترعي الانتباه اكثر واكثر انه نزل على العرب ، وللشعر دولة قائمة وسلطان مرهوب ، وانه استطاع ان يقضي على تلك الدولة ، وان يقلم اظفار هذا السلطان ، وان العرب الذين كانوا يعلمون ان هذا الاثر في النفوس يشبه الى حد ما كان يحدثه فيهم السحر والشعر رموه بكونه سحرا وشعرا ... وقد نزهه الله سبحانه وتعالى عن ان يكون كذلك ، وان كانت الهزة التي تحدث بعد الاصغاء اليه ، والتامل فيه، لا تقل عما كان يتخلف عن السحر والشعر .. وهم لم يكونوا من البلاهة والجنون بهذه المثابة التي تجعلهم يحكمون على الاشياء جزافا ، ويتهمونها اعتباطا ، فما هي عوارض الشعر وخصائصه التي وجدوها في ذلك الكتاب السماوي الذي حمل لواء الدعوة اليه محمد صلى الله عليه وسلم ...

ان من خصائص الشعر الموسيقي التي يساعد عليها الى جانب الوزن ــ العروضي ــ اختيار الالفاظ وتنسيق الجمل ، وتاليف الكلمات ، وقد توافر هذا للآيات البينات ، وتحقق ذلك كله للاسلوب القرآني بشكل يدعو الى الاعجاب ، ويحمل على الاجلال والاحترام ، ومن خصائص الشعر ــ مع هذا ــ انه يثور بالافئدة ، ويطير بالجوانح ، ويتلاعب بالشعور ، ويسمو بالخيال ، ويهز اوتار النفس ، وفي القرآن آيات كثيرة من هذا النوع الذي يحلق بالذهن ، ويطير بالخاطر ، ويسبح بالخيال والوهم الى اودية من الاحلام الجميلة ، كقوله (وهو الذي انزل من السماء ماء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من اعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ، ان في ذلك لآيات لقوم يومنون) فانه صور متلاحمة النسج ، متلاحقة الشكل ، متكاملة الحسن ،

متناسبة الالوان ، من ذلك الماء الفضي ، المتقارب الحجم المتداني الابعاد ، الى تلك الخضرة الضاحكة ، والنضارة الباسمة ، والشباب المتوثب فى الزرع الغامر ، والثمر الناضج ، والنخل الباسق ، والعنب الممتد ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، يلهم الفنان الاتقان ويوحي الى العبقري كل معاني الابداع .. وتدل بما افرغ الله فيها من اجادة على كمال القدرة ، وغاية الاعجاز ، ولله جل جلاله المثل الاعلى ، تباركت الاؤه ، وعظم صنعه ...

وللشعر وراء خصائصه المعروفة ميزة اخرى مهمة الى حد بعيد فى جمال نغمته ، ودوي جرسه ، وحسن ايقاعه ، وطلب النفس للمزيد منه ، تلك هي انه يكرر الحرف الاخير من البيت ، وهو ما يسمى في اصطلاح علماء القوافي بالروي ، ويقوم مقام ذلك في القرآن الحرف الاخير فى آخر الايات كالياء المشددة فى سورة مريم (كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكرياء ، اذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الراس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا ، واني خفت الموالي من ورائي وكانت امراتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) ولا تزال آيات السورة على هذا الروي الى ان تتحال منه عند قوله سبحانه (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون الآيات) ثم تعود من جديد الى هذا الحرف الياء المشددة ، (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا) ثم لا يزال هكذا الى ان يترك تلك الياء الى الدال ابتداء من الاية (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمان مدا) الى نهاية السورة (وكم اهلكنا قبلهم من القرون هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا ؟ !) ولا يفرغ القاريء من هذه السورة حتى يدور بذهنه انه كان يقرا قصيدة من الشعر الحديث الذي يبتديء الشاعر فيه بروي ثم ينتقل الى روي آخر بعد مقطع — طويل او قصير — ثم يعود الى الاول او لا يعود ، وربما بدا للقاريء حين ينظر فى سورة « محمد » ان يقول هذا هو الذي يسمونه بالشعر المنثور ..

والقصة وهي احدى الجوانب الخصبة فى الادب العربي كانت بعض الخصائص البيانية فى اسلوب القرآن الكريم الا انه نهج فيها نهجا فريدا ، فهو بين ان يكررها بعبارات متنوعة ، والوان مختلفة ، كقصة موسى وابراهيم وبعض الانبياء الآخرين الذين يذكرهم فى سورة الحجر وفى سورة الانبياء وفى سورة الشعراء مقتضبة يجيء بناحية منها دون الاخرى او يجيء بها متكاملة فى موضوع واحد ، كقصة يوسف واهل الكهف وحديث زينب بنت جحش التي تزوجها النبي (ص) بعد مولاه زيد بن حارثة ليقضي على ما كان العرب يزعمونه للمتبني من حقوق كالابن من النسب سواء بسواء .. وايا ما كانت القصة فى القرآن فانها لم تفقد العناصر الاساسية لرسالة القرآن كمصدر للتشريع ، ومثال للتهذيب ، وموضع للعبرة والاتعاظ ، واسلوب من اساليب البيان له روعة البلاغة النادرة ، وقيمة الادب الخلاب ، وجلالة التصوير الساحر ، الى جانب ترفعها عن الاسفاف الذي يرتكبه الكاتب القصصي من مخالفات للذوق فى بعض الاحايين بحجة اثارته للوعي والانتباه ، او التامل والتفكير وهي لا تعدو الافساد للغرائز ، واشاعة معاني الابتذال والسقوط ...

وللقرآن بعد هذا الذي قدمناه من الميزات البيانية التي يلحظها فى تصويره للاشياء ، وابرازه للمعاني ، ومراعاته للمقتضيات — كما يقول علماء البلاغة — لفتات نفسية تحتاج وحدها الى ان يتضافر اساتذة علم النفس للكشف عنها ، وجلاء الغامض منها ، وستظل الدراسات الحديثة التي تمسه ذلك المس الرقيق تظهر للناس منه اكثر مما يعرفون ، وسيظل هو الجبل الشامخ والاستاذ الكبير .

ليبيا : ابراهيم علي ابو الخشب

في ذكرى الإمام محمد عبده

للأستاذ أنور الجندي

في ذكرى الاستاذ الامام يتجدد الحديث عنه ولا ينتهي ، وبعد عشرات المؤلفات في سيرته واعماله ، يلقانا المصلح المصري العربي بوجهه المشرق وكأنما يعيش معنا بعد ستين عاما ، ويشارك في النهضة ، فما تزال كلماته نابضة بالحياة ، لم يجف مدادها ، وما تزال دعوته حية ممتدة ، هذه الدعوة التي تلخصها كلمات قليلة (تحرير الفكر من قيد التقليد) .

مفتاح شخصيته ، معرفته لجمال الدين الافغاني (موقظ الشرق) ، فقد امدته معرفته به بجوهر نفسه وكشفت له عن الطريق ، فقد سار مع جمال في طريقه حينا ، ثم اختار السبيل الذي اعانه على تكوينه ، جوهر طبيعته الاستقلالي ، وخبرته وتجربته ، وهجرته وسجنه ، فقد آمن جمال الدين بالثورة ، واعتقد محمد عبده بان « التربية » هي السبيل ، وبدا جمال الدين مثاليا ، يحلق في الافاق ، وانتهى محمد عبده واقعيا يريد ان يغير الحياة عن طريق التحويل البطيء الاكيد ، لقد تبلور منهج الشيخ عبده خلال مرحلة من الزمن ، بعد ان خطا مع استاذه خطوات على الطريق الاول ، فلما لم تثمر ، تنبه الى انه لابد من شق طريق آخر ، واعلن لصاحبه وجهة نظره حين تمنى لو استطاع ان يجمع مائة حدث من ابناء المسلمين والعرب فعلمهم تعليما خاصا ثم بثهم في بلادهم ، فحملوا لواء القيادة فيه بعد عشر سنوات او خمس عشرة . وقد اغضب ذلك جمال الدين ، ولكن محمد عبده حين عاد الى مصر بعد المنفى اثر الثورة العربية ، جعل ذلك هدفه وسار في الطريق شوطا .

* * *

رسم منهجه في العمل الفكري الذي تخصص له في ميدانين كبيرين : هما الاصلاح الديني واحياء اساليب الكتابة العربية وترقيتها ، وكان (العلم) في نظره اداة التحرر من النفوذ الاجنبي ، فاذا استطاع الشعب ان يمحو الجهل ، امكنه ان يشق طريقه الى الحرية ، ولذلك عزف عن اسلوب الصيحات العاطفية ، وكلمات الحماسة ، ووقف في الصف المضاد لها ، مؤمنا بانها اسلوب لا يحقق شيئا ، وخير منه اسلوب العمل الدائب الصابر الذي ينتهي بالاستنارة واليقظة الفكرية .

ومن اجل هذا كانت دعوته الى اصلاح الازهر وتحرير العقائد ، والعودة بالاسلام الى بساطته الاولى وتخليص الاسلوب الادبي من الزخرف ، وقد حمل معه هذه الدعوة الى كل مكان ذهب اليه ، فكانت دعوته ابان هجرته في بيروت وبلاد الشام ، وكانت صيحته في زيارته لتونس والجزائر ، ومن هنا بدا عمله كمذهب واضح عميق الخطوط ، يجد الانصار والاتباع في كل مكان ، وتظاهره مجلة المنار التي كانت تنقل الى مختلف بقاع العالم الاسلامي شروحه وكلماته وتفسيره للقرآن بروح العصر .

* * *

وقد صور الشيخ عبده منهجه في كلمات دقيقة حين قال : ارتفع صوتي بالدعوة الى امرين عظيمين : الاول **تحرر الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف ،** والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترده عن شططه وتقلل من خلطه ، وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث في اسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها في ادب النفس واصلاح العمل .

الثاني اصلاح اساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء المخاطبات الرسمية او في المرسالات بين الناس ، وكانت اساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب : (الاول) ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التاليف بين الكلمات ، رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم ، لا في صورته ولا في مادته ، (والنوع الثاني) ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الازهر ، وهو ما كان يراعي فيه السجع ، وان كان باردا وتلاحظ فيه الفواصل وانواع الجناس وان كان ردئيا في الذوق ، بعيدا عن الفهم ، ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود .

وهناك امر آخر كنت من دعاته والناس جميعا في عمى عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما اصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، نعم : كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا ، دعوتها الى الاعتقاد بان الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وانه لا يرده من خطئه ولا يقف طغيان شهواته الا نصح الامة له بالقول والفعل ، جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظلم من حديد ، والناس كلهم عبيد له اي عبيد .

ولم اكن في كل ذلك الامام المتبع ، ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا ابرح الى عقيدتي في الدين واطالب باتمام الاصلاح في اللغة وقد قارب)

.. ولا شك يعطي هذا المنهج اسلوب تفكير « محمد عبده » وعمق مفاهيمه لنفسيات الشعوب وتطور الحياة الاجتماعية وولادة النهضات وشيخوختها

وقد كان للشيخ عبده دوره الواضح في الاصلاح الديني يفتح باب الاجتهاد ، تمثل في قرار ذي خمس نقاط :

- فتح الاجتهاد وعدم الاكتفاء بالتقليد .
- محاربة الخرافات والاباطيل التي نسبت زورا الى الدين .
- تحريك رجال الدين من رقادهم .
- الاعتماد في نهضة المسلمين على النهوض بالازهر لانه حصن الدين ومعقل اللغة .

وكان له عمله في اصلاح الازهر وانشاء مدرسة القضاء الشرعي واصلاح نظام المحاكم المختلفة ومحاربة البدع والخرافات .

* * *

وقاوم بقلمه كل ما وجه الى الاسلام من اتهامات وكان ابرز موقفين له : رده على (هانوتو) و (فرح انطون) حيث ابرز سماحة الاسلام وموقفه من العلم والعلماء وحرية الرأي في كتابيه الاسلام والنصرانية والرد على هانوتو . واتسمت مساجلاته بالعمق وقوة الحجة والترفع عن المجادلات الرخيصة .

* * *

وتبدو حياته الفكرية في مطالعها في « الكتابة الصحفية » بين الاهرام ، والوقائع ، والعروة الوثقى والمنار . اما كتاباته في الاهرام منذ صدوره (1876) فكانت تلخيصا لمحاضرات السيد جمال الدين وقد شغلت مساحات كبيرة في اعداد متصلة ، وهو بذلك اول من كتب ملخصات المحاضرات في الصحف .

ومقالاته في الوقائع (1789) جريئة ممتازة تعنى بالنقد الاجتماعي واصلاح المجتمع ، وفيها عرف اسلوبه بالبساطة والهدوء والقدرة على التحليل دون مبالغة او اندفاع . وفيها نشر بضعة وثلاثين مقالا تناول فيها احوال البلاد ودعا الى الترقي واقامة النهضة على دعائم ثابتة .

اما مقالاته في العروة الوثقى (1884) فهي آية في الجرأة والايمان والدعوة الى مقاومة المستعمر والنفوذ الاجنبي ، وكان هو المحرر لكل ما نشر في اعدادها الستة عشر ، التي هزت بريطانيا فحرمت دخولها الى مصر والهند .

وفي المنار (1889 » كانت اراؤه تتصدر الصفحات على لسان تلميذه رشيد رضا ، وفيها نشر تفسيره العصري للقرآن الكريم وارائه في الاصلاح ودعوته الى تحرير العقيدة والعلم حيث كشف عن اصالة الاسلام وقدرته على مواجهة التطور والالتقاء بالحضارة .

ولا غرو ان يتجه محمد عبده هذا الاتجاه الذي ارتبط به طوال حياته ، فقد كانت الكتابة والصحافة هي وسيلة المصلح والداعية والمفكر في اداء رسالته ،

فاذا اثر عن الشيخ عبده انه قال فى مطالع حياته : « انما خلقت لكي اكون معلما » عرفنا انه انتقل من التعليم فى الفصول وبين مقاعد الدرس الى التعليم على نطاق الامة كلها بواسطة الصحيفة والكتاب .

* * *

وتبدو صورة محمد عبده وكرجل يكره التقليد ويؤمن بالتحرر والاجتهاد والتطور فى اسلوبه الذي كتب به لاول مرة ، فى الاهرام ، وفى نوع من محاضراته حين بدا عمله فى دار العلوم ، حيث اتخذ من (مقدمة ابن خلدون نقطة البدء فى وقت كانت هذه الدراسات مجهولة مدفونة تحت تراب التقليد .

ومنها استطاع ان يتحدث عن نهوض الامم وسقوطها واصول الحضارة والعمران البشري والاجتماع الانساني .

وبدا طابعه واضحا منذ مطالع حياته فى استقلال الراي والتحرر من التقليد ، وضح ذلك منذ ان قرا كتب (المعتزلة) فى الازهر ، فنال غضب اساتذته ، وقال له الشيخ عليش وهو يحاوره : بلغني انك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ؟

فانبرى الشيخ عبده يرد عليه : يا سيدي : اذا كنت اترك تقليد الاشعري فلما ذا اقلد المعتزلي ، انني اذن اترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل .

وهكذا تحرر فكر الشيخ عبده من الاساليب القديمة فى الفقه ، كما تحرر فى الكتابة وبذلك رفض التقليد ونهج فى دروسه نهجا جيدا ، وبدت حلقاته في التاريخ الاسلامي وفلسفة الاجتماع واسرار نهوض الامم : فى الازهر ودار العلوم ، ومدرسة الالسن ، تقوم على اساس التوجيه والبعث وتطهير العقول من الخرافات والبدع .

وكذلك ادته حرية رايه واستقلال فكره الى ان يختط طريقا مغايرا لطريق استاذه جمال الدين كان اجدى على الامة العربية واعمق اثرا .

* * *

ولا شك لوثبات الشيخ عبده اثر فى طابعه الاستقلالي المتحرر ، وكان لصلته بالشيخ درويش الزاهد المتصوف اثرها فى عزوفه عن الدنيا وانصرافه عن مطامعها ، وتطلعه الى مرضاة الله ، ثم تحرر من هذا الاتجاه الصوفي وتعمق ، وحمل طابع الايجابية بدلا من السلبية بعبارة جمال الدين التي وعاها الشيخ عبده واتخذها نبراسا وهي قوله (فناء الصوفي فى الله وفنائي فى خلق الله) .

ثم كان لقراءاته الحرة فى الاداب الغربية الحديثة ، وما سوى كتب الازهر ، ثم اسفاره الى اوربا ولقائه لعدد من علمائها وساستها اثر واضح فى تعميق مفاهيمه وبلورة اتجاهه .

فقد قرا الشيخ عبده مصنفات العلماء الغربيين المترجمة الى العربية ، ولم يلبث ان شعر بحاجته الى دراسة لغة اجنبية فتعلم الفرنسية فى الاربعين ، واجاد الحديث والقراءة بها ، وعني فى قراءاته بكتب الاخلاق والاجتماع والتاريخ والفلسفة والتربية مما ترجم عن الفرنسية او الانجليزية ، واعجب بهربرت سبنر وزاره فى انجلترا ، وترجم الى اللغة العربية كتابه عن التربية عن طريق النص الفرنسي .

ويرى محمد عبده ان رحلاته الى اوربا امدته بفائدة كبرى ، كان يقول : ما من مرة اذهب الى اوربا الا ويتجدد عندي الامل فى تغيير حال المسلمين الى خير منها ، وفى اوربا ، كان يزور جامعات فرنسا وسويسرا ولقد حضر ثمة فى جامعة جنيف دروسا فى الاداب والتاريخ والحضارة .

ولكن اتصاله بالفكر الغربي لم يزده الا ايمانا بامته وفكرها ، فكان قوي الحجة فى رد الكيد ، يبدو ذلك فى رده على جبرائيل هانوتو حيث يقول : انالحضارة التي وصل اليها الاوربيون لم تصل اليهم الا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا اليها من البلاد الشرقية الآرية ، وان اليونان الذين سماهم مسيو هانوتو معلمي اوربا اقتبسوا مدنيتهم من مخالطة الامم السامية ، وبينما كانت اوربا لا تعرف مدنية غير التسافك فى الدماء واشهار الحرب ، جاء الاسلام اليها حاملا معه علوم اهل فارس والمصريين والرومان واليونان بعد ان نظف جميع ذلك ونقاه من الادران .

وهو يهاجم المتحلين والمقلدين هجوما مرا ، يقول: (قد علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بان المقلدين فى كل امة المتحلين اطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما افعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم اشبه بهم) .

وكان الشيخ عبده معنيا بالتحدث عن (علة تأخر الشرق) مطالبا بدراسة علم البشرية الذي يحسن ادب النفس ، وما اودعته الديانة من الاداب النفسية

والكمالات الروحية والذي لم يختلف في صحته احد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين ...) .

وقد حرص الشيخ على الدعوة الى التربية والاقتباس من الثقافات العالية دون التقليد الذي يمسخ الشخصية ، وكان في دعوته الى الحرية الفكرية حريصا على التدرج ويرى انه من الخطأ - بل من الجهالة - ان تكلف الامة بالسير طفرة واحدة الى هدف بعيد المنال دون تقدير للتطور الذي يجري مع الزمن .

ولعل حديثه مع « هربرت سبنسر » حين لقيه في لندن 1903 يصور مدى عمق هذه العقلية وقدرتها على مواجهة المعضلات ، وقد جرت هذه المحادثة بينهما :

(سبنسر) هل الشرق يسير في تفكيره على النمط الذي يسير فيه الفكر في اوربا ؟

(عبده) ان ما يتعلمه الشرق من الغرب هو الخبيث دون الطيب .

(س) اذا رجعنا الى موجه الامور فاني اظن ان الفكرة السائدة عن القوة الخفية المحركة للعالم والتي يقولون عنها (الله) ليس فيها خلاف بيننا .

(ع) اننا نعتقد ان الله كائن وانه ليس بشخص .

(س) ان التمييز في ذلك صعب الفهم والادراك ، يظهر انكم تعتقدون بقصور العقل عن الادراك الالهي ، وهذا يشبه نظرية الذين يجهلون الله ، وهي النظرية الموجودة بين الكثيرين في اوربا .

ومثل هذا ما دار بينه وبين بلنت :

يقول (بلنت) هل تعتقد ان الله وعيا ، وانه يعلم بانك موجود وانني موجود ، الا يدل هذا العلم على وجود الشخصية ؟

(عبده) نعم انه يعلم .

(ب) اذا كان هو يعلم ذلك فهو يعلم كذلك انك طبيب وانني غير ذلك ؟

(ع) نعم ...

(ب) اذن فهو راض عنك وغير راض عني .

(م) انه يقر اشياء ولا يقر اشياء اخرى .

(انه يقر اليوم ، لان اعمالك صالحة ولا يقر غدا لانها غير صالحة اليس هذا الاقرار من خصائص الشخصية ، فكيف اذن لا يكون الا له شخصا ...

(ع) ان الله يعلم كل شيء في كل وقت ، وليس له يوم وليس له غد ، وهو واحد احد ، وعلمه دائم ، ولا تبديل لكلماته ، مدرك لكل شيء ، خالد ، لا يتشابه الحدوث ، واني اسمي هذا كائنا ولا اسميه شخصية .

(ب) والمادة ، اليست المادة هي كذلك دائمة ، او ان الله هو الذي يخلقها ، فاذا هو الذي يخلقها ، فهو بذلك يقيم تبديلا وتعديلا وتغييرا .

(ع) ان المادة دائمة كما ان الله دائم .

❊ ❊ ❊

وهكذا كان يمضي محمد عبده في طريقه ، اينما حل يناقش العلماء ويكشف عن مفاهيمه في الاسلام : على قاعدته : تحرير الفكر من التقليد وفهم الاسلام على طريقة سلف هذه الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى ...

وعلى هذا النحو بقي اسم « محمد عبده » قائما خالدا في فكرنا العربي الاسلامي الحديث علامة على طريق بلغ بالامة العربية فوق موج الاحداث ، وفتح امامه الافاق ، افاق السلفية التي انتشرت في كل مكان من العالم الاسلامي ، وكان للمغرب دوره الفعال في قيادة حركتها .

القاهرة : انور الجندي

أبحاث ومقالات

حرية الفكر

بول فاليري : ترجمة الدكتور فؤاد أيوب

من قرائن هذا الزمن ، وليست تلك قرينة جيدة ، الا يكون اثارة اهتمام الافكار بمصير الفكر ، يعني بمصيرها الخاص ، امرا ضروريا فحسب ، بل لازما ايضا .

وتتضح هذه الضرورة على الاقل عند اناس بلغوا سنا معينة (وفي سوء الحظ ان السن المعينة هي على الدوام سن محددة تماما) وهم اناس عرفوا عصرا مختلفا كل الاختلاف وعاشوا حياة مختلفة كل الاختلاف وتقبلوا وتحملوا وشاهدوا مساوىء الوجود ومحاسنه في بيئة اخرى ، في عالم مختلف حتى درجة بعيدة .

ولقد اعجبوا باشياء لم تعد اليوم موضع الاعجاب مطلقا ، ورأوا حقائق نابضة بالحياة اضحت اليوم ميتة بالية ، وقامروا بصورة اجمالية على قيم لا يقل انخفاضها او انهيارها بينة ووضوحا واتلافا لآمالهم ومعتقداتهم عن انخفاض او انهيار الاسهم والاموال التي حسبوها فيها مضى ، مع سائر الناس ، قيما لا يمكن ان تنتزع .

لقد شاهدوا دمار الثقة التي كانت تعمر قلوبهم في الفكر ، وهي الثقة التي كانت اساسا لحياتهم ، وهدفا لها حتى درجة ما .

لقد كانوا يثقون في الفكر ، لكن اي فكر ، وماذا يعنون بهذه الكلمة ..؟

هذه الكلمة لا حصر لها ، ما دامت توحي بينبوع سائر الكلمات الاخرى وقيمتها ، بيد ان الاناس الذين اتحدث عنهم كانوا يعلقون عليها مغزى مخصوصا : لعلهم كانوا يعنون بالفكر تلك الفعالية الشخصية ، لكن العمومية ، وهي فعالية باطنة وخارجة على حد سواء تهب الحياة ، تهب قوى الحياة نفسها ، العالم وما يثيره هذا العالم فينا من ردود الفعل ، معنى وعملا وتطبيقا وتطويرا للجهد والعمل تختلف جميعا عما يتطلبه السير العادي للحياة العادية ، عما يتطلبه مجرد بقاء الفرد واستمراره .

وهكذا ينبغي ، كي نفهم هذه النقطة جيدا ، ان نعني بكلمة « الفكر » ههنا القدرة والحاجة والطاقة من اجل تنمية الافكار والافعال غير الضرورية من اجل حسن سير عضويتنا مع تحسين فعالية ذلك السير .

ذلك ان كائننا الحي ، مثله مثل سائر الكائنات الحية يتطلب تملك قوة تحويل تنطبق على الاشياء المحيطة بنا كما نتصورها . وتستنفد قوة التحويل هذه في حل القضايا الحيوية التي تفرضها عضويتنا علينا والتي تفرضها بيئتنا علينا .

فنحن قبل كل شيء جهاز تحويل اكثر او اقل تعقيدا (وفق النوع الحيواني) ما دام كل ما يحيا مضطر الى استهلاك الحياة واستقبالها ، بحيث يجري تبادل التحويلات بين الكائن الحي وبيئته .

ومهما يكن من امر ، فان نوعنا ، وهو نوع غريب بصورة ايجابية ، يعتقد ان من واجبه ، بعد ارضاء تلك الضرورة الحيوية ، ان يبتدع لنفسه حاجات اخرى واهدافا اخرى غير الحفاظ على الحياة ، ان مبادلات اخرى تشغله ، وتحولات اخرى تسترعي انتباهه . ومهما يكن اصل وسبب هذا الانحراف العجيب ، فان النوع الانساني قد انخرط في مغامرة يجهل غايتها ويجهل منتهاها ، بل يحسب انه يجهل حدودها .

لقد انخرط في مغامرة ، وما اسميه الفكر قد وفر له ، في وقت واحد ، الاتجاه الآلي والمهماز والشوكة والدافع والحافز ، كما وفر له المبررات وسائر الاوهام اللازمة من اجل الفعل ، لقد اختلفت تلك المبررات وهذه الاوهام على اية حال من عصر لآخر .. اذ افق المغامر الفكرية متغير ..

هذا هو اذن ، على وجه التقريب ، ما عنيته بكلماتي الاولى .

واريد ان اتاخر قليلا عن هذه النقطة كي ابين بمزيد من الدقة كيف تتميز هذه القوة الانسانية ـ ليس بصورة تامة ـ عن القوة الحيوانية التي تهتم في الحفاظ على حياتنا ، وقد تخصصت في انجاز الدورة المادية الخاصة بوظائفنا الفيزيولوجية

انها تتميز عنها ، لكنها تشبهها ، وهي وثيقة الصلة بها ، وان هذا التشابه لحقيقة هامة جدا ، وحين تتأمل فيه جيدا تجده خصب العواقب بصورة فريدة .

وليس ابسط من ملاحظة ذلك : يجب الا ننسى اننا مهما فعلنا ، وكائنا ما كان موضوع فعلنا ، وكائنة ما كانت جملة الانطباعات التي نتلقاها في العالم المحيط بنا ، وكائنة ما كانت ردود فعلنا ، فان نفس العضوية هي التي تكلف بهذه المهمة ، كما ان نفس جهاز الاتصال يستخدم في الوظيفتين اللتين اشرت اليهما النافعة وغير النافعة ، الضرورية والاعتباطية .

انها نفس الحواس ، نفس العضلات ونفس الاعضاء ، والاكثر من ذلك انها نفس الانماط في الاشارات ، ونفس ادوات المبادلة ، ونفس اللغات ونفس الاساليب المنطقية التي تدخل في الاتصال الاكثر ضرورة لحياتنا كما تدخل في اكثر الافعال بطلانا وعفوية .

وباختصار ، فان الانسان لا يملك نوعين من الادوات ، بل نوعا واحدا ، وان هذه الادوات لتخدمه تارة من اجل المحافظة على الوجود وعلى النسق الفيزيولوجي ، كما تستهلك تارة اخرى في اوهام مغامرتنا الكبرى ومشاغلها .

وما اكثر ما وقع لي ، بشأن مسألة خاصة تماما ، ان قارنت بين افعالنا ، وقلت ان نفس الاعضاء ونفس العضلات ونفس الاعصاب تنتج المشي كما تنتج الرقص ، بالضبط مثلما تخدمنا قدرتنا على النطق في التعبير عن حاجاتنا وعن افكارنا ، بينما يمكن لنفس الكلمات ونفس الصور ان تتمازج وتنتج آثارا شعرية ، ان نفس الالية تستخدم في الحالتين لغايتين مختلفتين كل الاختلاف .

فمن الطبيعي اذن حين نتحدث عن مشاغلنا (دائما اسمي فكريا كل ما هو علم وفن وفلسفة الخ) فمن الطبيعي حين نتحدث عن مشاغلنا الفكرية وعن مشاغلنا العملية بينهما ان يوجد تناظر مرموق ، وان يكون في مقدورنا ملاحظة هذا التناظر ، وان نستخرج منه بعض العبر احيانا .

يمكننا ان نبسط هكذا بعض المسائل التي لا تخلو في شيء من الصعوبة ، وان نبين التشابه القائم ، اعتبارا من اعضاء العقل والاتصال ، بين الفعالية التي يمكن : ان نسميها عليا والفعالية التي يمكن ان نسميها عملية او ذرائعية .

فهناك اذن في كلي الجانبين ، ما دامت نفس الاعضاء هي التي تستخدم ، تماثل في العمل ، توفق في المراحل والشروط الحركية .. وهذا كله عميق الاصل واساسي ، ما دامت العضوية نفسها هي التي تسيره .

كنت اقول لكم لتوي عن مبلغ تاثر الاناس الذين في مثل عمري تلقاء العصر الذي يحل ، بكل عنف وقوة ، مكان العصر الذي عرفوه ، وكنت اقول لتوي .. كنت اتفوه بهذه المناسبة بكلمة القيمة .

ولقد تحدثنا عما يجري امام اعيننا من انخفاض وانهيار في قيم حياتنا ، وقد جمعت بكلمة « القيمة » هذه ، في نفس التعبير ، وتحت قرينة واحدة ، القيم المادية والقيم الفكرية على حد سواء .

قلت « القيمة » واني اريد ان اتحدث بالضبط عن هذا الامر .. تلك هي الناحية الرئيسة التي اود لفت اتباعكم اليها .

اننا نجابه اليوم تحولا حقيقيا وجبارا في القيم (كي نستخدم عبارة نبتة الممتازة) ، واذا اعطيت هذه المحاضرة عنوان « حرية الفكر » فقد اخترت بكل بساطة التي احدى تلك القيم الاساسية التي يبدو انها تتعرض في الوقت الراهن لنفس مصير القيم المادية .

قلت « القيمة » لان هناك تقييما ، حكما على اهمية « الفكر » ، كما ان هناك قيمة هي البترول ، او القمح او الذهب .

قلت « القيمة » لاني هناك تقييما ، حكما على اهمية الشيء ، كما ان هناك نقاشا بشأن السعر الذي سيدفع لقاء هذه القيمة : الفكر .

ويمكن ان توظف هذه القيمة ، ويمكن ان تلاحق كما يقول رجال البورصة ، ويمكن ان تشاهد تقلباتها في ما لا ادري اي جدول هو الرأي العام للعالم عنها .

ويمكننا ان نرى ، في هذا الجدول المفيد في سائر صفحات الصحف ، كيف تدخل في تنافس هنا وهناك مع قيم اخرى .

ويسمح لنا اعتبار لقيمة الفكر ، مثلها مثل القيم جميعا ، ان نقسم البشر وفق الثقة التي وضعوها فيها .

فثمة اناس راهنوا بكل شيء عليها ، راهنوا بسائر آمالهم ، وبسائر امكانيات حياتهم ، وعواطفهم وايمانهم .

وثمة آخرون لا يعنون بها الا قليلا ، ذلك توظيف لا فائدة كبيرة منه بالنسبة اليهم ، ولا تهمهم تقلباته الا قليلا جدا

وثمة آخرون اهملوها كليا ، فهم لم يضعوا تقدمهم الحيوي في هذا المشروع .

واخيرا فثمة اناس يجب ان نعترف بانهم يبذلون قصارى جهودهم من اجل تخفيضها .

انتم ترون كيف استعير لغة سوق الاوراق المالية ، وقد تبدو هذه اللغة غريبة اذ تكيف مع الاشياء الفكرية ، لكنني اعتقد اننا لا نملك لغة افضل ، وربما لا نملك اية لغة اخرى كي نعبر عن علاقات في هذا النوع ، اذ ان الاقتصاد الفكري والاقتصاد المادي يذوبان جميعا ، حين نتأمل في الامر ، في نزاع بسيط من التقييمات .

وما اكثر ما دهشت لاوجه الشبه التي تظهر ، دون ان نسعى اليها البتة ، بين حياة الفكر وتظاهراتها ، والحياة الاقتصادية وتظاهراتها .

واما نلحظ هذا التشابه مرة ، فإنه يستحيل الا نتبعه حتى حدوده القصوى .

ففي كلتي القضيتين في الحياة الاقتصادية كما في الفكرية ، تجدون قبل كل شيء نفس المفهومين عن الانتاج والاستهلاك .

والمنتج في الحياة الفكرية هو كاتب او فنان او فيلسوف او عالم ، اما المستهلك فهو قارىء او مستمع او مشاهد .

وانكم لواجدون ايضا نفس هذا المفهوم عن القيمة الذي رجعت اليه ، والذي هو مفهوم جوهري ، في المرتبتين على حد سواء ، كما هي الحال بالنسبة الى مفهوم المبادلة ، ومفهوم العرض والطلب .

هذا كله بسيط ، لا يصعب تفسيره ، تلك عبارات تملك معناها سواء في السوق الداخلية (حيث كل فكر يتنافس او يتفاوض او يتساهل مع الافكار الاخرى) ام في عالم المصالح المادية .

على اية حال فان في مقدورنا ان نعتبر ، في كلتي الجانبين ، العمل والراسمال على السواء : ان الحضارة راسمال يمكن ان تستمر زيادته طوال قرون ، كما هي حال بعض الرساميل ، وهو يمتص في ذاته فوائده المركبة .

وقد يبدو هذا التوازي عجيبا عن التفكير : بيد ان التشابه امر طبيعي تماما ، بل اني ارى فيه وحدة حقيقية ، واليكم السبب في ذلك ، ان نفس النمط العضوي هو الذي يتدخل ، كما قلت لكم ، تحت اسمي الانتاج والاستقبال ، امران لا ينفصلان عن المبادلات ، وفيما عدا ذلك ، فان كل ما هو اجتماعي هو كل ما ينتج عن العلاقات بين العدد الكبير في الافراد ، كل ما يجري في الجملة الواسعة من الكائنات الحية والمفكرة (المفكرة بصورة تزيد او تنقص) حيث كل فرد متضامن مع الاخرين جميعا ومناهض للاخرين جميعا في نفس الوقت — فريدا في ذاته وكأنه غير موجود في ملء العدد الغفير .

تلك هي القضية ، وانها لتشاهد وتتحقق سواء في المرتبة العملية ام في المرتبة الفكرية ، فهذا الفرد في جانب ، وتلك الكمية غير المتميزة والاشياء في جانب آخر ، وبالتالي فان الشكل العام لهذه العلاقات لا يمكن ان يكون على قدر كبير من الاختلاف سواء أكان المقصود هو انتاج اشياء الفكر ومبادلاتها واستهلاكها ام انتاج اشياء الحياة المادية ومبادلاتها واستهلاكها .

وكيف يمكن ان يكون الامر على خلاف ذلك ؟ .. ان المشكلة نفسها تتكرر : الفرد والكمية غير المتميزة في الافراد الذين لا يبرحون دائما على علات مباشرة او غير مباشرة ، وانها لصلات غير مباشرة بالخاصة ، لاننا نتعرض في اكثر الاحيان للضغط الخارجي بصورة غير مباشرة من قبل المادة الاقتصادية او المادة الفكرية ، والعكس بالعكس ، اذ نمارس فعلنا الخارجي من عدد غير محدود من المستمعين او المشاهدين .

وهكذا تقوم علاقة مزدوجة ، فما دام هناك مبادلة في طرف واحد ، وتنوع في الحاجات وفي البشر من طرف آخر ، وما دامت فرادة الافراد ، واذواقهم التي لا قياس لها ، او حذقهم وجدهم ، ومواهبهم وعقائدهم الشخصية تتجابه في السوق ، فان المناقشة التي تجري بين هذه القيم الفردية ، سواء أكانت عقائد ام افكارا ام مواد اولية او سلعا مصنوعة ، تشكل التوازن المتحرك ، وهو التوازن الذي تحدده في كل لحظة القيم في تلك اللحظة بالذات .

كما ان هذه السلعة المعنية تساوي اليوم قدرا معينا ، ربما لبضعة ساعات فقط ، كما انها تخضع لتقلبات مفاجئة او لتحولات بطيئة جدا ، لكنها متصلة ، كذلك هي حال القيم في مجال الذوق ، والعقائد والاسلوب والمثل الاعلى ، الخ..

سوى ان اقتصاد الفكر يقدم لنا ظواهر اصعب على التحديد ، اذ هي غير قابلة للقياس على العموم ، كما انها لا تشاهد من جهة اخرى من قبل اعضاء او مؤسسات تخصصت لهذا الغرض .



وما دمنا ننظر الى الفرد في تعارض مع اشباهه ، فيمكننا ان نتذكر هذه الحكمة التي كان الاقدمون يرددونها ، الا وهي انه لا مجال للخلاف في موضوع المذاقات والالوان،لكن الواقع ان الامر على النقيض من ذلك تماما ، اذ لا يفعل الناس سوى الخلاف في ذلك الموضوع .

اننا نقضي وقتنا في الخلاف في موضوع المذاقات والالوان ، نفعل ذلك في سوق الاوراق المالية ، ونفعل ذلك في لجان التحكيم التي لا حصر لها ، وفي الاكاديميات — لا يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك . فكل شيء مساومة في

سائر الحالات التي لابد فيها للفرد وللجماعة ، للمفرد للجمع ، ان يتجابها ، ان يسعيا اما للاتفاق والتفاهم ، واما للتغلب على بعضهما بعضا .

ان التسائل الذي نتبعه لعظيم جدا هنا حتى يلاقي الوحدة التامة .

وهكذا فاني اقصد الان ، حين اتحدث عن الفكر ، احد مظاهر واحدى خصائص الحياة الجماعية ، وهما مظهر وخاصة لا يقلان واقعية عن الثورة المادية ، وفي الاحايين لا يقلان عنها تعرضا للزوال .

اريد ان ابصر في انتاج ، او تقييم ، او اقتصاد هو مزدهر اولا ، هو اكثر او اقل استقرارا ، مثله مثل الاقتصاد الاخر ، هو ينمو ويتطور ، او يتدهور ، هو يملك قواه العمومية ، ومؤسساته، وقوانينه الخاصة واسراره الغامضة ايضا .

ولا تحسبوا اني اقوم هنا بمقارنة مجرد اكثر او اقل شاعرية ، واني انتقل ببعض التراكيب البلاغية في فكرة الاقتصاد المادي الى الاقتصاد الفكري او الذهني .

والحقيقة اننا اذا اردنا ان نفكر في الامر لوجدناه على النقيض من ذلك تماما ، فالفكر هو الذي بدأ ولا يمكن ان تكون الحقيقة خلاف ذلك .

فتجارة الافكار هي بالضرورة التجارة الاولى في العالم التجارة الاسبق التي بدأت ، التي هي بالضرورة في الاصل ، اذ لابد ان يتم تبادل الاشارات قبل ان يحدث تبادل الاشياء، وبالتالي لا بد ان تستحدث تلك الاشارات .

فلا يمكن ان تكون سوق وان تكون مبادلات دون لغة ، فالاداة الاولى لكل تعامل هي اللغة ، ويمكننا ان نقول هنا (بعد اجراء التعديل المناسب في المعنى) الكلمة الشهيرة : في البدء كانت الكلمة فلابد ان الكلمة سبقت عملية التبادل نفسها .

بيد ان الكلمة ليست سوى احد الاسماء الاكثر دقة لما سميته الفكر ، فالفكر والكلمة مترادفان تقريبا في عدد كبير من الاستعمالات، وان العبارة التي تنقلها الترجمة اللاتينية للتوراة بكلمة الكلمة هي العبارة اليونانية «Logos» التي تعني في وقت واحد الحساب ـ المحاكمة ـ والكلام ـ والخطاب ـ والمعرفة ، وكذلك التعبير .

وبالتالي ، فلست اعتقد حين اقول ان الكلمة تتطابق مع الفكر اني انطق كفرا ـ حتى في المرتبة اللغوية .

ومهما يكن من امر ، فان بعض التفكير يقنعنا بانه لابد ان يسبق كل تعامل ما يبدأ الحديث به ، ما يشار به الى الشيء الذي ستجري مبادلته ، وما يدلل به على الشيء الذي تمس الحاجة اليه ، وهكذا لابد من شيء حي ، لكنه يملك قوة بينة ، وان هذا الشيء هو ما اسميته بصورة عامة الكلمة

فتجارة الافكار تسبق اذن تجارة الاشياء ، وسوف ابين انها ترافقها ، وعن كثب ايضا .

وليست تلك ضرورة منطقية فحسب ، بل يمكن التحقق منها تاريخيا ايضا ، وانكم لواجدون هذا البرهان في الحقيقة المرموقة التالية ، الا وهي ان المناطق التي شاهدت تجارة الاشياء الاكثر تطورا ونشاطا والاقدم رسوخا هي كذلك المناطق التي كان انتاج القيم الفكرية ، انتاج الافكار ، وانتاج الاثار الفكرية اسبق فيها واخصب واشد تنوعا .

والاحظ بالاضافة الى ذلك ان تلك المناطق قد كانت المناطق التي تمتعت باكبر قدر مما يسمى حرية الفكر، واضيف ان الامور ما كان يمكن ان تكون خلاف ذلك .

فحالما تصبح العلاقات بين البشر كثيرة ونشيطة يستحيل الابقاء على فوارق كبيرة جدا بينهم ، ولا اقصد فوارق الطوائف او الحالة الاجتماعية ، اذ لابد لمثل هذه الفوارق من الاستمرار ، بل فوارق الفهم والادراك .

فالحديث بين علية القوم وسفلتهم يكسب الفة وسهولة لا تتوفران في المناطق المفتقرة الى علاقات على تلك السنة وفي المعروف على سبيل المثال : انه كانت تقوم في الازمان القديمة ، بالخاصة في روما ، علاقات عائلية تماما بين العبد وسيده ، وذلك رغما عما يسمح به القانون من ممارسة القسوة، والانضباط والشراسة .

قلت : اذن ان حرية الفكر والفكر نفسه قد كانا على اكبر قدر من التطور في المناطق حيث كانت التجارة تتطور في الوقت نفسه في كل عصر ، دونما استثناء ، يتظاهر كل انتاج غزير بالمعنى والافكار الفكرية في نقاط مرموقة بما يلاحظ فيها من نشاط اقتصادي ، وتعلمون ان حوض البحر الابيض المتوسط قد قدم لنا ، من وجهة النظر هذه ، المثال الابرز والاوضح على ما نقول .

الحقيقة ان هذا الحوض يشكل نوعا ما مكانا محظوظا قد اختارته العناية الالهية كي تحدث على شواطئه وتقوم بين ضفافه تجارة نشيطة حتى اقصى النشاط .

انه يرسم ويتخثر في اكثر مناطق الكرة الارضية اعتدالا، كما يوفر تسهيلات مخصوصة من اجل الملاحة ، ويغمر شواطىء ثلاثة اقسام في العالم جدا ، وبالتالي فهو يجذب اليه قدرا عظيما من الاجناس الاشد تنوعا ، ويجعلها في احتكاك بعضها بعضا ، وفي تنافس وفي وئام او في نزاع ، ويحرضها هكذا على المبادلات من مختلف الانواع ، ان

هذا الحوض ، الذي يتمتع بميزة مرموقة ، وهي ان الانتقال من اية نقطة الى اخرى من محيطه ممكن برا باتباع شطئانه كما هو ممكن بحرا بكل سهولة ، قد كان مسرحا طوال قرون عديدة للاختلاط والقضاء بين عائلات مختلفة من النوع البشري كانت تغني بعضها بعضا باختياراتها المتنوعة .

كان هناك تحريض على المبادلة ، ومباراة حية ، مباراة في التجارة ، ومباراة في القوى ، ومباراة في النفوذ ، ومباراة في الديانات ، ومباراة في الدعايات ، ومباراة متوافقة في المنتجات المادية والقيم الفكرية ، ولم يكن ثمة تمييز بين ذلك كله .

كانت نفس السفينة ونفس الزورق يحملان البضائع والالة ، الافكار والطرق العملية .

كم من الاشياء تطورت على شطئان المتوسط ، بالعدوى او بالاشعاع ، هكذا تكون ذلك الكنز الذي تدين ثقافتنا له بكل شيء على وجه التقريب ، في مناشئها على الاقل ، وفي مستطاعي القول ان البحر الابيض المتوسط قد كان آلة حقيقية من اجل صنع الحضارة .

لكن هذه الامور جميعا كانت تخلق بالضرورة حرية للفكر ، وهي تخلق الاعمال في الوقت نفسه .
هكذا نجد على ضفاف المتوسط ان الفكر والثقافة والتجارة ترتبط باواصر وثيقة جدا .

واليكم مثالا آخر اقل ابتذالا من المثال السابق ، خذوا خط نهر الرين الخط المائي الذاهب من بال حتى البحر ، وانظروا الى الحياة التي تطورت على ضفتي هذه الطريق النهرية الكبرى ، منذ القرون الاولى من عصرنا حتى حرب الثلاثين عاما ، ان جملة كاملة في المدن المتشابهة قد قامت على طول النهر الذي يلعب دور الدليل : مثل المتوسط ، ودور الجابي في الوقت نفسه ، وسواء اخذنا بعين الاعتبار ستراسبورغ او كولونيا او المدن الاخرى حتى البحر ، فقد تشكلت هذه التجمعات في ظروف متماثلة ، وهي تقدم لنا تشابها مرموقا في روحها ومؤسساتها ووظائفها وفعاليتها المادية والذهنية على حد سواء .

تلك مدن ظهر الرخاء مبكرا فيها ، مدن تجار وصيارفة، ترتبط شبكتها المتزايدة الاتساع في اتجاه البحر بمدن فلا تدر الصناعية في الغرب وبمرافيء عصبة الهانس صوب الشمال الشرقي .

هناك كانت الثروة المادية والثروة الفكرية ، والحرية في صورة المجالس البلدية ، تتكون ، وتتوطد ، وتتقوى قرنا بعد قرن تلك اماكن قوية ماليا ، وهي مراكز ستراتيجية للفكر ، نجد فيها في نفس الوقت متاعة تتطلب الفنيين ، ومصرفا يتطلب محاسبين واخصائيين في الاعمال ، واشخاصا كرسوا انفسهم للمبادلة في عصر حيث وسائل المبادلة والنقل تكاد تكون غير مسلوكة ، بيد اننا نجد قوة كذلك حيوية فنية ، وفضولا علميا ، وانتاجا في التصوير والموسيقي والادب - وباختصار ابدعا وتداولا للقيم موازية تماما للنشاط الاقتصادي للمراكز نفسها .

هنالك اخترعت الطباعة ، ومن هنالك شعت على العالم ولكن صناعة الكتاب ما كان يمكن ان تتطور وان تبلغ كل مساحة العالم المتحضر الا على ضفاف النهر ، وبوصفها احد عناصر التجارة المتولدة عن هذا النهر .

ولقد قلنا لكم ان سائر هذه المدن تبدي تشابها مرموقا في روحها وفي عاداتها وفي تنظيمها الداخلي وهي تحصل او تنتزع نوعا من الاستقلال الذاتي .

ان الثروة والهاوي يلتقيان فيها ، وهي لا تفتقر الى الذواقة ، وان الفكر ليستطيع العيش فيها على صورة فنانين او كتاب او طباعين ، وانه ليجد فيها تربة خصبة جدا .

تلك تجربة ممتازة من اجل الثقافة ، التي تتطلب حرية وموارد .

وهكذا فان هذه المجموعة في المدن تخلق على طول النهر شريطا من الاراضي التي تزدهر في اتجاه البحر ، والتي تتعارض مع المناطق الداخلية في الشرق والغرب ، وهي مناطق زراعية تظل طويلا في النمط الاقطاعي .

من المفروغ منه ان عرضي هذا مقتضب جدا ، وانه لابد من اجل تدقيق النظرة التي رسمت خطوطها العريضة لتوي من مراجعة كتب عديدة وتصحيح بعض ما اوردت بخصوص العصر والاماكن ، لكن لعل ما قلته يكفي كي يبرر رأيي بخصوص التوازي بين التطور الذهني والتطور التجاري والمصرفي والصناعي في المناطق المتوسطة والرينانية .

ان ما يدعى العصر الوسيط قد تحول الى العالم الحديث بفعل المبادلات ، هذا الفعل الذي يرفع حرارة الفكر حتى الدرجة القصوى ، ولا يعني ذلك ان العصر الوسيط كان عصرا مظلما كما يقال ، بل ان له شهوده ، وهي من حجر ، بيد ان هذه الاعمال ، هذه الكاتدرائيات ، هذه الاثار الرائعة التي رفعها معماريون تظل بالنسبة الينا احاجي اذا ما عنينا بظروف تكون فكرتها وتنفيذها .

وفي الحقيقة اننا لا نملك اية وثيقة تفيدنا شيئا عن الثقافة الحقيقية لاولئك المعلمين الذين كانوا يملكون دون ريب معرفة متطورة جدا حتى يستطيعوا ان يبنوا اعمالا على

تلك الدرجة من الضخامة ومن الجرأة القصوى ، ثم لم يخلفوا لنا بحثا في الهندسة ، او الميكانيك ، او فن العمارة ، او مقاومة المواد ، كما لم يخلفوا لنا مسودات او رسوما او اي شيء يمكن ان يلقي بعض الضياء على ما كانوا يعرفونه .

لكننا نعرف شيئا واحدا على اية حال ، الا وهو ان اولئك المعماريين كانوا رحالة ، كانوا ينتقلون من مدينة الى اخرى ليرفعوا عماراتهم ويبدو انهم كانوا يتناقلون بصورة شخصية طرائقهم النظرية والتقنية عن البناء ، كان هؤلاء العمال ورؤساؤهم ينتظمون في جمعيات للرفاق ، تتناقل طرائقها في اقتطاع الحجر ، وفي تصميم الهيكل وفي صناعة الاقفال ، لكنه لم يصلنا اية وثيقة مخطوطة عن سائر هذه التقنيات .

وهكذا فان سائر هؤلاء الرحالة البنائين ، هؤلاء الحاملين للاساليب والوصفات الفنية ، قد كانوا ادوات مبادلة في نفس الوقت ـ لكنهم كانوا بدائيين ، شخصانيين ، غيورين على اية حال على اسرارهم واحابيلهم ، لقد كانوا يحفظون في الخفاء ما يسعى عصر في الثقافة الواسعة الى نشره قدر المستطاع ، وربما الى الافراط في نشره .



وكان في الاديرة شيء من الحياة الفكرية ايضا ، اذ نشأت في ظلها دراسة الازمان القديمة ، كما امكن التعمق في ادب القدماء ولغاتهم وحضارتهم والحفاظ عليها ورعايتها خلال بضعة قرون بائسة ..

ان حياة الفكر لفقيرة بصورة رهيبة في كل الغرب بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر ، وما كان يمكن مقارنتها في حال من الاحوال ، حتى في عصر الحروب الصليبية الاولى ، بما كان يشاهد في بيزنطة وفي الاسلام ، من بغداد حتى غرناطة ، في مجال الفنون والعلوم والاخلاق ، ومما لا ريب فيه ان صلاح الدين كان يتفوق على ريشارد قلب الاسد حتى درجة بعيدة سواء في اذواقه ام في ثقافته .

الا يجب ان ترتد هذه النظرة الى العصر الوسيط المتقدم الى زماننا ؟ فالثقافة ، وتحولات الثقافة ، وقيمة الاشياء الفكرية ، وتقدير منتجات الفكر ، والمكان الممنوح لاهميتها في تراتب الحاجات الانسانية ، هذه امور تعرف في نفس الوقت انها ذات صلة ، من جهة واحدة ، بالسهولة التي يتحقق بها تعدد المبادلات من مختلف الانواع ، كما انها عرضة للزوال بصورة غريبة من جهة اخرى ، ان كل ما يجري حاليا يجب ان ينتمي الى هاتين النقطتين ، فلننظر في باطننا وحوالينا ، ان ما تشاهده هو ما اختصرته لكم في مطلع حديثي .

لقد قلت لكم ان دعوة الافكار الى الاهتمام بامر الفكر ومصيره تشكل قرينة للزمن الحاضر ، او عرضا له ، اكانت هذه الفكرة تراودني لولا ان جملة من الانطباعات البعيدة المغزى والعظيمة القوة لم تنعكس في نفسي ولو لم يتحول هذا الانعكاس الى فعل ؟ وهل كنت احقق هذا الفعل الذي يستقيم في التعبير عن تلك الفكرة امامكم ، ولو لم تكن انطباعاتي هي انطباعات الكثيرين من الناس ، ولو لم يكن الاحساس بوجود انحطاط فكري ، وخطر على الثقافة ، وغروب للاشياء الالهية الاكثر نقاء وصفاء ، هو الاحساس الذي يفرض نفسه بقوة متزايدة على سائر اولئك الذين يمكنهم ان يحسوا شيئا في مجال القيم العليا التي تتحدث عنها .

الثقافة والحضارة ، هاتان كلمتان غامضتان جدا بحيث يمكننا ان نتسلى باقامة تمايز بينهما ، او معارضتهما ببعضهما بعضا ، او التوفيق بينهما ، ولن اتوانى عن ذلك ، فالقضية بالنسبة الي هي قضية راسمال يتشكل ، ويستخدم ، يبقى ، وينمو ويتدهور ، مثله مثل سائر الرأسمايل التي يمكن تصورها ـ واشهرها من دون ريب ما نسميه جسدنا ..

مم يتركب هذا الرأسمال ، الثقافة او الحضارة ؟ انه يتالف قبل كل شيء من اشياء ، من اغراض مادية ـ الكتب ، واللوحات ، والادوات الخ .. التي تملك ديمومتها المحتملة ، وهشاشتها ، وزوالها مثل كل الاشياء الاخرى ، بيد ان هذه المواد لا تكفي ، كذلك لا تشكل السبيكة الذهبية ، الفدان في الارض الجيدة ، والالة راسمايل في حال غياب البشر الذين يحتاجون والذين يعرفون كيف يستخدمونها . لاحظوا هذين الشرطين فكي تكون مواد الثقافة راسمالا تتطلب هي الاخرى ، وجود اناس يحتاجون اليها ويستطيعون الانتفاع منها ـ يعني بشرا متعطشين الى المعرفة والى قوة التحولات الباطنة ، متعطشين الى تنمية حساسيتهم ، وهم يعرفون من جهة اخرى كيف يكتسبون وكيف يمارسون ما ينبغي من عادات ، ومن انضباط ذهني ، ومن اتفاقات وممارسات كي يستخدموا ترسانة الوثائق والادوات التي كدستها القرون المتعاقبة .

واقول ان رأسمال ثقافتنا في خطر ، وهو في خطر من وجهات نظر عديدة ، وبطرق عديدة ، انه في خطر بصورة قاسية وحشية ، وانه في خطر بصورة مراوغة مخادعة انه عرضة للهجوم من اكثر من جانب واحد ، انه يبدد ويهمل ويذل من قبلنا جميعا ، وان تقدم هذا الانحلال لواضح للعيان كل الوضوح .

ولقد قدمت في هذا المكان بالضبط ، امثلة على ذلك في عدد من المناسبات ، لقد بينت لكم قدر طاقتي كيف تشكل الحياة الحديثة ، تحت مظاهر لامعة جدا ومغرية جدا في اغلب الاحيان ، داء خفيا ينهش الثقافة ، ما دامت تخضع

هذه الثروة التي يجب ان تتكدس مثل اية ثروة طبيعية ، هذا الرأسمال الذي يجب ان يتشكل بصفوف متراصة في الافكار ، للاضطرب العمومي في هذا العالم ، هذا الاضطراب الذي يعمل الافراط في جميع وسائل النقل على نشره وتطويره ، وعن هذه الدرجة من الفعالية تصبح المبادلات الفائقة السرعة حتى ، وتصبح الحياة اتهاما للحياة .

الهزات المتكررة ، والمبتكرات ، والاخبار ، وعدم الاستقرار السياسي الذي اصبح حاجة حقيقية ، والعصبية المعممة بواسطة سائر الوسائل التي ابتدعها الفكر نفسه ، انه ليمكن القول ان هذا الشكل اللاهب والسطحي من وجوه العالم المتحضر هو انتحار محض .

كيف نتصور مستقبل الثقافة حين يسمح لنا عصرنا الراهن ان نقارن بين ما كانت هذه الثقافة عليه فيما مضى وما آلت اليه ، واليكم حقيقة بسيطة اعرضها على تأملاتكم مثلما فرضت ذاتها على تأملاتي .

لقد شاهدت اناسا ثمينين جدا من اجل التشكل النظامي لرأسمالنا الامثل ، بقدر المبدعين انفسهم ، يتلاشون عن المسرح بصورة تدريجية ، لقد شاهدتهم يختفون الواحد اثر الاخر ، هؤلاء الذواقين ، هؤلاء الهواة الذين لا نظير لهم والذين اذا لم يكونوا يبدعون الاثار نفسها ، فقد كانوا يبدعون قيمتها الحقيقية ، لقد كانوا قضاة متحمسين ، لكن نزيهين ، وكان العمل معهم او ضدهم يشكل لذة عظيمة ، ولقد كانوا يعرفون ان يقرأوا ، وهي فضيلة نفذت اليوم ، وكانوا يعرفون ان يسمعوا ، بل ان يصغوا ، وكانوا يعرفون ان ينظروا وهذا يعني ان ما كانوا يهتمون بالعودة اليه كي يقراوه او يسمعوه كان يصبح بفضل هذه العودة ، قيمة متينة ، وكان الراسمال العمومي ينمو به .

لا اقول انهم ماتوا جميعا وانه لن يولد سواهم بعد الآن ، لكنني اتحقق بكل اسف من تناقصهم الشديد لقد كان عملهم هو الا يخرجوا عن حقيقتهم وان يستمتعوا بكل استقلال ، بحكمهم الذي ما كان يتأثر باية دعاية او اية مقالة .

كانت الحياة الفكرية والفنية الاكثر تجردا والاعظم حمية هي السبب في وجودهم .

ولم تكن مسرحية تمثل ، او معرض يقام ، او كتاب يصدر ، الا ومنحوه انتباها دقيقا جدا ، كانوا ينعتون بالذواقين بشيء من السخرية ، بيد ان نوعهم قد اصبح نادرا جدا ، بحيث لم يعد الاسم نفسه يعتبر ذما او طعنا ، تلك خسارة فاحشة ، اذ ليس اثمن عند المبدع من اولئك الذين يستطيعون ان يقدروا عمله ، وبالخاصة ان يمنحوا العناية الموقوفة على العمل ، او القيمة العملية للعمل ، ذلك التقدير الذي كنت اتحدث عنه قبل قليلا ، ذلك التقييم الذي يحدد ، بصورة خارجة عن الزي السائد وعن اثر اليوم الراهن ، سلطة الاثر وسلطة اسم صاحبه .

اما اليوم ، فان الامور تجري بسرعة فائقة ، والشهرات تخلق سراعا وتتلاشى سراعا ، ولا يحدث شيء ثابت ، اذ لا يعمل شيء من اجل الثبات .

وكيف تريدون الا يشعر الفنان تحت مظاهر نشر الفن وتعميم تدريسه بكل تفاهة العصر وما يجري فيه من اختلاط القيم واضطرابها ؟

اذا كان هذا الفنان يقف على عمله كل الوقت والعناية اللذين يستطيع ان يقفهما عليه ، فهو يفعل ذلك يراوده الشعور بان شيئا ما في هذا العمل سيفرض نفسه على فكر القارىء ، انه ليرجو ان يرد عليه القراء ببعض الانتباه وبعض التقدير ، قليلا من العناء الذي يبذله في كتابة صفحاته .

ولنعترف باننا نكافئه بصورة رديئة .. وليس ذلك من جريرتنا ، اذ نحن مرهقون بالكتب ، واننا لنئن بالخاصة تحت اعباء المطالعات ذات الاهمية الفورية والعنيفة ، ان الصحف لتشمل تنوعا عظيما ، واضطرابا عظيما ، وشدة عظمى في الانباء (وبالخاصة في بعض الايام) ، بحيث تصرف عليها كل الوقت الذي كان في وسعنا ان نخصصه للمطالعة خلال اربع وعشرين ساعة ، وتؤوب فوق ذلك بافكار مضطربة او حائرة او مهتاجة .

ان الانسان الذي يعمل ، الانسان الذي يكسب معيشته يستطيع ان يكرس للقراءة ساعة واحدة يوميا ، في بيته او في القطار او في سيارة النقل ، يبدد هذه الساعة في قضايا الاجرام ، او في السخافات المتفككة ، او في الثرثرات والوقائع التافهة الاخرى التي يبدو ان تنوعها وغزارتها قد صنعا بالضبط من اجل ترويع الاذهان وطمسها بكل فظاظة .

ولا يعود ثمة فائدة لانساننا هذا بالنسبة الى الكتاب .. لقد فقده الكتاب نهائيا ، وهذا ما لا نستطيع ضده شيئا .

ويؤدي ذلك كله الى نقص فعلي في الثقافة ، وبنتيجة ذلك الى نقص فعلي في حرية الفكر الحقيقية ، اذ ان هذه الحرية تتطلب على النقيض من ذلك اخلاصا ، وتجردا ، ورفضا لسائر تلك الاحاسيس المضطربة العنيفة التي نتلقاها في كل لحظة ، في الحياة العصرية .

لقد تحدثت انفا عن الحرية .. ان هناك الحرية بكل اقتضاب ، كما ان هناك حرية الافكار .

هذا كله يخرج من اطار موضوعي قليلا ، لكنه لابد لي من التوقف عنده بعض الوقت ، ان الحرية ، هذه الكلمة العريضة الواسعة ، هذه الكلمة التي استخدمتها السياسة على

نطاق كبير ـ لكنها تحرمها هنا وهناك منذ عدة سنوات ، هذه الحرية كانت مثلا اعلى ، وامطورة ، كانت كلمة ملأى بالوعود بالنسبة الى بعض الناس زاخرة بالوعيد بالنسبة الى غيرهم ، كانت كلمة انهضت البشر وحركت بلاط الشوارع ، لقد كانت هذه الكلمة كلمة التجمع بالنسبة الى اولئك الذين كان يبدو انهم الاضعف والذين كانوا يحسون انهم الاقوى ضد اولئك الذين كان يبدو انهم الاقوى والذين كانوا يحسون انهم الاضعف .

هذه الحرية السياسية لا تنفصل الا بكل صعوبة عن مفاهيم المساواة ومفاهيم السيادة ، لكنها لا تتفق الا بكل صعوبة مع كثرة النظام ، واحيانا مع فكرة العداله .

لكن ليس ذلك هو موضوعي .

اعود الى الفكر اذن ، اذ نتفحص عن كثب سائر هذه الحريات السياسية ، فاننا ننتهي سراعا الى اعتبار حرية الفكر .

وتختلط حرية التفكير في الاذهان مع حرية النشر التي لا تشكل الشيء نفسه .

لم يمنع شخص قط في التفكير على هواه ، ذلك امر عسير ، اللهم الا اذا توفرت اجهزة تكشف الافكار في الدماغ ، ومن المؤكد اننا سنتوصل الى صنع هذه الاجهزة ، لكن تلك مرحلة لم نبلغها تماما بعد ، كما اننا لا نتمنى مثل هذا الاكتشاف .. وفي انتظار ذلك ، فان حرية التفكير موجودة اذن ـ وبذلك بقدر ما لا يضيق عليها الخناق التفكير نفسه .

وانه لرائع ان تكون لنا حرية التفكير ، لكنه ينبغي ايضا ان يكون هناك ما نفكر فيه ..

لكنا حين نقول ، في الاستعمال الشائع ، حرية التفكير ، فاننا نقصد حرية النشر ، او حرية التعليم .

وتثير تلك الحرية قضايا خطيرة ، تثير صعوبة ما بصورة دائمة ، فاذا الامة تارة ، والدولة تارة ، والكنيسة تارة والمدرسة تارة ، تجد ما تعترض به على حرية التفكير بالنشر ، وحرية التفكير علانية او من طريق التعليم .

تلك جميعا سلطات غيورة بصورة تزيد او تنقص من التظاهرات الخارجية للفرد الذي يفكر .

ولا اريد ان اعني هاهنا بجذور المشكلة ، تلك قضية حالات خاصة ، ومن المؤكد انه من المستحسن في مثل هذه الحالات ان تراقب حرية النشر او تحد .

لكن المشكلة تصبح عويصة جدا حين يكون المقصود التدابير العامة ، ومثال ذلك انه من الواضح استحالة السماح بنشر كل شيء في حالة الحرب ، ليس من المحال السماح بنشر الانباء عن سير العمليات فحسب ، بل ان هناك اشياء اخرى لا يسمح النظام العام بنشرها .

ولا تنتهي الامور عند هذا الحد ، ان حرية النشر التي تؤلف جزءا اساسيا من حرية تعاطي الفكر لتخضع في الوقت الراهن ، في بعض الحالات وبعض المناطق بقيود صارمة ، بل هي ملغاة فعلا .

انتم تشعرون بمبلغ اهمية هذه المشكلة ، وكيف انها تعرض في كل مكان على وجه التقريب ، اعني في كل مكان لا يزال في المستطاع شرح قضية ما فيه على بساط البحث ، وانا شخصيا من الميالين الى نشر افكاري ، ان في وسع المرء الا ينشر ، ومن ذا يجبركم على النشر .. اي شيطان ؟ ولم النشر على اية حال ؟ ان في مقدور المرء ان يحافظ تماما على افكاره ، ولم اظهار هذه الافكار ؟ ان جمالها لا ينتقص في قاع جدار او ضمن الراس .

ومهما يكن من امر ، فان ثمة اناسا يحبون ان ينشروا ، يحبون اقناع الاخرين بارائهم ، وهم لا يفكرون الا كي يكتبوا ، ولا يكتبوا الا كي ينشروا ، ان هؤلاء ليغامرون اذن في المجال السياسي ، وها هنا ترتسم حدود النزاع .

ان السياسة ، المضطرة الى تزوير سائر القيم التي من واجب الفكر مراقبتها ، ترضى بمختلف التزويرات ، او بسائر الكتمانات التي تناسبها ، التي تتفق معها ، ترفض بكل عنف ، او تمنع ، كل ما لا يتفق مع اغراضها .

وباختصار ، ما هي السياسة ؟ ان السياسة تقوم في ارادة انتزاع السلطة والاحتفاظ بها . وبالتالي فهي تتطلب فعل الزام او ايهام على الافكار ، وهي مادة كل سلطان

ان اية سلطة تفكر بالضرورة في منع نشر الاشياء التي لا تلائم ممارستها ، وهي تبذل قصاراها في سبيل ذلك ، وينتهي الفكر السياسي تماما الى ان يجد نفسه مجبرا على التزوير . انه يدخل الى التداول ، الى التجارة ، نقدا فكريا مزورا ، ويدخل مفاهيم تاريخية مزورة ، ويبني محاكمات مموهة ، وباختصار فانه يعطي نفسه الحق في عمل كل ما يتطلبه الاحتفاظ بسلطته ، وهو ما لا ادري لماذا يسمونه الاخلاق .

يجب ان نعترف ان السياسة وحرية الفكر يتنافيان في سائر الحالات الممكنة ، فحرية الفكر هي العدوة الرئيسية للاحزاب ، كما هي من جهة اخرى عدوة كل عقيدة تسيطر على السلطة .

ولذا فاني اريد ان اشدد على الفوارق الصغيرة التي يمكن ان تتحلى بها هذه العبارات لغويا .

(فالحرية فكرة تدخل في تعابير متناقضة ، ما دمنا نستخدمها احيانا كي نقول انه في وسعنا ان نفعل ما نريد ، واحيانا اخرى كي نقول انه في وسعنا ان نفعل ما لا نريد ، وهو ما يرى البعض انه اقصى الحرية .)

وهذا يعني ان فينا كائنات عديدة ، لكن هؤلاء الناس العديدين الذين فينا لا يملكون سوى نفس اللغة الواحدة ويحدث ان نفس الكلمة (الحرية مثلا) تستخدم لاغراض تعبيرية مختلفة جدا ، انها كلمة تبيح كل شيء .

فتارة يحس المرء انه حر لان شيئا لا يعارض ما ينويه وما يغريه ، وتارة يحس انه حر بصورة متفوقة لانه يحس نفسه يتخلص من اغراض او من تجربة بحيث يتصرف ضد ميوله الخاصة وان ذلك لحد اقصى من الحرية .

لننظر قليلا اذن الى هذه الفكرة المراوغة جدا في استعمالاتها العفوية ، اني اتبين على الفور ان فكرة الحرية ليست اولية عندنا ، فهي لا تثار الا اذا استثيرت ، اقصد من ذلك انها جواب دائما .

اننا لا نفكر قط باننا احرار حين لا يبين لنا شيء باننا لسنا احرارا او اننا قد لا نكون احرارا ، ان فكرة الحرية جواب على احساس ما بالضيق ، او على افتراض بوجود هذا الضيق ، او الاعتراض ، او المقاومة التي تعترض سبيل حافز في كينونتنا ، او رغبة في حواسنا ، او حاجة ، او ممارسة ارادتنا الحازمة ايضا .

انا لست حرا الا حين احسني حرا ، لكنني لا احسني حرا الا حين اعتقد اني ملزم ، حين اروح اتصور حالة تتعارض مع حالتي الراهنة .

وهكذا ليست الحرية محسوسة ، او مدركة ، او مرجوة ، الا بفعل تضاد ما .

واذا وجد جسدي عوائق في سبيل حركاته الطبيعية وارتكاساته ، واذا تعرقل فكري في عملياته بفعل الم حكمي ، او فكرة ثابتة ، او سبب من العالم الخارجي ، كالضوضاء ، او الحرارة الزائدة ، او البرد ، او الضجيج او الموسيقى القادمين من عند الجيران ، فاني اتاق الى تبديل حالتي ، الى الانعتاق الى الحرية ، اني اميل الى استرداد استعمال امكانياتي في ملء كمالها ، واميل الى انكار الحالة التي تنكر علي ذلك .

هكذا ترون ان ثمة افكارا في هذه العبارة التي هي الحرية ، وذلك حين نفتش عن دورها الاصلي ، في بدء الامور .

واليكم النتيجة التي استخرجها من ذلك ، ما دامت الحاجة الى الحرية وفكرتها لا تحدثان عند اولئك الذين لا يتعرضون للمضايقات والالزامات ، فبان حدت عبارة الحرية وارتكاسها سيقلان بقدر نقص الاحساس بتلك المضايقات .

فالكائن القليل الحساسية تلقاء المضايقات المبيتة لحرية الفكر ، وتلقاء الالزامات المفروضة عليها من قبل السلطات العامة مثلا ، او الظروف الخارجية من اية طبيعية كانت ، لن يرتكس الا قليلا حيال هذه الالزامات ، لن تعتريه اية انتفاضة تمرد ، اي رد فعل ، ثورة على السلطة التي تفرض عليه ذلك الضيق ، بل ان الامر على النقيض من ذلك ، اذ سترفع عن كاهله في كثير من الحالات مسؤولية غامضة ، فخلاصه هو ، وحريته سيقومان في التخلص من اعباء التفكير والحزم والارادة .

وانكم لتدركون العواقب الضخمة لذلك : فاولئك الذي ضعفت حساسيتهم حيال امور الفكر كثيرا بحيث ما عادوا يشعرون بالقيود المفروضة على انتاج آثار الفكر لن تصدر عنهم اية ردود فعل مطلقا ، او على الاقل اية ردود فعل خارجية .

وانتم تعرفون ان هذه النتيجة تتحقق قريبا جدا منا : انكم تشاهدون عند الافق النتائج المنظورة تماما لذلك الضغط على الفكر ، وتشاهدون في الوقت نفسه كيف انه سوى رد فعل بسيط جدا ، تلك حقيقة لا مراء فيها .

تلك حقيقة واضحة تماما ، لكنني لا اريد ان اقضي في الامر ، اذ ليس من شأني ان اقضي ، ومن ذا يستطيع ان يدين البشر ؟

واذا انا تحدثت عن ذلك ، فلانني لا اعرف موضوعا اكثر اهلية لاهتمامنا ، اذ اننا لا نعرف ما يخبئه المستقبل لنا ، نحن البشر الذين ادعوهم رجال الفكر اذا شئتم ...

لذا اعتقد انه من الضروري ومن المطلق في وقت واحد ان نضطر اليوم ان نذكر ليس بما يدعى حقوق الفكر ، اذ ان تلك مجرد كلمات فارغة فليس ثمة حقوق اذا لم تتوفر القوة بل ان نذكر بالمنفعة التي تعود على سائر الناس من الحفاظ على القيم الفكرية ودعمها .

لماذا ؟ ...

ذلك ان خلق الحياة الفكرية ووجودها المنظم يرتبطان بصلات معقدة جدا ، لكنها صلات اكيدة تماما ووثيقة جدا ، مع الحياة ـ بكل اقتضاب ـ الحياة الانسانية ، لم يفسر انسان قط الام نهدف ، نحن البشر ، والام يهدف ذلك الشيء العجيب الذي هو فكرنا ، ان هذا الفكر ليشكل فينا قوة دفعتنا الى مغامرة عجيبة ، فابتعد نوعا عن سائر الشروط البدئية ، الطبيعية للحياة ، لقد ابتدعنا عالما من اجل فكرنا ـ ونحن نريد ان نعيش في عالم فكرنا هذا ، ان الفكر يريد ان يعيش فيما صنعت يداه .

ان المقصود هو ان تعيد ما صنعت الحياة او تصححه ، وبالتالي ان تنتهي الى اعادة صنع الانسان نفسه حتى درجة ما

ان يعيد الانسان صنع كل شيء في حدود امكانياته التي هي بالغة العظم منذ الان ، ان يعيد صنع المسكن ، وان يجهز ذلك القسم الذي يقطنه في الكرة الارضية ، بان يجتاز هذه الكرة الارضية في كل حدب وصوب ، ان يذهب نحو الاعلى ، ونحو الاسفل ، وان يستثمرها ، ويستخرج كل ما تحتوي عليه من اي منفعة لغاياته : هذا كله حسن جدا ، ولا نرى ما عسى كان الانسان يفعل لو لم يكن يفعل ذلك .. اللهم الا التقهقر الى حالة حيوانية تماما .

ولا ننس ان نقول هنا ان الفعالية الفكرية المحضة ترتبط بنا على الكرة الارضية من ترتيبات مادية ، ذلك ترتيب خاص بالفكر خلق بواسطة المعرفة النظرية والقيم الفنية ، وانتج قدرا كبيرا من الاثار ، او رأسمالا من الثروة غير المادية اذا جاز التعبير ، لكن كنوزنا ليس غير قابلة للفناء ، سواء اكانت مادية ام روحية ، ولقد كتبت قبل زمن طويل عام 1919 ان الحضارات فانية مثل اي كائن حي ، وانه ليس من المستغرب ان نفكر في امكانية فناء حضارتنا بوسائلها التقنية وآثارها الفنية وفلسفتها واحيائها ، كما تلاشت حضارات عديدة منذ القديم ـ مثلما يتلاشى مركب كبير يبتلعه اليم .

فمهما كان المركب عظيما ، ومهما تسلح باحدث الوسائل كي يتوجه في البحر ، ويدافع عن نفسه ضد هذا البحر ، ومهما تباهى بالالات الجديدة التي تسيره ، فانها تسيره نحو الضياع مثلما تسيره نحو المياه وانه ليغرق مع كل ما يحمل على سطحه من بشر وخيرات .

هذا كله اقلقني في ذلك الحين ، واليوم لا اشعر انني اكثر اطمئنانا ولذا لا اعتقد انه من العبث ان اذكر بقابلية سائر هذه الخيرات للزوال ، اكانت هذه الخيرات الثقافة نفسها ام كانت حرية التعبير .

ذلك انه حيث ينعدم الفكر تبذل الثقافة ..

وانا للاحظ المضايقات والتهديدات تطوق الفكر من كل حدب وصوب ، فاذا حريات هذا الفكر تكافح واذا الثقافة يضيق الخناق عليها ، سواء بما ننجزه من اختراعات ، ام بطرائق حياتنا ، ام بالسياسة العامة او بسياسات خاصة متنوعة ، بحيث ربما لا يكون من قبيل العبث او المبالغة ان نطلق اشارة الخطر وننبه الاقطار التي تحيق بما اعتبرناه ، نحن الذين بلغنا هذه السن ، الخير الاسمى في هذا العالم .

ولقد سبق لي ان قلت هذه الامور في امكنة اخرى ، ولاحظت ان المستمعين يصغون الي بكل انتباه ، وان كلماتي تعبر عن عواطف وافكار يشاركني الجمهور فيها .

لعل الظروف التي نجتازها صعبة جدا ، الظروف الاقتصادية والسياسية والمادية ، واوضاع الامم ومصالحها واعصابها ، والجو العاصف الذي يجعلنا نتنفس القلق .

لكني آمل ، رغما عن ذلك ، ان يتمكن البشر حتى في هذا الجو العاصف من العمل على الحفاظ على تقاليد الثقافة ومآثرها ، هذه الثقافة التي جعلتهم وتجعلهم ما هم عليه .

واني لافعل واجبي ، حين اقرع ناقوس الخطر .

دمشق : فؤاد ايوب



الفكر الفلسفي والفكر الوجودي

أفلاطون : للدكتور نجيب بلدي

- 3 -

قال الاقدمون ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض ، والاصح ان نقول انه انزل الفكر والوجود من مستوى الحكمة الى مستوى الفلسفة .

ولكننا لن نتحدث عن سقراط ، لانه لم يكتب شيئا ، بل جاء افلاطون وسجل لمعلمه صورة رائعة ، واعطاه الكلمة الاولى والاخيرة فى عدد من محاوراته ، واستلهم تلك الشخصية العجيبة ، واحاديث شيخه الجليل وجداله فى شوارع اثينا ومنازلها ، صور شخصية الفيلسوف ، ثم صور المعاني الفلسفية ذاتها ، وشرحها وقلبها رأسا على عقب ، ناقدا نفسه ومعلمه ايضا ، منهجه ومنهج معلمه ، معبرا فى صدق واخلاص كاملين عن طبيعة الدعوة الفلسفية .

غير ان افلاطون لم يقف عند الكلام عن سقراط ، بل تكلم ايضا عن المفكرين الاوائل الذين ذكرهم سقراط واخذ العلم عنهم ثم انتقدهم ، وتطرق رويدا رويدا من سقراط ، ومن هؤلاء المفكرين ، وانتقاد سقراط لهم الى كلام تلاميذهم عنهم ، وانتقاد هؤلاء التلاميذ لمعلميهم ، جامعا بين ما تعلمه من سقراط وما تعلمه من هؤلاء المفكرين الاوائل وتلاميذهم ، بين اقوال هؤلاء واولئك فى صورة هي محاوراته وفلسفته ، او بعبارة ادق هي الميراث الاول والاخير لتلك الثروة العجيبة والمتنوعة التي جاءته من الاولين ومن يدي معلمه سقراط .

وليست الحكمة Sophia فى معناها التاريخي الا تفكير هؤلاء الاوائل ، وكان موضوع هذا التفكير ، كما ذكرنا (*) « الطبيعة » بمعنى أصيل قديم ، أو كان « الوجود » كما نقول اليوم ، وجاء هذا التفكير القديم الى افلاطون عن طريق سقراط ، وعن طرق كتابات الاولين وانتقاد تلاميذهم لهم ، وتحول عند افلاطون من حكمة الى فلسفة ، ولما كانت تعاليم سقراط غير معروفة لنا بصفة واضحة الا فى التسجيل الفلسفي الذي عمله افلاطون لها فى محاوراته الاولى ، فلا مانع من اعتبار الاخير المنزل الاول للفكر والوجود من الحكمة الى الفلسفة ، او على الاقل المسجل الاول لهذا الانزال ، الرجل الذي نستطيع ان نفهم عنده معنى الفلسفة التي لم تتغير معالمها حتى اليوم .

والامر العجيب ان افلاطون كلما تقدم به السن كان يتراجع الى الوراء ، الى هذا الفكر القديم ، الى حكمة الاوائل ، وان سقراط نفسه ، الذي كانت له الكلمة الاولى والاخيرة فى محاورات وسنوات النضج الفكري كان يتراجع هو ايضا الى الوراء فى محاورات كهولة افلاطون ، يتراجع الى مرتبة التلميذ والمستمع . يصوره افلاطون وكأنه يتلقى العلم من جديد ، من هؤلاء الحكماء الاوائل ، ثم يصور هؤلاء الحكماء وكأنهم قد تراجعوا هم انفسهم عن حكمتهم الاولى الساذجة ، وكأنهم قد ارادوا تمحيصها واختبارها بفضل محك جديد هو الفلسفة ، ثم يختفي سقراط من المحاورات، ويختفي الحكماء ايضا ، ليحل محله ومحلهم اشخاص جدد هم تلاميذ الحكماء ، ولكنهم تلاميذ تعلموا الفلسفة واخذوا يطبقونها فى فهمهم للحكمة القديمة وموضوعاتها، وفى مناقشاتهم لتلك الحكمة القديمة بوجه خاص .

هذا هو افلاطون ، وهذه هي الفلسفة فى صورتها الاولى الكاملة ، وهذا هو الفكر الفلسفي الذي نريد اليوم وصفه ، يمتاز بمظاهر النقد والمناقشة التي تجتمع بذكريات الحكمة القديمة والهاماتها .

خصص فيلسوفنا لهذا البحث فى حكمة الاوائل، محاورات ثلاث ، هي من اهم محاوراته واروعها اسلوبا:

(*) راجع دعوة الحق ــ العدد الثامن ــ السنة السابعة

«بارمنيد» و «تيتيت» Theetête و«السوفسطائي» (*) Sophiste هذه المحاورة الثالثة والاخيرة هي اهم الثلاث واقربها الى موضوع بحثنا فى الفكر والوجود ، وفى علاقة الفكر الوجودي بالفكر الفلسفي . اما الشخصية الرئيسية فى هذه المحاورة ، فهي شخصية « غريب » Etranger جاء من ايله Elée بايطاليا الجنوبية فى رحلة فكرية الى اثينا ، التقى بسقراط اثناء هذه الرحلة ، ومعه مرافقان له وصديقان لسقراط ، هما تيودور وتيتيت ، العالمان الرياضيان — ان وجب التسليم بان هذا اللقاء من صنع الخيال الافلاطوني ، فقد تكون فيه اشارة الى زيارات فعلية قام بها بعض العلماء والمفكرين لمدرسة أفلاطون ، او اشارة الى مناقشات فى وسط تلك المدرسة بين علماء ومفكرين ينتمون الى مدارس مختلفة فى العلم والحكمة ، تلك المدارس التي انتشرت منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد بآسيا الصغرى ، وايطاليا الجنوبية وصقلية ، والتي كان يتزعمها فى وقت من الاوقات فيثاغورس، او بارمنيد ، أو غيرهما — ولكن قد تكون شخصية « الغريب » كذلك رمزا لاطلاع افلاطون العميق الواسع على كتب الاقدمين فى الحكمة ، ولمحاولة مناقشة ارائه الشخصية فى ضوء اراء الاقدمين .

مهما يكن الامر ، فسقراط يرحب بالغريب فى بداية هذا اللقاء الخيالي ويسأل فى شأنه صديقه تيودور:

« — ومن يكون هذا الغريب ؟ ايكون واحدا من هؤلاء الالهة الذين صورهم هوميروس ، فى صورة بشرية ، رفقاء للبشر ؟ ايكون مثلا اله الغرباء ، جاء لمشاهدة الناس واعمالهم من عدالة وظلم ؟ ام يكون واحدا من المجادلين العباقرة ، الذين حازوا فى ميدان الجدال براعة الهية ، جاءوا للتفرج علينا والاستهزاء بنا، وبحججنا الفلسفية الواهية ؟ .

— لا هذا ولا ذاك ، يا سقراط ! انه ليس من هؤلاء البارعين فى الجدال ، وليس الها ، لكنه فيلسوف مثلنا ، اي مخلوق « الهي » ، له فضيلة الالهة ، فى اهدافه على الاقل ، وفى الموضوعات التي يتطلع اليها » .

فى هذه المقدمة القصيرة للحوار ، وفى هذه الصورة الرمزية ، يشير افلاطون الى التحول الخطير الذي تم فى تاريخ الفكر الانساني من مرحلة الحكمة الى مرحلة الفلسفة عن طريق مرحلة وسطى هي مرحلة الجدال والفلسفة ، بدا الانسان يفكر ، وكأنه بجوار الالهة يصغى الى تعاليمهم ، او كما كان الها اتخذ صورة بشرية ثم ما لبث ان نزل من تلك المرتبة العليا الى مرتبة اصبح فيها عاجزا عن الحكمة ، ولكنه اكتسب فيها براعة ومهارة فى الكلام بوجه عام ، وفى الجدال والمعارضة والمناقضة بوجه خاص ، وذلك لا فى موضوعات الحكمة الاولى وحدها ، بل فى سائر الموضوعات التي تتعلق بها حياة الانسان فى المدينة والمجتمع ، من شؤون سياسية او قضائية او اقتصادية يمثل هذه المرتبة جماعة من الناس يعلمون الشبان تلك البراعة الكلامية التي لابد منها فى الحياة العامة ، هؤلاء هم « السوفسطائيون » ، ثم يتحول الفكر فى مرحلة اخيرة ، وذلك فى وقت سقراط وافلاطون بالذات ، تحولا يمثله « الغريب » الذي ينزل من «ايله» المدينة الايطالية ، مدينة الحكمة القديمة ، ينزل من تلك القمم التي وقف عندها الحكماء الاوائل ، الى اثينا مدينة السفسطة والجدال ، هذا الرجل انسان ليس الا ، يتطلع مع ذلك الى الحكمة الاولى التي نزل منها ، يحاول تفهمها كما تمثل فى ذكرياته ويحاول اعطاء صورة انسانية لها .

مراتب ثلاث ، مراحل ثلاث ، او شخصيات ثلاث، اتخذها الفكر الانساني طورا بعد طور : الحكيم Sophos المجادل البارع او السوفسطائي Sophiste ثم الفيلسوف Philosophos

يريد افلاطون التعرف على هذه الشخصيات الثلاث ، وتبين هذه المراتب الفكرية ، ولكنه يعترف بالعجز عن تبينها كلها دفعة واحدة ، فيكتفي بواحدة منها هي الثانية ،مرتبة السوفسطائيين ، والامر العجيب ان التقدم فى الحوار وفى الفحص عن هذه المرتبة الثانية ذاتها ، يؤدي بالمتحاورين الى الشعور بتعذر تعيين معالمها ، دون محاولة القاء النور عليها من جانب المرتبتين الاخيرتين ، من جانب « الحكيم » اولا ، الذي انحدر عنه « السوفسطائي) فى انحراف ، ومن جانب « الفيلسوف » ثانيا ، اي من تلك المرتبة التي يتجه اليها الفكر ، بعد هذا الانحدار والانحراف .

(*) فى تعريف « المعجم الوسيط » للمجمع اللغوي بالقاهرة : « السوفسطائيون : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات . الواحد سوفسطائي — ان كان فى هذا التعريف ، كما سنرى ، مجانبة للواقع التاريخي فهو يدل على امكان استخدام هذه الكلمة اليونانية الاصل .

ولا يمكننا في هذا المقال الدخول في تفاصيل الحوار الافلاطوني الدقيق ، والعويص في بعض الاحيان، لنلتقط من الاضواء الثلاثة : ضوء الحكمة ، ضوء الفلسفة، وضوء « السفسطة » ، كما يصفها الرجل « الغريب » بعد ما سمعه عنها ، اصغى فيما مضى الى الحكمة ، واتخذ نهائيا الفلسفة منهجا للتفكير ، ويعمد في الوقت الحاضر الى وصف « السوفسطائي » ، اي شخصية رجل انحرف عن الحكمة ، ولم يصبح بعد فيلسوفا .

من هو السوفسطائي ، وكيف يمكن التعرف عليه؟ المراد الوصول الى تعريف السوفسطائي ، او تعريف من « السوفسطائي » ، بعبارة ادق ، واذا كان مثل هذا الموضوع صعب المنال في البداية ، فلا بأس من محاولة تعريف موضوع ايسر منه ، واقرب الى الف الناس وعاداتهم ، ولكن فن « الصياد بالشبكة » : ما دام كثير من اليونان صيادين بالحرفة ، واحتمل ان يكون « السوفسطائي » بين هؤلاء الصيادين . لاجل الوصول الى تعريف فن « الصياد بالشبكة » يجب الانتقال من الاوسع الى الاضيق ، من ميدان واسع الى ميدان اقل اتساعا ، من جنس الى نوعين له ، على ان نتخذ جنسا هذا النوع الذي يبدو اقرب الى موضوعنا ، وعلى ان نستمر في التقسيم ما يلزم من المرات لنبلغ مرادنا .

ان نظرنا الى الفنون بوجه عام ، تبينا اثنين منها يبدو ان اوسعها ، فن الصناعة من ناحية ، وفن الاقتناء من ناحية اخرى ، ولما كان هذا الاخير اقرب الفنين الى فن الصياد المذكور قسمناه الى اقتناء بالتبادل واقتناء بالاستيلاء ، والاخير الى استيلاء بالنضال واستيلاء بالصيد ، والصيد الى صيد الاجسام الجامدة وصيد الاجسام الحية ، والاخير الى صيد المشائين ، وصيد العوامين ، والاخير الى صيد العوامين الطائرين وصيد العوامين الباقين في الماء ، والاخير الى صيد العوامين بتضييق النطاق وصيد العوامين بالضرب وهكذا

هل تفيدنا هذه المحاولة في تعريف السوفسطائي؟ ربما وجب ادخاله في فن الصيادين ، وعندئذ نترك صيد العوامين الى صيد المشائين ، ونستمر في التقسيم حتى نصل الى صيد الناس لا في الاماكن العامة ، بل في الاماكن الخاصة والمنازل ، لا اغراء بالهبة بل بقبض المال ، ويكون السوفسطائي هذا الصياد ويستمر « الغريب » في هذه المحاولات الى اغرب منها واغرب ، حتى يصل الى ادخال « السوفسطائي » بين الذين يقبضون على فريستهم بالحجة والاقناع ، وبالاقناع عن طريق المناقضة ، وبالمناقضة لغاية اظهار الموضوعات

للشبان والكشف عنها ، ولكن هذا الكشف لا يتم الا بالعلم ، وبعلم كلي كامل بعلم لجميع الموضوعات ، وهل مثل هذا العلم ممكن لاحد من الناس ؟ انه عسير المنال للمجتهدين المثابرين ، فكيف يكون للذين يريدون العلم لاجل المال وحده ؟ وهل السوفسطائيون يريدون العلم حقا وعلم الموضوعات الحقيقية؟ كلا. انهم يكتفون بشبه العلم وباشباه الموضوعات . لنقسم اذن فن المناقضة الى مناقضة للعلم ومناقضة للعلم لشبه العلم ، الى مناقضة لغاية الكشف عن الموضوعات ومناقضة لاظهارصور الموضوعات ، ولنقسم هذا الفن الاخير الى فن اظهار الصور التي هي نسخ الموضوعات ، وفن اظهار الصور التي تتشبه بالموضوعات وتكذب في التشبيه ، اي في نهاية الامر الى فن اظهار الاوهام والاباطيل .

عند هذه المرحلة من الحوار ، يتوقف الغريب ثم يقرر ان السوفسطائي لن يقبل النتيجة الاخيرة ، وانه سيحتج عليها بشدة وسيدعي انها لا تقوم على اساس ما دام الوهم والباطل والخطأ مما لا يمكن اثباته ، او ما دام الخطأ هو اثبات ما لم يكن على انه كائن ، وما كان على انه غير كائن ، اثبات اللاوجود في الوجود ، والوجود في اللاوجود .

وكيف يكون ذلك ؟ بل كيف نسمح بذلك ، نحن الذين استمعنا الى الحكيم الايلي ، الى بارمنيد المعظم، يقول في مستهل قصيدته الشهيرة :

« كلا ، لن تدفع ابدا باللاوجود الى الوجود .
عن هذا السبيل من البحث ، أبعد فكرك) .

تقضي الحكمة ، اذن بابعاد معنى «السوفسطائي» من الفكر ، هذا اذا فرض ان هدف الرجل المذكور هو اظهار الباطل ، محل الحق ، واثبات الخطأ موضع الصواب ، بوجه عام ، العمل على خداع نفسه وغيره من الناس .

ويتم الابعاد باثبات مطلق للوجود .

يشعر « الغريب » هنا بأن لا مفر له من اتخاذ احدى الخطتين : اما التراجع عن البحث وانكار هذا الخداع الذي يرى كل يوم شواهد عليه ، اما هذا التراجع ، او القضاء على حكمة بارميند ، هذا الرجل الذي كان بمثابة والد للفكر الانساني ، ايرتكب «الغريب» الجريمة الكبرى ، جريمة قتل الاب ؟

يبدو ان لا مفر للغريب من اتخاذ الخطة الاخيرة ، هذا اذا اراد التقدم في بحثه ، والقاء الضوء على

شخصية السوفسطائي واهدافه ، ثم لابد للغريب من مناقشة معنى الوجود ذاته ، هذا المعنى الذي وقف بارمنيد عند اثباته ، ويبدو انه لابد من تبين ما يثير « الوجود » من مشكلات قد لا تقل خطرا عن مشكلة اللاوجود .

ان موضوع الحكمة هو « الوجود » ولكن ما الوجود بالضبط ؟ اننا لا نرى الحكماء يتفقون على شيء بصدده : يراه بعضهم واحدا ، والبعض الاخر اكثر من واحد ، ومن بين هؤلاء من يراه زوجا ، ومن يراه ثلاثة ، او اربعة وهكذا ، يزوج البعض الاثنين ، ويقرب البعض الآخر بين الثلاثة ، اما اذا تركنا الاساطير جانبا ولجأنا الى الأصول وجدنا ان الذي يوحد لا يعرف ما اذا كان الوجود هو « الواحد » ذاته ام كان في ذاته غير « الواحد » فيصبح الواحد اثنين ، كما انه لا يعرف ما اذا كان هذا الوجود الواحد هو الكل او بعض الكل ، ان كان الواحد بعض الكل اصبح مفتقرا لذاته ، وان كان كلا اصبح الواحد اثنين : واحدا وكلا ، اما اذا كان الوجود كلا ، اصبح « كثيرا » لان الكل من البعض ومن الاجزاء ، لا يستقيم الا بها — هذا فيما يتعلق بالذين يوحدون ، اما الذين يكثرون من البداية ، فمشكلتهم اصعب فاصعب .

لنترك اذن هذه المشكلات الخاصة بعدد الوجود ، ولنحاول الاطلاع على طبيعته ، تلك «الطبيعة» التي وقف الحكماء انفسهم على كشفها واثباتها ، ولنبسط الامر كل التبسيط ، فنرجع الطبيعة اما الى وجود عقلي واحد ، اراده معلمنا بارمنيد خاليا من جميع الصفات والنسب والتعيينات ، مجردا من حركة الاجسام وظواهرها المحسوسة ، واراده البعض الاخر (*) مثلا وكائنات معقولة تنأى عن المحسوسات وتفسرها مع ذلك اما هذا ، او نرجع الطبيعة الى كثرة مادية جسمية ، يراها الحس متحركة مؤثرة متأثرة ، فينكر العقل والنفس والعالم اللامنظور .

وهذا — في شيء من التبسيط — ما يراه الحكماء ، ولكن اين تكون الحقيقة ، بين هؤلاء واولئك بين المجسمين والمتعقلين ، بين ابناء الارض كما يقول افلاطون ، وبين اصدقاء المعاني والمثل المعقولة ؟

امر ثابت انه لا يمكن الوصول اليها مع هؤلاء ومع اولئك ، بحجج فاصلة ، وان الافضل الالتجاء معهم الى الحوار والاقناع اللطيف ، فنبدأ بسؤال المجسمين عما اذا كانوا مجدين في اثباتاتهم ، او يمكن ان تكون النفس جسما ؟ اذا اجابوا بالايجاب ، طلبنا منهم ان يفسروا كيف يمكن على هذا الافتراض ان نفهم فضائل النفس ، من عدالة وحكمة وما الى ذلك ، فان الفينا عندهم ترددا ، انتهزنا ذلك فرصة لان نعرض عليهم تعريفا للوجود لن يناقض آراءهم في كثير ، وان خفف من حدتها بعض الشيء ، الا يمكن ان يكون الوجود « قدرة على الفعل والانفعال » ؟

هنا يتصدى لنا أصحاب الوجود المعقول ، معترضين على هذا التعريف وما يؤدي اليه من الاعتراف بتلك الصفات والتعيينات التي ارادوها منتفية عن الوجود ، لغاية حفظه في ثبات وسكون مطلقين ؟ ولكن هل يمكن ذلك حقا ؟ الن يعترفوا على الاقل بان الوجود معقول اي معروف ، وبانه يحمل ضمنا العقل وفعله العارف ، فيصبح الفعل والانفعال من علامات الوجود وصفاته ؟ واذا كان الامر كذلك ، فكيف يصرون على اثبات الوجود في اطلاقه وتجرده الكامل كما تصوره بارمنيد ؟

« — نتساءل ، يحق زيوس ، ايمكن اقناعنا بأن لا محل للحركة والحياة والنفس في الوجود الجامع ، وبان هذا الوجود لا يحيى ولا يفكر ، بل يبقى في هيبته وقداسته ، خاليا من كل تفكير ، ساكنا لا يستطيع حراكا .

اين الحقيقة اذن ؟ اهي عند ابناء الارض ، ام عند اصدقاء العقل والمثل ؟ ام هل يجب علينا ان نصبح كالاطفال ، نطلب الحقيقة هنا وهناك ؟ نثبت المتحرك والساكن معا ، ونقرر ان الوجود حركة وسكون ايضا ؟ .

ولكن ما هي الحركة والسكون عند ما ننسب اليهما «الوجود» ؟ انقصد انهما متحركان الواحد والآخر ، الواحد مثل الآخر ؟ او انهما ساكنان الواحد والآخر ، والواحد مثل الآخر ؟ لا يمكن لا هذا ولا ذاك ، اذن الوجود حد « ثالث » بالنسبة لهما ، متمايز عنهما ، ما الذي تصبح حكمة الوجود الواحد ، التي وقف عندها بعض الاوائل ؟ .

واضح انه يلزمنا اتخاذ طريق جديد لا الى فهم الوجود فحسب ، بل قبل كل شيء الى استخدام كلام معقول مقبول عن الواحد والحركة والسكون ،

(*) اي افلاطون نفسه الذي اتخذ هذا الاتجاه ، في محاوراته الاولى والوسطى .

وسائر الاشياء التي يمكن تصورها والتي قد تصبح موضع حديثنا ونقاشنا ، يلزمنا البحث عن سبيل تصبح فيه نسبة الاشياء بعضها الى بعض ممكنة ، ويصبح الحكم فيها ممكنا سواء من نفي او اثبات .

اذا تصورنا انفسنا امام حدود الوجود كلها ، فما الطريق الواجب اتخاذه لمعرفتها والحكم فيها ؟ انفصل جميع الحدود فيما بينها ، ونعتبر كل واحد منها على حدة في استقلاله وانفراده التامين ؟ ام نخلط بين جميع تلك الحدود ، وندعي اثبات السكون والوجود بواسطة هذا الخلط ذاته ؟ ام نفصل بين البعض ونقرب بين البعض الآخر ؟ ان اتخذنا الطريق الاول عجزنا عن الحكم والاثبات والنفي والمعرفة ، وان اتخذنا الثاني ، جعلنا الساكن متحركا والمتحرك ساكنا ، وعجزنا ايضا عن الحكم والتفكير ، لا يبقى بعد ذلك الا الطريق الثالث ، وهو طريق « المشاركة » المعتدلة المعقولة .

واضح ان لتلك المشاركة قواعد لابد من اتباعها ، وتؤدي مخالفتها الى التعذر الفكري الذي اشرنا اليه بصدد كلامنا عن الوجود والحركة والانسان، ولبيان هذه القواعد ، ليست هناك وسيلة افضل من محاولة اثباتها بصدد تلك الحدود الثلاثة ذاتها ، التي تظهر اهم الحدود طرا : الوجود والحركة والسكون. عندما نقرر ان الحركة موجودة والسكون موجود ، نقصد ان الحركة في الوجود، والسكون في الوجود او ان كليهما نوع من الوجود ، ولكننا نقرر ايضا ان الحركة غير السكون والسكون غير الحركة ، بل نقرر ان الحركة ذاتها غير الوجود ، وان السكون ذاته غير الوجود ، والا اصبحت الحركة سكونا ، والسكون حركة ، وانعدم التفكير ..

في هذه الممارسة اذن لقواعد سليمة للمشاركة الوجودية بين حدودنا الرئيسية الثلاثة ، يظهر لنا حدان جديدان ، قلنا ان الحركة **غير** السكون ، والحركة **ذات** الحركة ، والسكون **غير** الحركة ، والسكون **ذات** السكون ، والوجود **غير** الحركة و **غير** السكون ، والوجود في ذاته **ذات** الوجود .

حدان جديدان اذن هما **الغير والذات** ، او كما يقول افلاطون **الاخر** و **الذات** L'autre et le même ينضمان الى حدودنا الثلاثة الرئيسية : **الوجود والحركة و والسكون .**

في هذه اللحظة من الحوار يتيقظ « الغريب » الى خطر اكتشافاته ، انه قد اكتشف بالفعل قواعد سليمة للجدل والحكم ، بل القواعد الرئيسية للجدل والحكم ، الا يكون قد اكتشف اذن العلم الجديد ، علم « الرجال الاحرار » اي الفلسفة ذاتها ؟ الا يكون قد اكتشف معنى الفيلسوف ، اثناء بحثه عن معنى السوفسطائي ، يبدو ان الامر كذلك – ولكن المهم في الوقت الحاضر ان يرجع الى موضوعه الى قنص « السوفسطائي » يتبين طبيعته ومعناه ، ويستخدم ما يلزم من قواعد الجدل السابقة .

وقد راينا ان العقبة الرئيسية التي تمنع من انكشاف « السوفسطائي » هي حكمنا عليه بانه صانع اكاذيب واوهام ، وان هذا الصنع يفترض « اللاوجود» في افعاله واحكامه ، هذا « اللاوجود » الذي حرم بارمنيد التفكير فيه ، تساءل : الا يصبح التفكير ممكنا في الوقت الحاضر ؟ الا تؤدي بنا قواعد الجدل السابقة الى اثبات « اللاوجود » بمعنى ما ؟

عندما نقول ان الحركة غير السكون ، فاننا نقصد انها غير السكون ، ولكننا لا نعتقد انها الوجود ذاته ، والا جعلنا الوجود حركة فحسب ، وجعلنا السكون حركة والحركة سكونا ، اننا قصدنا انها « لا وجود » السكون ، وانها غير الوجود ذاته ، فهناك وجود للحركة ، وهناك وجود لغير الحركة ، اي اذا صح القول « للاوجود » الحركة ، كذلك هو الامر بالنسبة لجميع ما في العالم من صور وحدود .

لا تفكير اذن بدون وجود ، ولكن لا تفكير ولا حكم بدون « لا وجود » .

ان الوجود موجود ، واللاوجود ايضا موجود ،

وهذا العكس هو بالضبط ما يسمح لنا بفهم فن « السوفسطائي » وبالقول ان هذا الرجل صانع اوهام واكاذيب ، اي في نهاية الامر ، أنه في تعاليمه واحكامه يجعل الوجود لا وجودا ، واللاوجود وجودا، اذ ما وجه الصدق في العبارة ان محمدا هذا جالس ، وما وجه الكذب في قولنا ان محمدا هذا طائر ؟ اليس في ان الاولى تثبت الوجود على انه وجود ، وفي الثانية تثبت بالعكس اللاوجود على انه وجود ؟ وما وجه الصدق في العبارة ان محمدا هذا ليس طائرا ؟ وما وجه الكذب في العبارة ان محمدا هذا ليس جالسا ؟ اليس في الاولى تثبت اللاوجود على انه لا وجود ، وفي الثانية تثبت الوجود على انه لا وجود؟

خاتمة : لنراجع الان فى اختصار معنى هـذه المحاولة التي قام بها افلاطون لوصف فن السوفسطائي ولمناقشة موقف الحكماء من الوجود ، ولاثبات اصول هذا التفكير الجديد ، اصول التفكير الفلسفي .

ولا يجب ان نستنتج من لهجة التهكم السارية فى الحوار ، ان افلاطون يريد التقليل من خطر الفكر اليوناني القديم لانه مهما يكن الامر فلا يمكن الانكار ان القدماء هم الذين شرعوا فى هذا التفكير الذي اصبح فيما بعد تفكيرا فلسفيا ، وانهم فى نهاية الامر هـم المسؤولون عن ميلاد هذا التفكير ، وذلك للسبب الرئيسي انهم اكتشفوا اسمى موضوع يمكن ان يتوخاه الفكر ، وهو الوجود ، وجعلوا منه موضوع الحكمة ، وانهم فى هذا الاكتشاف ، وفى محاولة لمح الوجود ذاته ، محاولة لا يمكن لافلاطون انكار قيمتها ، قـد نجحوا على الاقل فى اكتشاف اللغة المناسبة لهـذا الموضوع ، وذلك البحث الذي اسموه حكمة ، ومهما تكن براعة افلاطون فى الادب الفلسفي ، فهو مدين بهذا الادب وباصوله ، وبالاركان الرئيسية الثابتة فيه الى الحكماء الاوائل والى الهاماتهم اللغوية البعيدة ، انهم قد اكتشفوا موضوع الحكمة والفلسفة معا ، وقد خلقوا الاسلوب اللازم لهذه الحكمة ، اسلوبا يجب ان يبقى غامضا عجيبا ، وخلقوا فى الوقت ذاته اصول الاسلوب الفلسفي ، عناصره وكلماته الرئيسية ، وخلقوا بوجه خاص الموقف الـذي يجب علـى الفيلسوف اتخاذه ازاء تلك الكلمات والعبارات الرئيسية التي يستخدمها موقف الاحترام والاجلال اللازمين لمن يقترب من هذه الموضوعات العظمى ويحـاول التعبير عنها .

يقول « الغريب » فى المحاورة : « ان تفكير الفيلسوف ينطبق دائما على الوجود ومثاله الاعلى ، وان البهاء الذي تلمع به منطقة الوجود هو ما يفسر عجز العامة والدهماء عن رؤية الفيلسوف وفهمه ، هذا لان العامة ليست من القوة والقدرة الكافيتين لتوجيه النظر نحو الوجود الالهي » .

ان افلاطون يبجل القدماء ويعظمهم يعتـرف بدينه لهم ، ثم هو يناقشهم وينتقدهم ايضا ، وذلك لا لمجرد النقاش والانتقاد ، بل لفهم معناهم من ناحية ، والتقدم نحو الحقيقة من ناحية اخرى ، ولاجل فهـم معناهم هذا يتخذ ازاءهم حرية كاملة، فلايكتفي بعرض موقف « ابناء الارض » الذين يجسمـون كل شيء ، ولا بعرض موقف « الموحدين » والمثاليـين الذين يجردون كل شيء ؛ انه يتناقش مع هؤلاء واولئك لغاية فهم موقفهم ويطلب منهم فى نفس الوقت ان ييسروا له مهمته هذه فى الفهم ، وان يخففوا لذلك مـن حـدة موقفهم وشدته فيقتنع من ناحية المجسمين بعـدم تجسيم الفضائل بعدما جسموا النفس ، ويقتـنع المثاليين من ناحية اخرى بعدم التردد فى نسبة الفكر والحياة والحركة ايضا للوجود الجامع .

يقرب اذن افلاطون فى محاولته الفلسفية بين الحكماء ، يقرب بين حقائقهم يقرب بين المجسمين والمتعقلين ، بين المكثرين والموحدين ، بين المحركين والمسكنين ، ويقرب فى نهاية الامر بين اصحاب الوجود المجرد اللا منظور وبين اصحاب الوجـود الظاهـر المحسوس .

وفى محاولته فهم الفن السـوفسطائي لا يستطيع الوقوف عند اثبات بارمنيد للوجود وانكاره للاوجود ، بل يندفع الى الجميع بين الاثبات والانكـار فى هـذا الطريق الذي يؤدي به الى القول ان السوفسطائي هو بالفعل صانع الظواهر بوجه عام ، والظواهر الكاذبـة بوجه خاص .

ولكن اليست هذه النتائج التي بلغها افلاطون هي بالضبط ما ادعى اكتشافه المعاصرون — وهيديجر على راسهم — عند مطالعتهم للحكماء القدماء ، ولبارمنيـد وهيراقليط بوجه خاص ؟ كيف استطاعوا ان يتأولوا اقوال القدماء المتفرقة المبعثرة الغامضة المبهمة ، ان لم يكونوا قد استعانوا بفهم افلاطون لتلك الاقوال ذاتها ؟ ايكون هيديجر قد فهم من مجرد مطالعته لبارمنيـد وهيراقليط انهما لا يتناقضان ، وان الوجود المطلق لا يكتمل الا بالوجود البارز ، وان الوجود المجرد يقتضي الظواهر ، بل ان الوجود هو الوجود الظاهر المزهر ، اي « الطبيعة » كما قال القدماء ؟ ايكون قد فهم من مجرد مطالعته لبارمنيد الحكيم الغامض ، ان اللاوجود يطغى على مظاهر الوجود وعلى رؤيتنا للوجود ، وان هـذا الطغيان سبب الخداع والباطل ؟ اليس الامر بالعكس ، وان كل هذا واضح بين عند افلاطون ، وفـي مطالعة افلاطون للقدماء ، فى محاولته تفهم القدماء وتفهم الفن السـوفسطائي والفلسفة ذاتها ؟

الامر الثابت فى نظرنا ان هيديجر لم يفعل ازاء القدماء افضل واكثر مما فعله افلاطون ، بل لم يفعل شيئا آخر سوى ما فعله افلاطون ، لم يطالع القدماء الا فى ضوء مطالعة افلاطون لهم وبوجه عام ، وفى ضـوء محاورة « السوفسطائي » بوجه خاص ، لم يستلهـم

الحكماء القدماء مباشرة ، بل استلهمهم عن طريق الفيلسوف الاول ، عن طريق افلاطون ، بل لعله لم يستلهم الا افلاطون وحده .

ولعل عدم ابتعاد افلاطون فى الزمن عن القدماء وحكمتهم ، هو الذي مكنه من فهم القدماء وحكمتهم ومن اعداد المحدثين والمعاصرين لفهم تلك الحكمة ، ولعل عبقريته ذاتها كعالم باللغة فى اصولها الاولى وكاديب وفنان ، ولعل تلك العبقرية هي التي أقدرته على هذا الفهم والتي قربته لا من اقدم القدماء فحسب بل من احدث المحدثين ايضا .

لذلك نختتم بالاشارة الى اوصافه الرائعة للسوفسطائي الذي خصص له بحثه ومحاورته ، وقد راينا فيما سبق اصنافا و « عينات » من هذا الوصف ، وافلاطون يراجع تلك الاوصاف المرة بعد المرة ، ويضيف كل مرة ملاحظات جديدة وتفاصيل طريفة ، انه يشبه وصفه مرات بمطاردة ، حيوان سريع الجري ، بارع فى الاختباء ، ماهر فى الافلات ، وذلك مهما ضيق عليه النطاق ، ومهما شددت عليه الاغلال ، والجميل فى هذا الوصف ان صاحبه لا يتخيله اعتباطا ، بل يقدمه فى ثقة واطمئنان على انه وصف صادق مطابق للحقيقة ، وان فكرة الحقيقة تملي على الواصف شروط وصفه ، ما دام انتفاء هذه الحقيقة هو العامل الرئيسي فى الموضوع الموصوف ، فى معنى « السوفسطائي » — ولاشك ان افلاطون عندما قام بهذا الوصف كان يقوم ضمنا بوصف « فينومنولوجي » اي بوصف لتفاصيل الحقيقة ودقائقها ، بوصف وجود الحقيقة ، وتحقق الماهية ، بوصف وجودي بادق معاني الكلمة ، ولاشك ان اروع الامثلة على هذا الوصف الفينومنولوجي الوجودي هو هذا الذي يختتم به المحاورة ويركز فيه جميع المعاني السابقة ..

« ان هذا الفن فى المعارضة ، الداخل فى فن المحاكاة والتقليد عن طريق جزئه التهكمي المؤسس على الظن وحده ، ان هذا الفن المتعلق بفن صناعة الصور عن طريق صناعة الخيالات والاوهام، ان هذا الجزء اللا الهي بل الانساني من فن الصناعة الذي يتخذ الكلام اداته ، ويصنع بفضله سحره وشعوذته ، هذا هو عنصر السوفسطائي وهذا هو دمه — نعم ، ان قلنا ذلك ، نكون قد لمسنا الحقيقة »

ان ما يمتاز به الوصف الوجودي عند افلاطون كما ان ما يمتاز به التفكير فى الوجود عند افلاطون ، هو هذا التوخي للصدق فى الموضوع الموصوف ، هذه المراعاة للحقيقة ولدقائقها فى موضوع الفكر ، ولكن قد يعيب عيله الوجوديون المعاصرون ، وكير كجارد من قبلهم ، ان وصفه كان تطلعا الى قمم الوجود ، ولن يكن تعمقا فى اغواره ولا تخمينا او حدسا لغوائله وشروره .

الرباط : نجيب بلدي



فليشر وبروكلمن

من علماء الاستشراق الكبار

بقلم: المستشرق الهير ويلفريد هادلونك

※ لما شرفتني وزارة الخارجية الالمانية بتوجيه الدعوة الي لالقاء كلمة الافتتاح لمعرض كتب المستشرقين الالمان في المملكة المغربية فكرت في موضوع لائق لهذه المناسبة السعيدة التي تربط بين المستشرقين الالمان وزملائهم علماء اللغة العربية وآدابها في المغرب كما تربط بين جمهور المهتمين بالادب العربي في بلادنا ، وقد كان الاستاذ البرت ديترش قبل ثلاث سنوات القى محاضرة عن الدراسات العربية في المانيا وتطورها التاريخي ووضعها الحالي ، القاها في بعض مدن المغرب تحدث فيها عن جهود علماء اللغة العربية والادب العربي في المانيا في البحث والتحقيق ونشر الكتب في النواحي المختلفة من اللغة والثقافة العربية وتاريخ العرب والاسلام ، وقد طبع نص هذه المحاضرة وهي موجودة الآن في متناول الراغبين في الاطلاع عليها والتعرف بموضوعها ، اما اليوم فقد اعدت جامعة ماربوك معرضا عن التصنيفات في الدراسات العربية في المانيا واعارت الخزانة العامة بالرباط مجموعة من الكتب لهذه المناسبة فيؤدي المعرض صورة عن اعمال العلماء الالمان في هذا الميدان ويسهل للجمهور معاينة بعض ثمرات اشغالهم ، فكثير من هذه الكتب قد تكلم عنها الاستاذ ديترش وهي ولا شك تشهد لنفسها ، فاتجه رأيي الى ان اتحدث اليكم عن هؤلاء العلماء الذين تعتبر هذه الكتب اثرا من آثار اجتهادهم في خدمة العلم الشريف ، والحقيقة اننا طلاب العلم كثيرا ما نستفيد من بعض الكتب الفوائد العظيمة وهي ربما تشغلنا مدة طويلة وتشاركنا جزءا من حياتنا كانها اصدقاء مقربون ثم اننا لانعرف عن مؤلفيها اكثر من اسمائهم .

فهلا يجدر بنا ان نسال من وقت الى آخر عن هؤلاء الذين اجتهدوا في جمع هذه الفوائد ثم نظموها وهذبوها وصنفوها حتى ييسروا للطلاب الاطلاع عليها فكرسوا حياتهم لهذا العمل الذي يثبت اساسا يصعد منه الطلاب الى آفاق جديدة من العلم ، غير ان هؤلاء العلماء عددهم كبير اقتصرنا على البارزين منهم فلا يمكن التعريف بكلهم في محاضرة ، فلذلك اخترت اثنين منهم ربما يمثلان الاخرين خير تمثيل اذ يعتبران قدوة راقية في جهودهم العلمية ، وهما يحتلان ايضا دورين في تطور الدراسات العربية في المانيا الا وهما الاستاذان الكبيران هينرخ ليبرخت فلايشر وكارل بروكلمن .

ولد هينرخ ليبرخت فلايشر سنة 1801 ميلادية في شندو وهي بلدة صغيرة على نهر الالب في المانيا الوسطى من عائلة متواضعة ، كان والده كاتبا في ديوان الضرائب هنالك ، اما امه فكانت بنت معلم مدرسة الكنيسة ، وقد دخل الصبي المدرسة الابتدائية في شندو ، وبعد قليل ظهر ذكاؤه لمعلميه فاعتنوا به عناية خاصة وعلمه احدهم مبادىء اللغة اللاتينية حتى يسوغ له الالتحاق بالمدرسة الثانوية ، ففي سنة 1814 انتقل فعلا الى المدرسة الثانوية في مدينة بوتزن ، وبان تفوقه على اكثر زملائه بها وخصوصا في اللغات ، فقد كان مولعا بدراستها ودراسة الاداب الاجنبية فقرا الكتب اللاتينية واليونانية والفرنسية والايطالية كما انه احس بشوق الى دراسة اللغات الشرقية حتى في هذا الوقت من حداثته ؛ وكانت اللغة الشرقية الوحيدة التي تعلم في مدرسته هي العبرية فواظب على دراستها حتى قرا

※ هذا نص المحاضرة التي القاها العالم الالماني بتطوان بدعوة من كلية اصول الدين .

التوراة كلها بهذه اللغة ، ثم اتفق له وهو تلميذ في بوتزن ان يعثر على نسخة قديمة لكتاب قواعد اللغة العربية الذي الفه المستشرق الهولندي اربنيوس في اوائل القرن السابع عشر واختصره المستشرق الالماني ميخائيلس ، وقد كانت النسخة ناقصة من اولها وآخرها ولم يجد فليشر معلما يجيد العربية فيرشده في تعلمها فدرس الكتاب بنفسه ؛ وبهذه الطريقة تعلم المبادىء الاولى لكتابة اللغة التي كرس اكثر حياته لدراستها وتدريسها ، وبجانب اهتمامه كان مشغوفا بالموسيقى وكان يجيد عزف البيانو .

وبعد ان تخرج فليشر من المدرسة الثانوية التحق بجامعة ليبزك الجامعة القديمة المشهورة في مقاطعة ساكونيا ودرس بها علم اللاهوت واللغات الشرقية وسمع بها الاستاذ جوتفريد هرمان رئيس مذهب جديد في علم فقه اللغة وقد تأثر فليشر بآرائه في منهجه العلمي ودرس اللغة العربية على الاستاذ اوغست فريدشر كارل ووزنمولر فبعد مدة وجيزة بلغ فليشر في معرفة هذه اللغة درجة رفيعة حتى ان استاذه كلفه بتدريس مبادئها لغيره من الطلاب ، والحقيقة ان استاذه لم يكن يهتم كثيرا بعلم اللغة العربية ولم يحتل المنصب العالي بين علمائها وان كان قد نشر بعض النصوص العربية ، ذلك انه يعتبر اللغة العربية وسيلة فقط لدراسة الكتاب المقدس ولتصوير البيئة التي عاش بها الانبياء ، وكانت الدراسات العربية في ذلك الزمان في المانيا عموما على مستوى منخفض ، الا انه قد تقدم في جامعة ليبزك في القرن السابق العالم الجليل يوهن ياكوب ريسكه الذي كان يجمع بين علم اليونانية وعلم العربية وتبحر فيهما وقد كان رحل الى ليدن في هولندة التي كانت تعتبر مدرسة الاستشراق الزاهرة في اوربا فتمثل فليشر بكفاحه العلمي لرفع دراسة اللغة العربية والادب العربي الى مكان لائق في الجامعات الالمانية .

وبعد اربع سنين من دراسته في جامعة ليبزك نجح فليشر في امتحان علم اللاهوت في مدينة دريسدن ثم امتحن في السنة التالية في الجامعة ، ومن الجدير بالذكر انهم في ذلك الزمان كان المفروض على الطلبة المرشحين للامتحان ان يحلفوا يمينا بانهم لن ينتقموا من الاساتذة الممتحنين لهم اذا فشلوا ؛ غير ان فليشر بطبيعة الحال نجح في هذا الامتحان بالامتياز وبذلك حصل على درجة الدكتوراه ، وحينئذ واجه فليشر مشكلة اختيار مهنته ، كانت رغبة والديه في ان يصبح قسيسا فيؤمن مستقبله بذلك ، اما هو نفسه فكان يميل الى تعلم اللغات الشرقية ميلا شديدا ، وعلينا الا ننسى ان دراسة اللغات الشرقية كانت ذات طريقة ضيقة في ذلك الوقت فلم يكن لمتعلمي هذه اللغات امل في معيشة الا في عدد قليل من الجامعات ، فمن الطبيعي ان والديه خافا على مستقبله المادي ، غير انه قد اعتزم على مشروعه وفي النهاية وافق والداه على رايه ، وقد كان فليشر حصل ما يمكنه تحصيله من علم اللغة العربية في المانيا فاتجه حينئذ الى خارجها وارتحل الى باريس حيث كان هناك الاستاذ سيلفس العالم المعلم المؤلف رئيس علماء العربية في اوربا في ذلك العصر وكان يمثل محصول علم الشرق كله ويتمتع بشهرة عظيمة وكان لكل طالب رغبة في ان يقابله ويتلقى العلم منه شخصيا فيسافرون اليه من كل انحاء اوربا ، ولم يكن هذا السفر شيئا هينا في ذلك الزمان للطلاب المقلين مثل فليشر فقد حصل على منحة دراسية صغيرة لم توفر له المعيشة في باريس ، ثم اعطاه احد الوزراء السابقين لنابليون منصبا يعلم اولاده وبذلك تمكن من ان يقيم ثلاث سنوات في باريس ينهل العلم من احسن مناهله واختلف فليشر الى محاضرات دي ساسي ودرس ايضا اللغتين الفارسية والتركية على اساتذة مدرسة اللغات الشرقية الحية واعتنى باللهجات العربية العامية وقابل بعض العلماء المصريين هناك فسالهم عما اشكل عليه في هذا الخصوص ، وكان فيما بعد في كثير من مقالاته يذكر المعلومات التي اخذها عنهم ، ويختلف فليشر يوميا الى المكتبة الوطنية في باريس ويقرا المخطوطات العربية وغيرها وينسخ الكثير منها فيستفيد من هذه النصوص المنسوخة فيما بعد في بحوثه ؛ وفي اثناء اقامته بباريس ظهرت مقالته العلمية الاولى في المجلة الاسيوية الفرنسية ؛ وهي تعليقات نقد لطبعة الف ليلة وليلة التي اعدها هابخت في ذلك الوقت وقد بانت معرفته الواسعة بتطور اللغة العربية من هذه المقالة ، ولكن اهم من هذا كله كانت صحبته لدسي ساسي ؛ فقد كان فليشر دائما يحفظ له التقدير العظيم ، وعرف له التأثير الغالب في اتجاهه العلمي وقد وهبه دسي ساسي عندما غادر باريس صورة نفسه وكتب عليها . اعتباري انه كان من اجل الخدمات التي بذلتها للادب الشرقي انني ارشدت تلامذة مثلك ولكنهم قليلون نادرون .

رجع فليشر الى وطنه في المانيا فاستفاد من معلوماته الجديدة لاعداد الفهرست للمخطوطات الشرقية في مدينة دريسدن ، ثم استكمل طبعة تاريخ ابي الفداء الذي كان ريكه اعتنى بنشره ، ثم حالت وفاته بينه

وبين اتمامه واضاف فليشر الى النص العربي ترجمة باللغة اللاتينية ، واضطر فليشر حينئذ للتدريس في مدرسة ثانوية في لبزك ، اقول اضطر لان هذا التدريس لم يكن يتعلق بموضوع تخصصه ويشغله وقتا كثيرا عنه ولم يكن من المتوقع ان يعين قريبا لمنصب في احدى الجامعات الالمانية لان كراسي اللغات الشرقية قليلة وكلها مشغولة ، ولكن شهرته قد بدأت تنتشر الى خارج حدود المانيا فتلقى دعو من روسيا من مدينة سنت بيترسبورج التي هي ميتنجراد اليوم لمنصب استاذ اللغة الفارسية في جامعتها وملحق في مجمعها العلمي فقبل الدعوة بسرور وكان على وشك السفر الى روسيا لما توفي الاستاذ روزنمولر استاذه السابق في لبزك فدعته جامعة لبزك لان يخلفه في منصبه فبعد مفاوضات استقال فليشر من منصبه بجامعة سانت بيترسبورج فعين استاذا للغات الشرقية في لبزك ، وقد نشر في ذلك الوقت ترجمته للاعلاق الذهبية للزمخشري بعد ان اصلح النص الذي نشره المستشرق المشهور فون هامر ووجه نقدا حادا الى هذا العالم الذي كان يعتبر رئيس الدراسات الشرقية في المانيا ، انتقده لتسهله في تحقيقه للنصوص العربية وترجمتها ثم رد عليه فون هامر ونشأ عن ذلك تشاجر علمي بينهما دام سنوات . وبالنهاية انتصر فليشر في الراي العام للعلماء ثم اصلحت الامور بينهما . ولا يهمنا اليوم هذه المشاجرة الا انها تدل على الناحية في منهج فليشر العلمي التي تميز بها عن زملائه والتي مكنت سمعته بينهم وهي معرفته بدقائق اللغة العربية معرفة غير معهودة في اوربا في ذلك الوقت ، فقد كان فليشر قبل كل شيء لغويا يلاحظ الظواهر اللغوية بالدقة ، في الالفاظ والنحو والصرف ويهتم بتصليح النصوص القديمة المحرفة ، فيصل بذلك الى فهم اصح لها ، فعقليته بعيدة كل البعد عن التخيل ، يكره التوهم كما يكره ان تخضع ظواهر اللغة لقواعد عامة بعيدة عن اصلها . وفي كل ذلك كان دائما يشير الى ضرورة دراسة كتب النحاة واللغويين العرب ، فقد اعتنى قدماء العرب بوصف لغتهم ووضع قواعد لاستعمالها عناية لا مثيل لها بين الامم القديمة ، فكان من راي فليشر وهو يتبع رأي استاذه دي ساسي في ذلك ان كل دراسة للغة العربية يجب ان تبنى على المعلومات التي جمعها النحاة واللغويون العرب على مذاهبهم المختلفة لانهم كانوا اقرب الى اللغة العربية الدارجة في زمانهم من المحدثين وليس معنى ذلك انه كان يقول بتقليد هؤلاء القدماء في كل آرائهم وتصويب مذاهبهم ، بل كان يرى ضرورة بحث النصوص القديمة بذهن يقظ نبيه مفتوح للخواطر الجديدة كما اهتم دائما بتطور اللغة التاريخي ، فلم يعتبر دورا واحدا مثاليا كما فعل القدماء ، ولذلك راقب باهتمام مظاهر النهضة الثقافية العربية في عصره وراسل ممثليها مثل نظيف اليازجي وبطرس البستاني ، ولن ننسى العقبات الشاقة التي وجب ان يتغلب عليها مثل هذا الاتجاه في دراسة اللغة العربية فلم تنشر بعد القواميس العربية وكتب النحو والنصوص القديمة الا القليل منها ، وربما طبعت من قبل اشخاص قلت معرفتهم باللغة العربية فوقعت في طبعها الاغلاط الكثيرة ، واما المخطوطات العربية التي وصلت الى اوربا فلم توجد فهارس لها في كثير من خزائنها ، ثم بدات في زمن فليشر حركة قوية لنشر الفهارس والنصوص باللغات الشرقية بالاسلوب العلمي المعهود في نشر النصوص اللاتينية واليونانية يقارن كل المخطوطات المعروفة للنص ويشار الى القراءات المختلفة لها ، وبذلك يتوصل الى اصوب نص وقد شجع فليشر زملاءه وطلابه على مثل هذا العمل وساعدهم بمعلوماته وقراءاته الواسعة وزملاؤه يعرضون عليه مشاكلهم وهو دائما على استعداد لان يعاونهم على قدر طاقته ، ففي كثير من الكتب العربية المنشورة في اوربا في ذلك الوقت نرى الاشارات العديدة الى اقتراحاته باصلاح النصوص وادراك الصواب وهو نفسه نشر تفسير البيضاوي في مجلدين اسوة للتحقيق العلمي الصحيح النصوص .

درس فليشر في جامعة لبزك بجانب اللغة العربية في البداية الارامية والعبرية والفارسية والتركية ثم اسقط بعد ذلك الارامية والعبرية من جدول تدريسه ، واقتصر على اللغات الاسلامية الثلاث المهمة فقط العربية والفارسية والتركية ، وهي اللغات التي تجب دراستها حتى الآن على كل طالب متخصص في الدراسات الاسلامية في المانيا ، غير ان ميدان فليشر الذي امتاز به وبلغ الذروة فيه هو اللغة العربية ، فاصبح بعد موت دي ساسي عميد علماء هذه اللغة في اوربا كلها يقصد اليه الطلاب في لبزك كما كانوا يقصدون الى استاذه في باريس فكان اكثر علماء الطبقة التالية من تلاميذه ، ولما تلقى فليشر دعوة الى كرسي في جامعة برلين وكانت تعتبر اعلى شرف لعالم في المانيا رفضها فلا يشك ان الطلاب يقصدونه حيث ما كان فلا حاجة له لان ياتيهم في برلين مركز الدراسات الجامعية في المانيا فبقي فليشر يدرس في جامعة لبزك اكثر من نصف قرن حتى وفاته سنة 1888 .

وإذا سألنا نحن اليوم لماذا بقي اسم هذا الرجل مشهورا من بين علماء جيله ولماذا نجدد ذكراه بمناسبة تهم المستشرقين الالمان على العموم فالجواب الذي يتبادر الى الذهن فى ذلك ان له الاثر الاكبر فى رفع علم اللغة العربية والادب العربي الى مكانه اللائق فى الجامعات الالمانية خاصة والثقافة الالمانية عامة فلم يضع فليشر هذاالعلم فى المانيا ولكنه فتح له ابواب الجامعات فصار عضوا من اعضاء اسرة العلوم الجامعية بعد ان كان ضيفا غريبا بينها ، وقد اتسعت الدراسات العربية اتساعا ملحوظا فى خلال حياته وبعده على ايدي طلابه . واليوم تدرس وتدرس اللغة العربية والاداب العربية ، فى كل الجامعات الالمانية وقد اصبح فليشر عضوا فى كل المجامع العلمية فى المانيا كما كان عضوا فى المجامع العلمية فى فرنسا وروسيا وهولندة والنرويج وهنغاريا فاعترفت بذلك تلك المجامع بقدره العلمي كما اعترفت باهمية الدراسات العربية . ومما يعرفه له المستشرقون الالمان اليوم ايضا انه كانت له العناية الكبرى فى تاسيس جمعيتهم ، جمعية المستشرقين الالمان ، وقد سبق تاسيس الجمعية الاسيوية بفرنسا بعناية دي ساسي سنة 1821 كما اسست فى انكلترا الجمعية الاسيوية الملكية فاقترح فليشر مع بعض زملائه انشاء جمعية المانيا مثلها تاسست سنة 1845 فاصبح فليشر العضو رقم الواحد بها تكريما له وشكرا لجهوده الكبيرة فى تاسيسها وبقي فليشر هو المحرك لها طول حياته ولا شك ان لهذه الجمعية وللمجلة التي تصدرها التاثير العظيم فى تشجيع الدراسات الشرقية ونشر نتائجها فى المانيا وهذه المجلة لاتزال تظهر وتشتمل على البحوث الهامة وان تعددت المجلات المختصة بالدراسات الشرقية منذ ذلك الوقت فتظهر بجانبها مجلة الاسلام ومجلة الشرق ومجلة العالم الاسلامي وغيرها .

ومن الواضح ان تاثير فليشر فى توجيه الدراسات العربية فى المانيا قوي حتى اليوم ، فلا تزال مدرسته بمعنى عام حية ينتمي اليها كثير من علماء العربية ، فاهتمامهم الاول بدراسة ظواهر اللغة وتاريخها ، يعرفون ان الفهم الصحيح الدقيق للنصوص هو شرط كل تقدم فى العلوم النقلية ، ويجوز ان تعتبر من ثمرات هذا الاتجاه فى ايامنا مثلا كتاب الاستاذ فوك فى تاريخ اللغة العربية الذي قد ترجم الى اللغة العربية ، ومشروع القاموس العربي الكبير الذي بدا الاستاذ فليشر بجمع المواد له من كل المصادر المهمة القديمة ثم حالت وفاة فليشر بينه وبين اتمامه ، وقد نشرت فى السنوات الاخيرة الاجزاء الاولى لهذا القاموس بعناية الاستاذ سبيتالر وغيره ، على انه مشروع واسع حقا فلا يتوقع اتمامه الا فى المستقبل البعيد .

تقدمت الدراسات العربية والشرقية بعد فليشر بخطى سريعة فى المانيا وربما يعتبر ذلك العصر قبل الحرب العالمية الاولى هو عصر الاستشراق الذهبي بها فاجتذبت الى حيزها عددا كبيرا من الطلاب الممتازين اصبحوا علماء يقل نظيرهم فرفعوا سمعة المانيا فى هذا المضمار حتى كانت تعتبر فى مقدمة بلدان اوربا به ، وفى هذا العصر نشا كارل بروكلمن وشرع فىنشاطه العلمي .

كان مولد بروكلمن سنة 1868 بعشرين عاما قبل وفاة فليشر فى مدينة روستوك فى مقاطعة مكلنبورغ على شاطيء البحر البلطيقي ، ولد من عائلة تجار معروفة وكانت والدته مثقفة فحببت اليه قراءة الادب الالماني وبدت عبقريته فى تعلم اللغات منذ حداثته ، فقد اهتم بتاريخ لهجة وطنه مكلنبورغ وحافظ على هذا الميل طيلة حياته وفى نفس الوقت احس برغبة شديدة فى زيارة القارات النائية والبلدان الغريبة ، فكان يرغب فى ان يصبح طبيب سفينة او ترجمانا حتى يرى العالم كله ، ولذلك بدا يتعلم كل اللغات التي تمكن من تعلمها فى مدرسته ، فتعلم من اللغات الشرقية العبرية والسريانية ، ولما التحق بجامعة روستوك درس العربية والتركية ودرس ايضا التاريخ واللغات القديمة، وبعد سنة انتقل الى جامعة برسلو ، ثم بعد سنة اخرى الى جامعة ستراسبورغ فتلقى العلم هناك على يدي الاستاذ تيودور نولدكه العالم الجليل المتبحر فى اللغات السامية كلها فكان لنولدكه التاثير الكبير فى توجيهه الى ميدان اللغات السامية نهائيا ، غير انه اعتنى فى ستراسبورك ايضا بدراسة اللغة السنسكريتية والارمنية والمصرية القديمة والتاريخ والاثار القديمة والفلسفة ، ومن هذا يتبين سعة اهتمامه العلمي العجيبة وقدرته البالغة على التعمق فى علوم شتى .

وبينما كان يدرس فى ستراسبورغ عرض استاذه نولدكه جائزة للطالب الذي يبحث ويبين العلاقة بين تاريخ الطبري والكامل لابن الاثير ، فكتب بروكلمن فى مدة بضعة اشهر رسالة بهذا الموضوع حصل بها على درجة الدكتوراة ، ثم ابتدا بتدريس اللغات القديمة فى مدرسة من مدارس ستراسبورغ غير انه فى نفس

الوقت واصل دراساته العربية فاكمل باقتراح نولدكه نشر الجزء من ديوان لبيد مع ترجمة باللغة الالمانية ولم يرضه التعليم في المدرسة فعاد الى برسلو وقدم الى جامعتها رسالة بحث عن تاريخ ابن الجوزي المسمى بكتاب المنتظم فمنحت له حق التدريس بها ثم نشر بعد سنتين اول مصنف كبير له القاموس السرياني اللاتيني ثم طلب الاستاذ ساخو اليه الاشتراك في نشر كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد وسهل له السفر الى لندن واستنبول للاطلاع على مخطوطات هذا الكتاب المحفوظة هناك فسافر بروكلمن الى لندن ومنها الى باريس ومرسيليا وانيتا ثم استنبول فاقام بها نصف سنة فبجانب عمله المفترض عليه نسخ كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة فاعتنى به بعد عودته الى المانيا .

وكان نشر هذا الكتاب داعية من دواعي تاليف كتاب آخر اثبت شهرة بروكلمن العالمية فيما بعد فقد طلبت دار النشر التي اعتنت باصدار كتاب عيون الاخبار من بروكلمن كتابا غيره اليق باقبال العامة في المانيا على شرائه من كتاب باللغة العربية ، فتعهد بروكلمن بتاليف كتابه المسمى بتاريخ الادب العربي ولما طبع اول جزء من هذا الكتاب الذي يعتبر اليوم من اهم المراجع لكل باحث في ميدان الدراسات العربية لا يستغنى عنه ، وصفه بعض ناقديه فيقول سخرية به وهذا ما يسميه بروكلمن تاريخا للادب العربي ، والحقيقة ان هذا الكتاب يخالف ما يسمى عادة بتاريخ ادبي فقد فهم بروكلمن لما شرع بتاليفه ان حال دراسات الادب العربي لا تسمح بعد بوصف شامل لتطوره من الناحية الفكرية في كل ادواره ، ولم يطبع الا النصيب الضئيل من آثاره الغفيرة الفنية وما يدرس دراسة علمية هو اقل من ذلك ، وكان بروكلمن يكره ان يبني عمله على اسس غير سليمة ، فلذلك رسم خطته بان يذكر في كتابه كل النصوص العربية التي وصلت الينا في الاداب والعلوم المختلفة باستثناء النصوص التي لا يعرف مؤلفها ولا تاريخ تاليفها فيشير الى مخطوطاتها في المكتبات المختلفة والى طبعاتها منظمة حسب مؤلفيها وموضوعاتها ، ويجمع ايضا اهم المعلومات عن حياة المؤلفين فيصبح الكتاب بهذا اساسا للبحوث العلمية في المستقبل ، ولا شك ان مثل هذه المهمة كانت جسيمة ومما ساعد بروكلمن على اتمامها قوة ذاكرته المدهشة ومقدرته على العمل المتواصل المنظم ، ولم يعبا بروكلمن بنقد الناقدين لكتابه بل استمر على خطته ، ثم بانت قيمته العظيمة تدريجيا ، وواصل بروكلمن جمع المعلومات الجديدة بعد تمام طبعه ايضا يريد ان ينشر طبعة ثانية مكملة مصححة للكتاب فمنعته ظروف دار النشر التي كانت لها حقوق الطبع بعد خمس وثلاثين سنة من الطبعة الاولى نشر ملحقين ضخمين ثم نشر بعد ذلك ملحقا ثالثا تناول فيه الادب العربي الحديث من آخر القرن التاسع عشر الى الوقت الحاضر وزاد به على خطته في الاجزاء السابقة بان يصف وينقد محتويات الكتب المذكورة يشير الى امثلتها الادبية ويعلق على لغتها واسلوبها ، وهذا يدل على اهتمامه الكبير بالثقافة العربية المعاصرة ولم يخف بروكلمن عطفه على تيارات التحرر السياسي في البلدان العربية ، وراسل الشعراء والادباء والعلماء العرب مما زاد من احترامه في العالم العربي ، وقد سر بروكلمن قبل وفاته ، سنة 1956 بخبر ان جامعة الدول العربية اعتنت بترجمة كتابه مع ملاحقه الى اللغة العربية ونشرها ومن هذا يتضح ان قيمة الكتاب العلمية لا تزال كبيرة بين علماء العربية المستشرقين منهم والعرب انفسهم .

اما آثار بروكلمن العلمية الاخرى فلا يمكن تعدادها هنا ولن نذكر منها الا اهمها واشهرها حتى تتضح سعة عنايته العلمية ، فمنها كتابه المسمى بخلاصة النحو المقارن للغات السامية بمجلدين ، وهو لا يزال الكتاب المعتمد في هذا العالم وكان احب كتبه اليه لانه كان ثمرة افكاره الشخصية اكثر من غيره واتبع طريقة اللغويين التاريخيين التي اتبعها ايضا في كتابيه في قواعد اللغة السريانية والعربية اللتين تستعملان كثيرا بتدريس هاتين اللغتين في المانيا ، واشتغل بروكلمن طويلا ببحث اللغة التركية قديمها وحديثها فاعتنى بشرح كتاب ديوان لغات الترك لمحمود بن الحسين الكاشغري والف قاموسا للغة التركية المتوسطة ووضع كتابه في قواعد اللغة التركية الشرقية وتطورها ومن مشهور مؤلفاته كتابه المسمى بتاريخ الدول والشعوب الاسلامية فكان هو الكتاب الوحيد الذي يشتمل على تاريخ الشعوب الاسلامية كلها من اول ظهور الاسلام حتى العصر الحديث وقد ترجم الكتاب الى اللغات العربية والانجليزية والفرنسية والتركية والبولندية .

لا حاجة لنا بعد ذلك للدلالة على ان آثار هذا الرجل العلمية لا تزال حية في المانيا وخارج حدودها وان سطوته بقيت قوية بين العلماء ، وقد اتيح لعدد كبير من مستشرقي المانيا المعاصرين ان ياخذوا العلم منه خلال حياته الطويلة وكانت حياة استاذ عالم اكثرها

بحث وتاليف وتدريس ولن نتبع هنا ادوارها فى تنقله بين الجامعات الالمانية ولن نذكر ايضا ما شرف به من التشريفات العظيمة تقديرا لخدماته الجليلة لتقدم العلم ، وبعد وفاته يواصل طلاب العلوم الشرقية دراستهم على كتبه ويستفيدون منها الفوائد الجمة ، اما هو نفسه فكان من تواضعه انه لما شرفته جامعة هاله بمناسبة عيد مولده الثمانين ذكر مهنئيه انه من حظ كل عالم ان نتائج عمله بعد مدة قصيرة تتخلف عن تقدم العلم فبعد خمسين سنة من وفاته يصبح النافع منها فى الملك المشترك بين العلماء اما الاخطاء فتنسى .

غير اننا لا نشك فى ان اسماء العلماء البارزين مثل بروكلمن لن تنسى مهما نمت العلوم وتقدمت البحوث بل على العكس تشتهر بانتشارها واتساعها ، والحقيقة ان اسم بروكلمن قد اصبح معروفا فى العالم اجمع فقد ترجمت كتبه الى اللغات الغربية والشرقية ومنها العربية ، وقد تغيرت اوضاع الدراسات الشرقية منذ عصر فليشر فكان الاستشراق فى ايامه هو البحث عن تراث الحضارات الشرقية الذي قام به بعض العلماء فى اوربا وكان فليشر كما ذكرنا يراقب من بعيد الظواهر الاولى للنهضة الادبية العربية فى الشام ، اما بروكلمن فشاهد مرحلة جديدة لهذه النهضة الثقافية فقد صارت حركة قوية عمت البلدان العربية كلها كما شاهد حركة التحرر السياسي فانفعل لها ووصفها للمستشرقين وللراي العام ، وكان من عواقب النهضة الثقافية فى العالم العربي انتشار العلوم الحديثة ومعرفة اساليبها ومناهجها فيه ومنها هذه العلوم التي تسمى بالاستشراق فابتدا العلماء العرب يهتمون بنتائج عمل زملائهم فى اوربا ويأخذون المفيد عندهم ويضيفون اليها بحوثا جديدة ، ثم ابتدا المستشرقون يهتمون ببحوث زملائهم فى الشرق كما كانوا يهتمون باعمال العلماء القدماء فيقراون كتبهم ومقالاتهم العلمية ويتبادلون الاراء معهم فى المؤتمرات العلمية والمقابلات الشخصية فنشات من ذلك تلك المناقشة التي هي من ظواهر ازدهار العلوم كما نشا منه التعاون فى العمل العلمي الذي ينفع تقدم معارفنا والتفاهم بين الشعوب .

ومن مظاهر ذلك التعاون وثمراته هذا المعرض معرض كتب المستشرقين الالمان الذي نحتفل اليوم بافتتاحه ، ففي ختام هذه الكلمة اسمحوا لي ان اعبر باسم كل القائمين بالدراسات العربية فى المانيا عن سروري العظيم باهتمام المختصين والراي العام في المملكة المغربية باعمال العلماء الالمان فى هذا الميدان فأتمنى لهذا المعرض النجاح فى اداء صورة صادقة لها تشجيعا للمناقشة العلمية والتعاون فى البحث فى خدمة العلم والتفاهم بين الشعوب .



اللغة العربيّة كمال قوميّتنا

للأستاذ عبد اللطيف خالص

-2-

* اذا اردنا دراسة الوضع اللغوي فى بلادنا يتحتم علينا ان نرجع قليلا الى الوراء لمعرفة مختلف الحضارات القديمة التي عرفها المغرب فى عهود ما قبل التاريخ ؛ فقد تعاقبت على بلادنا حضارات الرومانيين والقرطاجنيين والفينقيين وغيرهم وكان لكل من هذه الحضارات اثر فى المجتمع المغربي القديم يتجلى فى مختلف الآثار العهيدة التي لازالت تشهد بذلك . وقد كان تاثير بعض هذه الحضارات قويا الى درجة تم معها خلق حركات ادبية قائمة بالذات ، وتشهد بعض المصادر ان تاثير الفينيقيون من حيث اللغة كان قويا حتى نبغ عدد من الادباء لمعوا فى ميدان العلم والادب فى المغرب وكان تعبيرهم فينيقيا محضا . وقد عثرت مؤخرا على بحث تاريخي جليل يصور تاثير الفينيقيين فى نفوس المغاربة وقد ذكر صاحبه عددا من الادباء والعلماء المغاربة كان لهم دور عظيم فى مضمار الحضارة الفينيقية بالمغرب .

ولكن اهم فتح لغوي عرفه المغرب هو الذي تم على يد العرب والمسلمين منذ القرن الاول للهجرة والقرن السابع الميلادي . فمنذ ذلك العهد واللغة العربية تشق طريقها فى مهل واتئاد وتتمركز شيئا فشيئا الى ان اصبحت لغة البلاد الرسمية كما صار الاسلام دين المغرب من الوجهة الرسمية فنحن عندما نقف على لغة التخاطب والكتابة فى وطننا نجد ان اللغة التي فرضت وجودها التاريخي هي اللغة العربية التي تمكنت من بلادنا منذ دخل العرب الفاتحون ومنذ وطيء المسلمون ارضنا . واذا كانت اللغة العربية فرضت وجودها التاريخي فليس معنى هذا انها اصبحت اللغة الوحيدة المنتشرة فى المغرب اذ لا زالت فى بلادنا لغة اصيلة هي اللغة البربرية التي تعتبر لغة السكان الاصليين . ولكن هذه اللغة متعددة اللهجات حسب الاقاليم والنواحي وليس باستطاعة اية لهجة أن تفرض وجودها على الاخرى ولهذا وجدت اللغة العربية سبل الانتشار مفتوحة امامها فترعرعت وتطورت واصبحت ترجمان مشاعر المغاربة منذ عهد عقبة بن نافع الى اليوم وان كانت هناك عوائق وعوارض وعقبات اعترضت طريقها وحاولت القضاء عليها خصوصا فى عهد الاحتلال حيث عمل المحتلون على فرض لغة اجنبية بمحاولة تعليمها مكان اللغة العربية . والمحاولات التي قام بها الفرنسيون فى هذا الشأن معروفة فقد قام هؤلاء الاجانب باحلال لغتهم محل لغة الضاد فى الاماكن التي كانت تعلم فيها اللغة العربية ثم قاموا بمحاولات لتيسير اللغة البربرية بمختلف لهجاتها حتى يسهل على اصحابها كتابتها والمحافظة عليها ولكن مجهودات المحتلين ذهبت سدى لان اللغة العربية استطاعت الصمود فى وجه هذه المحاولات الرامية الى القضاء عليها كما استطاع المومنون بقوة لغة الضاد ان يبذلوا مجهودات مشكورة لتركيزها والحفاظ عليها .

وقد كان غرض المستعمرين من وراء فرض لغتهم وتقوية اللهجات البربرية وتضعضع اللغة العربية هو ان يسلبوا المغرب من اقوى مقومات ثقافته ووجوده الذاتي اذ من المعروف ان اللغة هي عنوان حضارة الامم وسيادتها وتقدمها والبلاد التي لا تستطيع ان تقوي وسائل تعبيرها تبقى ضعيفة المقومات بسيطة المعنويات والشعوب لا تسير فى طريق النهوض بخطى ثابتة الا عندما تصبح عندها اداة التعبير سليمة ولغة التخاطب والتفاهم موحدة قويمة . ويكفي ان ترى الصعوبات التي تعترض رجال التعليم فى هذه الايام لتدرك آفات اللغة واخطارها على الشعوب والامم فلو بقي تعليمنا عربيا كما كان فى الماضي لما طرات هذه الصعوبات الجمة التي تقف حجر عثرة فى طريق ايجاد منهج تعليمي فى المغرب ومنع وضع تصميم قار للتعليم والتربية فى بلادنا يضمن تعريب المواد والكتب ويضطرنا فى كثير من

* راجع القسم الاول فى العدد السابع من هذه السنة .

الاحيان الى تعريب الرؤوس المفكرة ومغربتها معنويا اذا ما اقتضى الحال ذلك .

واللغة ظاهرة اجتماعية خطيرة وعدم توحيد اللغة فى قطر من الاقطار يؤدي الى ويلات ونكبات اجتماعية لا يعلم الا الله مداها ، وان نظرة مستعجلة على بيئتنا ونخبتنا المثقفة فى هذه الظروف تبين لنا ما نكابده من مشاق وما نتعثر فيه من مشاكل يرجع اصلها الاول والاخير الى تعدد لغات اعضاء هذه النخبة واختلاف ميولهم الناتج عن اختلاف تكوينهم هذا الاختلاف الناتج بدوره عن اختلاف اللغة التي درسوا بها . فقد انقسم مجتمعنا المغربي اقساما عديدة وحصل فى صفوف المواطنين تصدع خطير يوشك اذا لم يتدارك فى حينه ان يؤدي الى تشتيت معنوية المواطنين وتحطيم آمالهم وامانيهم فى وحدة وطنية متراصة ؛ ونحن اذا نظرنا الى المجتمع المغربي واعتبرنا تكوين المواطنين عموما والمثقفين خصوصا نجد ان مجتمعنا ينقسم الى عدة اقسام :

اولها : فريق الذين تكونوا فى المدرسة الاصلية وتلقوا تعليما عربيا خالصا اساسه امهات كتب اللغة العربية المتينة ودعائمه الاصول التعليمية الدينية القديمة .

ثانيهما : فريق الذين تكونوا تكوينا خالصا معاصرا اساسه الكتب الحديثة التي جعلت رهن اشارة الذين ينتمون الى هذا الفريق وهي كتب ومؤلفات قيمة ولكنها لاتدرك قيمة الكتب والمؤلفات التي درس بها الفريق الاول الذي تخرج جل اعضائه من المعاهد الاصلية كالقرويين وابن يوسف وتطوان وتارودانت وغيرها من المساجد والزوايا فى مختلف مدن المغرب وقراه التي تتوفر على مساجد وزوايا تعطى فيها دروس جليلة الفائدة كالزاوية الدلائية والناصرية والالفية وغيرها .

ثالثها : فريق الذين تربوا فى مدارس اجنبية فرنسية او اسبانية والذين تلقوا تعليما معاصرا مختلفا فى الكم والكيف عن التكوين الذي حظي به اصحاب الفريقين الاول والثاني ؛ فقد عرف هذا الفريق مدارس نظامية حديثة احدثها الاجانب وجعلوا لغتهم اساس التعليم فيها فنشأ فى تلك المدارس الاجنبية لغة ونظاما واسلوبا ولحما ودما فريق من المثقفين اختلف تفكيرهم عن تفكير اخوانهم الآخرين باختلاف التكوين ، ومن الطبيعي ان يؤدي اختلاف التكوين الى اختلاف فى التفكير والنظر الى الامور والتدبر فى حياة البلاد ورقيها ، وهذا سبب التطاحن والتنازع الذين نعرفهما بلادنا الآن بين اصحاب اللغة العربية ومناصريها وانصار التعريب ودعاته من جهة وبين اصحاب التمسك باللغة الاجنبية فرنسية كانت او اسبانية من جهة اخرى . فكل فريق متشبث بالطريقة التي تكون فيها وكل فريق متمسك بالاسلوب الذي تربى عليه ، وبين هذين الموقفين المتعارضين تتعطل المصلحة العامة او تتعثر على الاقل ولو انا فكرنا جديا فى الموضوع وتدبرنا مليا فى هذه المعركة وتجردنا عن العواطف والنزوات والاغراض والنزعات لسهل علينا الاتفاق على خطة تقضي بان تاخذ من كل فريق احسن ما عنده وانسبه لروح العصر وانفعه للمواطنين ونترك كل ما ليس فيه منفعة لاحد . اما التعصب والجدال العقيم فلن يؤديا الا الى الخراب وضياع مصلحة المواطنين . ويجب ان لايعزب عن اذهاننا ما يترتب عن هذا الاختلاف من مصائب اجتماعية كتشتيت شمل الوحدة الوطنية وتصدع الكيان الوطني وانهيار التفكير الاجتماعي الموحد وتضعضع النظام العائلي وتعثر النمو الاجتماعي وتبعثر الجهود وقيام وحدات فكرية متباينة وانظمة اجتماعية متعارضة واعتماد كل فريق على المساعدة الاجنبية لتقوية صفوفه والقضاء على خصومه؛ اما فى اليوم الذي يحصل فيه الاتفاق على لغة وطنية موحدة فان جميع الصعوبات ستتبدد لان توحيد اللغة سيؤدي الى توحيد التفكير الذي سيؤول الى اتفاق المشاعر والميول وليس الخطر كله فى وجود لهجات متباينة وتعابير متفارقة يتميز بعضها عن بعض ولكن الخطر كل الخطر هو كل ما يتركه هذا التعدد وهذا التباين من تاثير فى نفوس المواطنين وميولهم ونفوذ الى ذهنيتهم التي تتحول بتحول اللهجات وتفترق بافتراق لغات التعبير .

اذن فنحن امام خطر اجتماعي محقق اذا ما لم نتدارك الموقف ونعمل على توحيد تعليمنا ونبذ اللهجات التي لم تستطع فرض وجودها بالكتابة والخط ونتمسك بلغتنا العربية المتينة التي لها فضل فى تطور مجتمعنا وازدهار حضارتنا التي كانت السبب فى ربط صلاتنا بالعالم اجمع اذ جعلتنا نتاثر ونؤثر وناخذ ونعطي ونمنع كبقية الشعوب الراقية المتحضرة .

ومن المعلوم ان دعوتنا للغة العربية لغة الدين والقرآن لاتعني نبذنا للغات الاجنبية الموجودة فى العالم من فرنسية واسبانية وانجليزية وروسية وصينية والمانية وغيرها بل اننا ندعو الى الاعتماد على لغتنا العربية فى التعليم اولا وفى الادارة ثانيا وفى المجتمع ثالثا حتى تتوحد المشاعر بتوحيد لغة التخاطب ولا يحدث وسط مجتمعنا انشقاق لغوي كالانشقاق الذي يهدد كندا وبلجيكا وبعض الاقطار الافريقية اليوم .

وبعد اعطاء اللغة العربية المكانة اللائقة بها وبنا كناطقين بها نعود الى تعلم لغة او لغات اجنبية حتى تتفتح مداركنا على علوم هذه اللغة ونستطيع الكرع من مناهل اخرى تفيدنا اولا ويستفيد من ورائها الوطن والمواطنون ثانيا .

والتعصب اللغوي لم يبق به عمل فى هذا العصر الذي فتح فيه باب الوجود على مصراعيه واصبح الاتصال بين الشعوب قائما يسيرا فى كل يوم بل فى كل لحظة .

ولا يعقل ان يرجع المغرب الذي ذاق مرارة الانعزال والانكماش فترة طويلة من حياته بسبب اقفاله حدوده عليه وبسبب الانزواء الذي اختاره لنفسه يوم رضي البقاء بمعزل عن التيارات التي تتصارع العالم — واقول — لا يعقل ان يرجع المغرب الى هذا الانعزال الذي ادى به الى الاحتلال والانحلال لذلك فالذي يليق بنا كشباب هو التمكن من لغتنا القومية اولا ودراسة لغة او لغتين اجنبيتين حتى نكون مرتبطين بالعالم منفعلين متجاوبين معه متاثرين به ومؤثرين فيه فنحصل بذلك على نتيجتين محمودتين اولاهما التماسك الاجتماعي والالتحام الوطني وثانيهما الارتباط العالمي والتواطؤ الدولي والتآزر الاممي .

ولقد شعر المغرب بهذه الحقيقة منذ فجر الاستقلال كما شعر بضرورة توحيد كل عمل يرمي الى احلال لغة الضاد المحل اللائق بها بين ابناء العروبة كلهم . ولعل هذا ما حدا بالمسؤولين الى دعوة ممثلي الاقطار العربية الى مؤتمر يختص بدراسة وسائل تطور اللغة العربية وتمكينها من الوسائل الكفيلة باسترداد مكانتها الاولى التي حظيت بها يوم كان العرب امة ناهضة وشعوبا متحضرة متقدمة .

ولعل هذا ما حدا بالمسؤولين فى المغرب الى تكوين معهد التعريب الذي انشيء سنة 1959 بالرباط والذي عهد اليه بالبحث فى الاسباب التي عرقلت نمو اللغة العربية اولا وايجاد الوسائل الكفيلة بتكييف هذه اللغة مع المعطيات الفنية والتقنية التي تسيطر على العالم الحديث ثانيا .

وقد عرف التعريب فى بلادنا خطوات محمودة كتعريب السنتين الاوليين فى التعليم الابتدائي كما انشئت كليات ومعاهد فى التعليم العالي يدرس بها الطلبة باللغة العربية . وقد تحول معهد التعريب الى مركز وطني اصبح يهيء القواميس التي تحتوي على كلمات تقنية ضرورية لوضع كتب علمية عربية ومعاجم ادارية وادوات للتعليم كالخرائط الجغرافية ولوائح دروس المحادثة والاشياء والافلام التربوية .

وقد احدث بجانب المركز الوطني للتعريب مكتب دائم للتعريب يبذل قصارى الجهود لتنسيق الاعمال الفردية التي تقوم بها كل دولة عربية وتوحيد الاعمال واعطائها الصفة النهائية فى اطار عربي محكم .

وانها ، وايم الحق ، لجهود مشكورة لا يمكن ان ينتهي هذا البحث دون ان يشكر القائمين بها والعاملين فى سبيل تحقيقها كما ينوه بجهود المسؤولين الذين ادركوا ان التعريب لا يمكن ان يتم الا اذا وضعت له سياسة رشيدة قارة تجتث الداء من جذوره وتستأصل جراثيم المرض حتى يتيسر لها ان تنتجع له احسن الدواء .

واذا كان كل من الاستاذين الجليلين عبد العزيز بنعبد الله واحمد الاخضر وبقية الاخوان المحيطين بهما العاملين معهما يستحقون اطيب الثناء واجمل الشكر فان لبقية المسؤولين الآخرين احقية فى هذا الشكر لانه لولا ايمان الدولة بهذه الحقيقة وسعيها فى سبيل تذليل الصعوبات لما تم اي شيء . ولكن هذه الاعمال كلها لن تثمر الا اذا استمرت المساعدة المادية والمعنوية للمركز الوطني للتعريب من طريق الدولة وتواصلت مساعدة الدول العربية للمكتب الدائم للتعريب الذي يتعين ان يصبح فوق النزاعات والمشاحنات بين الدول العربية حتى لا تضيع جهوده سدى .

وخلاصة القول فان اللغة العربية تلاقي عراقيل شديدة فى هذه الظروف وتجد فى سبيل تطورها صعوبات جمة لانها لا زالت تحاول ان تتكيف مع التطورات العلمية الحديثة والتقلبات الفنية التقنية التي عرفها العالم منذ اختراع الآلة والبخار والذرة ومنذ طرا على العلاقات الدولية هذا التطور العظيم الذي نشاهده الآن والذي يتجلى فى التداخل الموجود بين مختلف الشعوب والارتباط القائم بين مختلف القارات خصوصا بعد ان اقبلت الامم على تعلم لغات غير لغاتها لتستطيع ضمان ربط اتصالاتها باقطار اخرى . ولكن العلاقات الدولية رغم تطورها لا يمكن ان تطمس معالم القومية الخاصة بكل قطر وتقضي على ذاتية شعب من الشعوب . وما اللغة العربية الا احدى مقوماتنا الوطنية فى هذه البلاد المباركة . فهل يمكننا ان نتخلى عنها ونستغني عن خير ما تاتينا به ؟ وهل يليق بنا ان نتشبث بلغة اجنبية غريبة النطق والشكل بعيدة عن التمكن من روحنا وقوميتنا ؟ اننا شعب مغربي عربي مسلم تكون اللغة العربية احدى مقوماته الاساسية بل اننا نعتبر اللغة العربية كمال القومية المغربية .

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص

مع ابن الفارض في غزله

- ٢ -

للأستاذ: عبدالله الكامل الكناني

... الحقيقة ان ابن الفارض لم يكن يريد الافصاح عن آيات الهامه واحوال نفسه ، او بالاحرى لم يكن ليستطيع ـ بعبارة او باشارة ـ ان يمحو اوهام حدس الحس عند عامة الناس ؛ ذلك لان : « العبارة عن المواجد ـ كما يقول ابن خلدون ـ صعبة لفقدان الوضع لها »(*) » فلم يكن ثمة بد من ان يقوم الرمز عنده مقام التصريح ؛ فاختار للتعبير عن مواجده الرمز القائم على الوسائل الجمالية المعروفة . ولما كان الوضع مفقودا وليس هناك من لغة للتعبير عن الحب الالاهي ، فلا بأس من أن يقتبس لغته من لغات الحب المعروفة ، ويحيلها الفاظا وجدانية روحية ، بعد ان ينزع عنها معانيها الحسية عن طريق « المجاز » و « تحويل الوضع اللغوي » و « الاشارة »

كذلك اصطنع ابن الفارض هذه الطريقة للتعبير عن مواجده واوجد لغة للحب الالاهي ، هي ـ ان شئت ـ أحاديث عشق وصبابة وغرام ، وهي ـ ان شئت ـ اناشيد وجد وشوق وهيام في تمجيد الذات العلية والحقيقة الالاهية .

ومن هذا الازدواج الذي اصطنعه الرجل وسيطر على تعبيره نشأ ذلك الغموض الهائل الذي تصادفه في مجازه واشاراته ، غموض ربما كان هذا الازدواج التعبيري من اسبابه ، ولم يكن سببه الوحيد دائما . اذ ربما كان ذلك الغموض مقصودا لذاته ومتعمدا من قبل ابن الفارض تعمدا ... اذ الغموض بعد هذا وذاك من ضرورات التعبير الرمزي على كل حال :

فقد يعمد ابن الفارض الى الغموض تصيدا لمعنى دقيق كان يقول :

يقولون لي : صفها ، فانت بوصفها
خبير ، اجل ؛ عندي باوصافها علم
صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا
ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

او سعيا وراء البديع :

يا لائمي في حب من من اجله
قد جد بي وجدي وعز عزائي
هلا نهاك نهاك عن لوم امرىء
لم يلف غير منعم بشقاء
لو تدر فيم عذلتني لعذرتني
خفض عليك ، وخلني وبلائي

وقد يختار اوزانه وقوافيه من نوع خاص صعب راقص ، ليشغلنا باوزانها وقوافيها الصعبة الراقصة عما تحتها من اشارات ورموز :

عجبا في الحرب ادعى باسلا
ولها مستبسلا في الحب كي
هل سمعتم او رايتم اسدا
صاده لحظ مهاة او ظبي
سهم شهم القوم اشوى وشوى
سهم الحاظكم احشائي شي
اوعدوني او عدوني وامطلوا
حكم دين الحب : دين الحب لي

هذه طريقة ابن الفارض في غالب رمزه ، يمزج في اشاراته ومجازاته بين حبين مزجا يجعلنا في حيرة من امرنا فلا نعرف ، أهو يتحدث عن الحقيقة أم يجسم الخيال .

(*) مقدمة ابن خلدون ص 467 ـ 475

بيـن الحقيقـة والخيـال :

يعرف ابن خلـدون في مقدمته المتصوفة بأنهـم « أهل غيبة عن الحس » . وما من شك عندنا في ان ابن الفارض راس من رؤوس المتصوفين فهو الآخر صاحب « غيبة عن الحس » وهو في غيبته هذه يتحـدث الينـا رامزا عما يسمع وما يرى كحقائق سمعتها اذناه ، ورأتها عيناه ، ووعاها قلبه ، واشربتها روحه ، رائيا في تلـك الحقائق سعادة ابدية ، فيفتن بتلك السعادة ويشغـل عنها بها . . . ثم يفيق من سكرته وشهوده على عالـم الحس والواقع فيختلط عليه عالم الحس بعالم ما وراء الحس الذي كان فيه . . . ثم ينفث من شعره ابياتـا عبقرية مسحورة هي تراتيل سعادته وشهوده وتسابيح عالم حقيقته هو لا عالم حقيقتنا نحن .

ومع ذلك فاننا نجد في ابياته روح شاعر دقيق ، وذوق انسـان يحاول ان يقرب الينا في صور شعريـة رائعة ما يشاهد وما يرى ، فيسمـو بخيالنا الى عالـم حقيقته سموا يخدم الادب والفن خدمة رفيعة بالصور الرائعة التي يوفق اليها والتعابير الشعرية التي تجـود بها قريحته ، ذلك لان ابن الفارض كما يقول الدكتـور زكي مبارك ـ رحمه الله ـ : « اوتي القدرة على الجمع بين حقيقة المشاهدة وخيال الصورة المحسوسـة » .

وهكذا تتزاحم صور الشاعر حول عالميـن عالـم الحس وعالم الروح ويمضي في غزله محاولا التوفيـق بين مفارقات هذين العالمين المتقاربين والمتباعديـن في آن واحـد .

حـب وخمـر :

كان صاحبنا يتحدث عن احوال نفسه ومواجـده في غزل رقيق قريب من غزل العذريين وفي وصف دقيق الخمرة كأحسن ما وصفت الخمرة منذ عهد ابي نواس؛ وهو في هذا وذاك مثال الشاعر الرامز الى مواجد عشقه للذات العليـة .

ان الغزل العذري ، ووصف الخمرة هما سبيلان آخران من سبل الرمز عند ابن الفارض ، حتى انـه ليمكن لقائل ان يقول : ان ديوان الرجل ينقسم قسمين متميزين : احدهما في الغزل والثاني في الخمر يمزج بينهما في قصائد من ديوانه او ابيات من قصائده ؛ الامر الذي يسمح لنا ان نقرر ان ديوان الشاعر كلـه غـزل متصوف يقوم على رمزين : رمز غزلي ، ورمز خمري .

ولعل هذا ما نفهمه من مطالع قصائد الشاعر المختلفـة حين يمزج بين الحب والخمر في غزل رائع يؤكد لنا انه لا هذا ولا ذاك يريد :

سقتني حميا الحب راحـة مقلتـي
وكاسي محيا من عن الحسن جلـت

وواضح من هذا القلب اللفظي الـذي اصطنعـه الشاعر بين لفظتي حميا ومحيا ومن الاضافة الى الاسم الموصول في قوله . . **محيا من** عـن الحسن جلت ، ثم اختيار كلمتي حميا ومحيا اسمين مقصورين لاخفـاء حركة الاعراب عليهما الموضحة للمعنى المقصـود . . . اقول واضح من هذا كله ان الشاعر لا يريد الحديث عن حب ولا عن خمر ، وانما يريد ان يرمز ويشير الى معاينة في التصوف : فيستعمل تلك الوسائل المختلفـة لينشر على تركيب البيت كله سحابة غمـوض عجيب مثيـر ، غموض يخف ويقوى في سائر هذه « التائية الكبرى »

وان الغموض والرمز ليخفان في قصائد اخرى له ، حتى لنظننا أمام أحد الشعراء المتيمين العاديين لـولا انهـا تنسب اليـه :

قلبـي يحـدثنـي بانـك متلفـي
روحي فـداك عرفت ام لم تعـرف

ولكن الذي لمس روح الشاعر في ديوانه لا يخفـى عليه قصده بحال من الاحوال :

ادر ذكـرى مـن اهوى ولو بمـلام
فان احاديـث الحبيـب مـدامـي

على ان اصرار الرجل على ذكر المدامة في غير ما قصيدة من قصائده جعله موضع تهمة بانه ذاق الكاس المحرمة خمرة صرفا فكانت كاسه الاولى سبيلـه الـى الكاس الثانية **روحية صرفا . . .**

غير اننا نسمح لانفسنا هذه المرة ان ندافـع عن الرجل بأبيات من « خمريته » تمنعنا من ان نعتقد ـ مع بعض المستشرقين المعجبين بها ـ ان ابن الفارض كـان المتابع الحق لابي نواس في وصف الخمرة واحتسائها . .

يقول ابن الفارض :

شربنـا على ذكـر الحبيب مدامـة
سكـرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

فواضح من قوله هذا ان خمرته قديمـة وانهـا رمـز لا حقيقـة .

وتتدفق الابيات بعد ذلك واصفة هذه الخمرة القديمة بانه لا اثم على اهل الحي في شربها ، وانما الاثم الحق في مجانبتها :

فان ذكرت في الحي اصبح اهله
نشاوى ولا عار عليهم ولا اثم

ثم تتدافع معاني حسن هذه الخمرة في ذهن الشاعر تدافعا ، فاذا هو يصفها لنا وصفا دقيقا لايبقى لنا معه شك في ان خمرة الشاعر جمال الحقيقة الالاهية، حتى ان الفاظها ومعانيها واشاراتها لتكشف عن نفسها بنفسها ، مدللة على ان الشاعر هاهنا قد اتخذ الرمز سبيلا له في كل شيء : في التعبير وفي التفكير وفي الاشارات ... ولو كان المجال يسمح لنا بتأمل روعة معاني هذه القصيدة ودقة اوصافها وتدفق الخيال فيها وخصب مادتها لما تاخرنا في عرضها كلها على القارىء الكريم :

وقالوا : شربت الاثم ، كلا ، وانما
شربت التي في تركها عندي الاثم
هنيئا لاهل الدير كم سكروا بها
وما شربوا منها ولكنهم هموا
وعندي منها نشوة ، قبل نشأتي
معي ابدا تبقى وان بلي المعظم

واكتفي هاهنا مع القارىء بترديد هذا الابيات المتناهية في الصفاء والجودة ونفاد المعاني . واترك له ان يتأمل وحده هذا التصور العلوي الجديد الرائع للكون والخلود الروحي الذي تعالى عن كل زمان فلا قبل فيه ولا بعد وانما هو كينونة واستمرار وهناء :

فما سكنت والهم يوما بموضع
كذلك لم يسكن مع النغم الغم
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة
ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم

وذوو الحساسية الموسيقية من اهل الفن والمواجد اقدر منا – فيما ارى – على تذوق هذين البيتين .

ان شفافية هذه القصيدة تجاوزت حدود البلاد العربية الاقليمية الى آفاق دولية وانسانية فاعجبت بها طائفة من المستشرقين وعدوها من اهم آثار ابن الفارض ومن روائع الشاعر العربي على الاطلاق ...

الغزل الفارضي في الادب العربي :

ذلك ابن الفارض شاعرا من شعراء المواجد النفسية ، جعل ديوانه انشودة النفس الانسانية المؤمنة ، ونجوى العاشقين في دنيا الغزل والحب ... فنالت قصائده – على قلتها – شهرة وذيوعا في اوساط عامة الشعب في عصره ، ولم تعدم هذه الشهرة ولا ذلك الذيوع الشعبي في عصرنا الحاضر ، واستطاعت ان تجد لها متابعين ومقلدين من شعراء الحب والخمرة حسيين وروحيين كاذبين او صادقين ؛ فكان من ذلك كله مدرسة ظهرت في عصور ما بعد ابن الفارض تابعت طريقته على ضعف ، ودعيت بمدرسة شعراء المدائح النبوية في الادب العربي (*)

ولم يكلف شاعرنا نفسه عناء شرح الغامض من شعره ولا تحليل الرموز او فك الاشارات والكنايات التي كانت تتردد في شعره وانما ترك لنا قصائده يفهمها من يشاء كيف يشاء ... وهكذا كثر المعلقون على قصائده ، والمفسرون لها والمدافعون عنها ، والمنتقدون لها الذين يهاجمونها برفق او بعنف بحق او بغير حق . كذلك نشأ ما نستطيع تسميته « بأدب ابن الفارض » مؤلفات ضخمة في التصوف وآداب التصوف واشعارا تاثرت بصاحبنا فيما ملأ به شعره من الفاظ الحب والجمال ..

كانت اشعار الرجل بحق رمزا صريحا الى احوال نفسية معينة او تعبيرا عن شوق شديد الى الاماكن المقدسة فكان الشعراء الآخرون المتابعون له يجدون فيه الرائد الاول لشعراء الشوق الالاهي ، وكان ديوانه معرضا للالفاظ الموحية بمعاني القدسية والطهر والمحبة والشوق الى لقاء الاحباب . ان الالفاظ والكلمات التي تتردد في ديوان ابن الفارض تحمل شحنة عاطفية دافئة جليلة تسري في نفوس سامعيها وقلوبهم .. وحتى عقولهم احيانا .. فتشيع فيهم معاني سامية وتنقلهم الى جو فكري وروحي مفعم بالقدسية والجلال .

(*) الاستاذ المرحوم الدكتور زكي مبارك كتاب بعنوان « المدائح النبوية في الادب العربي » . وقد كان هذا الكتاب قسما من رسالته عن « التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق » التي اعتمدناها في هذا البحث . وكان من راي لجنة الدكتوراه فصل ذلك القسم عن الرسالة. هذا وقد تاثر شعراء المدائح النبوية – منذ البوصيري حتى احمد شوقي – بابن الفارض في ابتداءاتهم الغزلية عندما يريدون مدح الجناب النبوي عليه الصلاة والسلام

كان غزل ابن الفارض كله تصوفا يسمو بالمعاني الحسية التي تقع له الى معان قدسية ، ينكب عليها من روحه ونفسه وفكره مسحة جمالية تكسبها رواء وجده وجلالا لايكاد ينتهي .

ومن هنا كنت تجد عنده المعنى وقد سبق اليه الشعراء قبله ، في ثوب متصوف جديد يكاد لجماله – يوهمك – انه لشاعر عاطفي حسي لولا تلك النفحة الروحية الداخلية التي تشيع في البيت الواحد من ابيات قصائده ، وفي جميع قصائده .

كذلك امتاز غزل ابن الفارض باتكائه على معاني الاقدمين واصطناع طريقتهم في غزله المتصوف اذا هم نزلوا على طريقة العذريين او نسبوا على طريقة المقلدين او وصفوا – عوضا عن ذلك كله – الخمرة ، فعل المجددين من المحدثين : بهذا نعلل وجود الحوار في غزل ابن الفارض المتصوف ، فهو يأتي به في نفس طويل ، ويأخذ فيه بتؤدة وتأن ووعي على طريقة ابن ابي ربيعة في قصصه الغزلي وحواره المثير :

لست انسى بالثنايا قولها :
كل من في الحي اسرى في يدي
قلت : روحي ؛ ان ترى بسطك في
قبضها ، عشت ؛ فرأيي ان تري
اي تعذيب سوى البعد لنا
منك عذب ، حبذا ما بعد أي
ما رأت مثلك عيني حسنا
وكمثلي بك صبا لم تري

ويطول الحوار وكأنه ابن ابي ربيعة يلهو ويعبث ، باثا اشواقه وهواه لمن يحب من بنات بني امية في اراضي الحجاز ، ولكنه ابن الفارض قد اصطنع هذه المرة روح ابن ابي ربيعة واسلوبه كما اصطنع في قصيدته (الخمرية) روح ابي نواس واسلوبه وكما اصطنع – في هذه الابيات – نفس ابي الطيب المتنبي الذي كان ابن الفارض – على حد زعم الدكتور شوقي ضيف – يعتبره من المتصوفين (*) :

غرامي اقم ، صبري انصرم ، دمعي انسجم
عدوي احتكم ، دهري انتقم ، حاسدي اشمت
ويا جلدي بعد النقا ، لست مسعدي
ويا كبدي عز اللقا ، فتفتتي
ولما ابت الا جماحا ، ودارها انتزا
حا ، وضن الدهر منها بأوبة
تيقنت ان لا دار من بعد طيبة
تطيب وان لا عز بعد عزة
سلام على تلك المعاهد من فتى
على حفظ عهد العامرية ما فتي

بل نجده يكلف في يائيته المشهورة باصطناع صيغة التصغير كفعل أبي الطيب ، فيبثها في سائر اجزاء القصيدة حتى انه ليصغر في البيت الواحد مرتين ، وحتى لنستطيع ان نعد التصغير ظاهرة عامة متفشية في سائر شعره :

يا اهيل الود انى تنكرو
ني كهلا ، بعد عرفاني فتي

وفي هذه الامثلة من اتكاء ابن الفارض على معاني العذريين وغير العذريين من شعراء الغزل في الادب العربي ، واصطناعه لطريقتهم نجد عنده المبالغة في استعمال انواع البيان والمحسنات البديعية من مقابلات وطباق وجناس ، حتى ليعد من اوائل المسرفين في ذلك ولقد اشرنا في غير هذا المكان الى ان تكلفه البديع كان من لوازم طريقته في الرمز الى معانيه الوجدانية ليؤمن بذلك ميزة اخرى من ميزات غزله المتصوف وهي الغموض .

وامتاز غزل ابن الفارض بذيوع نغمة الحنين والشوق الى الاماكن المقدسة التي عاش فيها قسما مهما من حياته بل عاش حياته كلها مشتاقا اليها . وعن هذه النغمة الوجدانية المتواترة انبثقت ميزتان أخريان هما التكرار معاني والفاظا والعذوبة روحا وموضوعا . ذلك كله وغيره معه ظاهر فيما يلي من ابيات :

يا ساكني البطحاء هل من عودة
احيا بها يا ساكني البطحاء
ان ينقضي صبري ، فليس بمنقض
وجدي القديم بكم ولا برحائي
ولئن جفا الوسمي ماحل تربكم
فمدامعي تربي على الانواء
واحسرتي ضاع الزمان ولم افز
منكم اهيل مودتي بلقاء
ومتى يؤمل راحة من عمره
يومان يوم قلى ويوم لقاء
وحياتكم يا اهل مكة وهي لي
قسم ، لقد كلفت بكم احشائي

---

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 232 الدكتور شوقي ضيف .

حبيكم في الناس اضحى مذهبي
وهواكم ديني ، وعقد ولائي
يا لائمي في حب من من اجله
قد جد بي وجدي وعز عزائي
هلا نهاك نهاك عن لوم امريء
لم يلف غير منعم بشقاء
لو تدر فيم عذلتني لعذرتني
خفض عليك وخلني وبلائي

في هذا القسم المختار من همزية الشاعر نجد اهم ميزات غزل ابن الفارض وفنه ، وقد بلغ فيهما الذروة اذ تم له التوفيق في البديع المبثوث في ثنايا الابيات ، فلا نكاد نحس بوجوده لغلبة الصدق العاطفي على روح النص ، هذا الصدق الذي جعل الابيات تفيض منها الحرارة والدفء ، وتشيع فيها الرقة والعذوبة ، كما تم له فيها التوفيق في تكرار بعض كلمات ، وفي تصغير اخرى ، وبدت له الى جانب هذا كله ميزتان اخريان هما ظاهرتان بينتان في غزله : اولاهما : قسمه هذه المرة بحياة اهل مكة ومن عادته في غير هذه القصيدة أن يقسم بحق طيب رضى الحبيب وبحرمة الوصل والود العتيق ، وثانيهما : اهماله للنحو في قوله : ان ينقضي صبري وكان عليه ان يقول : ان ينقض صبري ... وقوله : حبيكم وكان حقه ان يقول : حبي لكم وقوله : لو تدر وكان عليه ان يقول : لو تدري ... وهي ظاهرة اخرى في شعر الرجل متفشية قد نتولاها بالتعليل فيما يلي من قول .

عناصر الابداع والجدة في غزل ابن الفارض :

لقد توفرت لابن الفارض عناصر هامة من الابداع والتجديد ، ذلك ان مجرد افكار المتصوفين وتعابيرهم كانت الى ما قبل ايام ابن الفارض — زمان المتنبي — تحتذي محاولة من الشعراء للاتيان في شعرهم بشيء جديد (*) اما صاحبنا فلم يكن مقلدا للمتصوفين وانما كان في حد ذاته شاعرا متصوفا وقف حياته على التصوف وقول الشعر غزلا فيه ... ومن هنا كان ابن الفارض يؤمن برسالة الحب في التصوف فوهب حياته وشعره كله لها و « التعبير عن التجربة الشخصية والايمان برسالة ما في الحياة ، من اقوى الدعامات الدافعة الى التجديد » كما يقول احد الادباء المعاصرين (*)

واذا فالعنصر الاول من عناصر الجدة والابداع عند ابن الفارض هو الالتزام مادة وموضوعا : فاما مادة موضوعه ، فكانت غزلا صرفا او غزلا وخمرا صرفا لايكاد عنهما يحيد ؛ واما الموضوع فكان حب الذات العلية والشوق اليها والحنين الى الاماكن المقدسة ، فجاء ديوانه على اختلاف اوزان قصائده وقوافيه انشودة في الحب الازلي وملحمة في الحب الالاهي ، بل انا لنجد احدى قصائده التي التزم فيها وزنا واحدا وقافية واحدة قد بلغت ما يقرب من نصف ديوانه وهي قصيدته « التائية الكبرى » البالغة سبعمائة بيت وتزيد (*) .

وهناك عنصر آخر هام من عناصر الابداع والجدة عند ابن الفارض اسهبنا في الحديث عنه في غير هذا المكان ولا بد لنا من الاشارة اليه ها هنا مرة اخرى كعنصر من عناصر الابداع والجدة عند الشاعر هو عنصر الرمز الذي ابتدعه ابن الفارض واجاد فيه ، مما يسمح لنا ان نقرر ان شاعرنا كان شاعرا رامزا كاحسن ماعرف الشعر الرمزي مذهبا وطريقة في التعبير عن الاحوال النفسية والتجارب الذاتية . والمتتبع للرمز عند ابن الفارض يجده غير مخالف فيه للشعراء الغربيين الرامزين الا في نجاح شعره الرمزي وذيوعه بين طبقات المثقفين والشعبيين على السواء وسريانه في حلقاتهم اناشيد تغنى واشعارا تلحن .

ويمكننا كذلك ان نلاحظ ميل ابن الفارض الى الخروج عن قواعد اللغة النحوية والصرفية طلبا للرمز وللبديع وما يلحقهما من عذوبة حينا وغموض حينا آخر وموسيقى احيانا اخرى ؛ هذه الملاحظة تجعله قريبا جدا من الشعراء الرامزين الذين دعوا الى حرية البيت الواحد (*) في القصيدة والتحلل من بعض قواعد اللغة ؛ وان نظرة عابرة على الديوان تريبنا ان شاعرنا قد مد المقصور وقصر الممدود ، ومنع المصروف وصرف الممنوع بكثرة الى آخر ما عنده من تجاوز لقواعد اللغة وحدودها مما يتيح لنا ان نحكم على ابن الفارض بانه كان شاعرا رامزا بما في كلمة الرمز من معنى ومفهوم ... ولو زحزح ابن الفارض عن عصره قليلا الى ما قبل مائتي عام

---

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 330 شوقي ضيف .
* محمود رزق سليم ، العدد السابع والعشرون من سلسلة نوابغ الفكر العربي .
* هذه القصيدة موجودة في ديوانه بين الصفحتين 24 و 73 علما بان مجموع صفحات الديوان لم تجاوز 128 صفحة .
* الموسوعة الفرنسية الكبرى ص 752 الجزء 30 .

لوجد من شعراء العرب فى الشرق وفى الغرب (الاندلس) خير المتابعين لمذهبه فى الرمز الذي مثله غزله المتصوف خير تمثيل .

لقد غلب هذان العنصران - عنصر الرمز والالتزام - على شعر ابن الفارض ، ولقد ظهرت فى شعره عناصر أخرى عرضنا لها فى امكنة متفرقة من هذا الحديث ولم نحب ان نعيد الكلام عليها هاهنا مرة اخرى لانها لاتعدو ان تكون متصلة من قريب او بعيد بهذين العنصرين الهامين من عناصر الابداع عند الرجل من جهة ، ولا تشكل وحدها عنصرا بارزا او عاما فى شعره من جهة اخرى ، وانما تظهر فى هذه القصيدة لتختفي فى تلك وتبدو فى هذا البيت لم لاتبين فى ذاك . . هذه العناصر يمكن ان نسميها أو تعتبرها عناصر جانبية فى شعر ابن الفارض وهي على قدر كبير من الاهمية حتى لتصلح ان تكون موضوعا مستقلا لا يتصل بغزل ابن الفارض كبير اتصال ويكون البحث فيه من الجدة والطرافة بمكان ؛ نذكر من هذه العناصر ما تمكن دعوته بالموسيقى الداخلية الوجدانية المنبعثة من قصائد الشاعر والتصوير الدقيق الذي يجمع بين « حقيقة المشاهدة وخيال الصورة المحسوسة » (*) والصدق العاطفي والفني الذي يكسب صنعته وبيانه وبديعه مسحة من رواء الطبع وعذوبة الاسلوب واخيرا قوة الروح والعاطفة التي ترتفع بغزله المتصوف الى مستوى الملاحم الحماسية الخالدة . . .

ذلك ابن الفارض شاعرا متصوفا ذاتيا ، عاش حياته يستوحي من الحب أناشيد روحية صافية ، ويخلد مواجده واحوال نفسه أشعارا غزلية رائعة هي كما رأينا تراث ادبي رمزي قائم بذاته فيه فائدة وروعة وجدة وابداع ، يمكن أن يدرس من وجهة النظر الادبية الاسلامية الصرف دراسة موضوعية عميقة تكشف عن مدى ما فيه من طرافة واصالة وفن وبيان .

سلا : عبد الله الكامل الكتاني

(*) التصوف الاسلامي فى الادب والاخلاق - ص 290 .

العقاد
أديب العرب الكبير

للأستاذ مصطفى الغربي

أن من رواد النهضة العربية الحديثة الذي كان لقلمه الاثر العميق فى تنمية ثروتها الادبية القيمة ، ومن كان له الحظ الاوفر فى تشييد صرحها المتين والاشادة بمعالمها السنية ، والمدى البعيد فى العمل المتواصل على انتشارها فى مصر والعالم العربي ، والذي ارتقى بكفاحه وجهوده الخاصة اسمى مكان بين رجالها المبرزين فقيد العلم والادب كاتب العرب الكبير عباس محمود العقاد اشهر الافذاذ فى ادبنا المعاصر ، والعصامي الاوحد فيه الذي استطاع ان يكون نفسه ، وان ينازل فى ميدان الادب العالي ، طليعة الموكب ذوي الشهادات العليا خريجي واساتذة الجامعات الكبرى ، وان ينافسهم – باستحقاق – فى تعزيز الحركة التجديدية وتقوية مواقفها واعلاء شأنها وتثبيت مركزها بانتاجه القيم وآثاره الثمينة التي ساهمت اعظم مساهمة فى اغناء اللغة العربية بألوان حية جيدة من القول .

اجل ، لقد تفتحت ذهنية العملاق الجبار وهو لازال فى طوره الدراسي الثانوي وعقده الثاني من عمره مما أذهله عن المدرسة وزهده فى اتمام دراساته الثانوية والعليا ، ونزل به الى ساحة النضال الادبي فى فتوته الكاملة « سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، تلمع عيناه حزما واعتزاما ، ويقتلع خطاه فى مسيره اقتلاعا » كما وصفه تيمور – يصحبه فى كل ذلك استعداد خارق للعادة ، ونفس طموحة مقدامة ، وهمة لا تعرف السأم ولا التراخي فى معاشرة « الكتاب » ومصاحبته بشغف غريب وملازمة الحياة فى جوه الممتع كصديق حميم وفي يهديه التليد والطريف من غير من ولا اذى ، لايفهم للراحة وقتا ولا للسعادة معنى ، ولا للزمان قيمة بدونه ، وادرك بقريحته الوقادة ان « الكتاب » أقوى سلاح يستخدم لمحاربة امية الفكر ، واداة صالحة فعالة تستعمل للقضاء على نزعات الجمود ، ونزغات الجحود ، فاتخذ لتحقيق غاياته منه برنامجا دقيقا يستغرق جل ساعات يومه لا يحيد عنها وقتا ، ولا يلتقي فيها باحد يتبع نظاما مضبوطا للاطلاع على أحدث ما تخرجه دور النشر فى الغرب لاعاظم الكتاب العالميين فضلا عن الانكباب المجهد للاستكشاف عن مآثر التراث العربي القديم وذخائر الامم السالفة ، زيادة على ما خصصه لغمر انهر الصحف اليومية والاسبوعية والشهرية برصيد جم من الانتاج المتنوع ، الطريف الفكرة ، القوي النزعة : آداب ، تاريخ ، اجتماع ، فلسفة ، سياسة ، وفى مرحلته الاولى كان يعقد جلسات دراسية مع صديقه المازني تتناول شخصيات وكتبا ونشرات ، فانتجت لهما سنة 1920 كتاب « الديوان » اول كتاب نسب لهما ، وبعده استقل فى التاليف ، فجمع مختارات شتى مما جاد بها قلمه ، ونشرت في الصحف او القيت فى الاذاعة ، واصدرها تحت الاسماء التالية : « خلاصة اليومية » « الشذور » « الفصول » « المطالعات » « المراجعات » « ساعات بين الكتب » « يسألونك » « بين الكتب والناس » « على الاثير » فكان لهذا الانتاج الخصب المتنوع المواد أثر كبير محسوس فى تطوير المقالة العربية الى مسلك جدي مثمر يتسم بتركيز ودسامة فكرية دفعها لمستوى آداب اللغات الحية ، والاطلاع على هذه المجموعة يعطي صورة جلية عن شخصية هذا النابغة الفذ من بين اقرانه فى مقدرته الفائقة لهضم الآراء المتباينة والتفهم للمذاهب الفلسفية ، ولم يوقف قلمه

على هذا النوع من الدراسات ، بل تعدت الى بحوث مفيدة عن رجالات الادب العربي من القديم والحديث واثرهم وهي — حقا — آية في التحليل يغلب عليها جانب الجدية ووضوح المحجة وبلاغة الاداء « كالشيخ الرئيس ابن سينا » « الفارابي » « ابن رشد » « حياة ابن الرومي من شعره » « حياة ابي نواس من شعره » « رجعة الى ابي العلاء » « شاعر الغزل عمر بن ابي ربيعة » « جميل بثينة » « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » ثم عزز هذه الدراسات القيمة بدراسات شخصيات اخر كان لها مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، فاصدر اولا منها « العبقريات » التي حققت بعرضها الفني الرائع صورا جذابة مثيرة ومثيرة لانبل العواطف واسماها تخللتها ملكة شعرية سامية وتجسمتها رسوم شيقة بقلمه الساحر عليها طابع الابتكار ودقة البحث مع سمو الاختيار وطرافة الموضوع كحياة « محمد » (ص) « الصديق ابو بكر » « عمر ابن الخطاب » « الامام علي » « ذو النورين عثمان بن عفان » « الصديقة بنت الصديق » « القائد خالد بن الوليد » « عمر بن العاص » « معاوية في الميزان » « ابو الشهداء حسين بن علي » « داعي السماء بلال الحبشي » « فاطمة الزهراء والفاطميون » وغيرها من البحوث الاسلامية كـ « الفلسفة القرآنية » « الديمقراطية في الاسلام » « اثر العرب في الحضارة الاوربية » عدا تآليف عديدة عن تراجم شرقية وغربية اتصفت بالتحليل القوي ، والسبك المحكم ، والوصف المبين ، والتصوير المنسجم كحياة « ابو الانبياء ابراهيم » « عبقرية المسيح » « روح عظيم المهاتما غاندي » « زعيم الثورة سعد زغلول » « القائد الاعظم محمد علي جناح » « سن ياتسن ابو الصين » « فرنسيس باكون » « شكسبير » « تذكار جوته » « برنادشو » « هتلر في الميزان » « فلاسفة الحكم في العصر الحديث » وغيرها ، ولم يقنع العقاد في حياته الادبية الخصبة بالنثر فحسب ، بل تعاطى الشعر وانغمر في مسالكه باندفاع غريب بالنسبة اليه ، ولم يستطع الاحجام عنه كما احجم في مبدا عهده عن الولوع بالقصة لما صدته عن ذلك « سارة » وحكمت بانه ليس من الرواد الموفقين في فنها ، فبعد ما اختار مجموعة منه « عرائس وشياطين » جهم عليه بدواوين تسعة لم يبال ما يحمل غالبها من ضعف واسفاف ، ولم يعبأ بما احدثته من رد فعل سيء لدى المعجبين بأثره . نعم ، هناك قطع رائعة اخذت مكانها من الخلود لما اتسمت به من وجدان عميق خالص وتأمل نير توجد خلال سطور مملوءة بكمية من النظم وهي كما يلي : « يقظة الصباح » « وهج الظهيرة » « اشباح الاصيل » « اشجان الليل » « وحي الاربعين » « هدية الكروان » « عابر سبيل » « اعاصير مغرب » « بعد الاعاصير » ولكن كيف يسمح لمثل عقل العقاد المثقل بكثير من العرفان ان يحلق ويسمو في اجواء عالم الشعر دون ان يهيم ويضل بل ويسقط ! فضعف شاعريته في الحقيقة لن يؤثر وجوده في نبوغه الكامل الفذ ولا يمس بنقص شخصيته الادبية الكبرى المتعددة الجوانب المبتدعة ما دام « الكمال المطلق » ليس من صفات البشر ، فقضيته الشعرية تكاد تشبه قضية ابن حزم الظاهري (454 هـ — 1063 م) صاحب التآليف الجمة الفوائد ، والغزارة العلمية في مؤلفه الظريف الطريف « طوق الحمامة » فلقد تخللت صفحاته قطعا من شعره زادت اسفافا على اسفاف ازاء نثر مرسل فني حلو يعرض فيه حالاته النفسية وعواطفه الوجدانية عن ذكريات عزيزة عاشها لحظات من ايام صباه في قصر ابيه .

هذا وللعقاد مدرسة ادبية كبرى في العالم العربي تنهج اثره الادبي وتتأثر بطرقه التحليلية ، وكان في طليعتها في سابق عهدها سيد قطب النقادة الشهير تلميذه الاول ومحمد خليفة التونسي الذي اصدر عنه كتاب تحت عنوان « فصول من النقد عند العقاد » ، وقد اشتهر فقيدنا بشجاعة كبرى في ابداء الراي والنقد الجريح الجريء مما يخالف نظرته ، ومواجهة الخصم بصراحة موسومة بقساوة وصرامة لاتتفق مع هذا الوسع في المعرفة ، ولا تليق بشخص كبير مثله غير مراع في حملاته النقدية المكانة الادبية مثلما فعل بشوقي وصادق الرافعي ، ولا مبال بالمقام السياسي كحالته في التهجم العنيف على اسماعيل صدقي ، مما كون حوله جماعة من المناوئين من بين رجالات الاقلام والحكم يسعون دائما في تحطيمه وانتهاز الفرص للتضييق عليه، الامر الذي ادى به الى الدخول للسجن وقضاء تسعة شهور بتهمة المس لذات « فؤاد » في قولته المشهورة « الدستور فوق الجميع » وحتى السجن لم يسلم من ملاحظاته اللاذعة ولا نجا من انتقاداته المرة ، فلم يخرج منه الا وهو متابط لكتاب يعبر ادق تعبير في وصف تحليلي بارع لعالم عاش فيه تلك المدة « عالم السدود والقيود » كما اشتهر في الاوساط الثقافية بالارستقراطية الفكرية التي اكرهت ارباب الصحف على تقديم انتاجه في النشر على انتاج الغير وارضائه بالاجور خشية

مقاطعته ، وكما عاب عليه النقاد ايضا طريقته التحليلية في تعدد اوجه النظر وكثرة الادلاء بالبراهين التي قد تزاحم قارئه في تفكيره ، وتضغط عليه بقوة عرضها وحسن سبكها ومتانة صيغتها حتى لا يفلت من التأثر بآرائه والاقتناع بصحتها ، ولقد صرفته اعماله الدراسية المحددة المضبوطة عن كثير من المهام كالرحلة لخارج بلاده لتعزيز هذه الدراسات وتقويتها بما قد يعثر عليه في البلدان الاجنبية كما يفعل امثاله من الرجال الكبار ؛ بل ولم يستطع تغيير اوضاع بيته ما يقرب من الاربعين سنة خوف ان يقع خلل في نظامه الصارم ، وعارفوه من المجاورين له يضبطون ساعتهم مدة خروجه من البيت - يوميا - صباح مساء لرياضة المشي والاستجمام ، وكان يعيش وحده عيشة لا تبعد عن الترف مما تدر عليه الصحافة ودور النشر ، ويقوم بشؤونه طاه وخادم ؛ وجميع غرف بيته تحتل جوانبها الكتب باللغات الثلاث العربية ، الانكليزية ، الفرنسية بصورة متناثرة وغير منتظمة قد ترى في وصف هذا البيت عرضا شيقا في كتيبه « بيتي » من مجموعة « اقرا » كما صرفته هذه الاعمال ايضا المتكاثرة يوما عن يوم عن الزواج - رغم حبه الشديد للاطفال كي لا يقع منه تفريط في الحقوق الزوجية ، وقد سئل لماذا لم يتزوج ؟ فاجاب : لانني مشغول .. وكاي انسان مشغول لم اتزوج ! على خلاف ما اذاع عليه خصومه ، عدم زواجه مبني على عداوة المراة مع ان كتابه الذي الفه في اول عهده تحت عنوان « هذه الشجرة » الذي حلل فيه طبيعة المراة المباينة لطبيعة الرجل ينافي تمام المنافاة ما الصقوه به من تهم ضد الجنس الآخر ، ومن اقواله المتواترة : « انا لا اعادي المراة ولقد كنت من مرشحيها لعضوية مجمع اللغة العربية ، وفي اول كتاب لي طلبت بان يطبع اسم قاسم امين محرر المراة على كل منديل حريمي ؛ وان تحرر المراة الحقيقي هو ان لا تكون رجلا : والمراة تتفوق على الرجل في اسمى فضائل الانسان : التضحية ! » وقد رصد للاتصال بالناس يوما معينا كل اسبوع يعقد فيه ندوة ادبية في بيته تضم اصدقاءه الاقربين وبعض مريديه يتجاذب فيها اطراف الحديث معهم فيما جد من بحوث في العالم الادبي وما طرا على الميدان السياسي من جديد ، ولم يجف مداد قلم فقيدنا العظيم ما يزيد على نصف قرن ومؤلفاته تتعدى سني حياته علاوة عن ركام كبير من الصفحات نشرت له ولم تضم كمجموعات في كتب ، حقا انه يعد بهذا الانتاج الضخم المفيد من اندر الافذاذ في طبقته المعاصرة الذين اثروا المكتبة العربية الحديثة باعمق البحوث التوجيهية واجدى المواضيع الثقافية ، واغنوها بما نقلوه لها من احدث الاراء العلمية ومختلف النظريات الادبية ، كما ان آخر ما صدر له كتاب « رجال عرفتهم » وآخر مؤلف له لم يطبع « حياة الامام الغزالي » كتب فيه 120 صفحة حينما كانت يده لا زالت قوية وكان يامل ان ينتهي منه حتى يدفعه الى المطبعة اول شهر ، ومن كلماته التي كان يرددها على مريديه « سبب نجاحي هو العمل المتواصل والثقة بالنفس ، وعدم الاكتراث بآراء الناس ، وتحديد الغاية وعدم الانصراف عنها ! » كما كان يقول : « كلما ازددنا معرفة » ازددت شعورا بما اجهل .. ان عالم المجهول الآن كما اراه اوسع مائة مرة منذ كنت اعتقد عندما بدات حياتي .. اني اقرا لاني لابد ان استوضح شيئا جديدا .

وبعد فقد ذهب العقاد وغاب قلمه السيال الفياض الى الابد عن الخوض في ميادين الادب والعلم والسياسة. وحقا كان ذهابه المحتوم خسارة ثقافية كبرى لا يمكن ان تعوض وكارثة عظمى لادبنا العربي الحديث يجل في مصابها العزاء ويقل عنها الصبر لما ترك موته من فراغ كبير .. فانا لله وانا اليه راجعون .

واخيرا اختم هذا العرض المقتبس من حياة مترجمنا المفصلة في كتاب « رواد النهضة في العالم العربي » - الذي ارجو تخريجه واصداره في اقرب فرصة تسمح بها عوامل الزمان - بكلمتين في رثاء العقاد كتاييد وتاكيد للقارىء العزيز فيما حدثته به اولها لشيخ جماعة النقاد واستاذ الجيل للادب العربي القديم طه حسين : « لكن امثالك تموت اجسامهم لان الموت حق على الاحياء جميعا ولكن ذكرهم لايموت .. لانهم فرضوا انفسهم على الزمان وعلى الناس فرضا ! ! »

وثانيها لفيلسوف الادباء وثاني رجل - بعد جبران خليل جبران في ادب المهجر ميخائيل نعيمة : « قلم من اروع نهضتنا الادبية جف مداده بموت عباس محمود العقاد ولكن ينابيع الطاقات البيانية التي ساعد في تفجيرها ما جفت ولن تجف ، لقد اغنى العرب والعربية بآثاره وسيبقى اسمه من المع الاسماء في تلك الكوكبة المباركة التي حركت ما ركد في اعماقنا من الشوق الى الخلق والابداع فأعادت الثقة بانفسنا وبالاجيال الآتية بعدنا » .

الرباط : مصطفى الغربي

إسرائيل والعالم الثالث

للأستاذ : المهدي البرجالي

هل يمكن اعتبار اسرائيل دولة متقدمة ؟ والى اي حد يجوز السير مع هذا الاعتبار ؟ واذا كان هناك من حالة تقدم فهل تبيح لاسرائيل من الامكانيات ما يؤهلها للاضطلاع بدور الاسهام في حركة التنمية والتطور بالبلاد المتخلفة ؟ السياسة الاسرائيلية في هذا المضمار والنظريات التي تقوم عليها هذه السياسة ـ الاستنتاجات التي يمكن ان تؤدي اليها نظريات من هذا النوع ـ الجانب الدعائي والجانب الواقعي في حالة التوسع الاسرائيلي عبر اقطار العالم الثالث ـ الستراتيجية الاسرائيلية المتبعة وآفاق المستقبل بالنسبة للغرب .

« العالم الثالث » او افريقيا وآسيا في الدرجة الاولى ، ثم امريكا اللاتينية في الدرجة الثانية ، ثم منطقة البلقان وشبه الجزيرة الايبيرية وبعض القطاعات الاوربية المماثلة لذلك في الدرجة الثالثة ، علاوة على « الاقيانوسية » واكثرية الجزر والارخبيلات الارضية ، هذا العالم الضخم المترامي الزاخر بالسكان والموارد والطاقات والحافل بمظاهر التخلف العقلي والاجتماعي والاقتصادي على اختلاف الصور والاشكال ، يوجد باستمرار محط اهتمام السياسة العالمية وموضوع الاطماع والمنافسات والاحتكارات الدولية من كل نوع ، ويوجد ـ في نفس الوقت ـ وهذه احدى المفارقات المثيرة التي يتميز بها العصر الحاضر ـ محط اعانات الدول المتقدمة ، بل ومجال تصدقها واحسانها في بعض الحالات ، وقد غدا هذا الموضوع ، موضوع الاعانات في شكل قروض او ادوات او خبراء او غير ذلك ، يحتل فصلا مهما من فصول العلاقات الدولية داخل نطاق العالم الثالث ، ويملأ حيزا له اهميته في تاريخ التطورات العالمية منذ نهاية الحرب ، وقد صادف قيام اسرائيل سنة 1948 حالة تطور العلاقات الدولية على هذا النحو ، وانقسام العالم الى كتلة من الاقطار تقدم المساعدة المالية والتقنية والتنظيمية على كل المستويات ، وكتلة اخرى من الاقطار ، تتلقى هذه المساعدات ، وتعتمدها بالفعل في تنفيذ شتى المشاريع الانمائية التي تخطط لها في ميادين الاقتصاد والتربية والعمران وغيرها ، فماذا كان سبيل الدولة الصهيونية بالنسبة لهذه الافاق العالمية ، المتفتحة ؟ هل كان عليها ان تسلك طريق الدول المتخلفة ، فتوغل في التماس المساعدة الخارجية ، والاستزادة من ذلك ، بقدر ما تحدوها الرغبة في التطور والنماء ؟ ام انه كان في وسعها ان تظهر بمظهر الدولة المتقدمة في ميداني الوفر والابتكار ، فتشيح وجهها اذن عن امكانيات الاستعانة ببرامج المساعدة الدولية ، وتقبل على العكس من ذلك ـ مهمة تقديم الاعانة لغيرها ، ولو كانت هذه الاعانة محدودة وضئيلة الحجم ، ضآلة حجم الدولة المفروضة على منطقة الشرق الاوسط ، ومحدودية الموارد المتوافرة لها في كل الميادين ؟ . الواقع ان الحالة الماثلة في اسرائيل لا تتفق دائما في جميع تفاصيلها مع مجمل الاحوال العادية التي يمكن ملاحظتها ، والاستنتاج منها عند جميع الدول الاخرى في العالم ، ما كان منها متقدما او متخلفا . والسبب الرئيسي في ذلك هو غرابة اصل هذه الدولة ، وما يحيط بظروف نشوئها ووجودها الحالي وآفاقها المستقبلية من شذوذ والتواء وغموض ، ومن ثم كانت دراسة احوالها دراسة موضوعية وعلمية ، فبالاحرى الاستنتاج من هذه الدراسة ، ما قد يؤدي الى تحديد فكرة صحيحة ، او اطلاق حكم سياسي يتعلق بصبغة اسرائيل الاقتصادية والاجتماعية ، وطابعها العام سواء ايعكس مظهر تخلف او تقدم او ما بين ذلك ، كان كل هذا غير متيسر تماما بنفس الدرجة التي يتيسر بها بالنسبة لدراسة احوال كثير من الدول الاخرى في العالم ، فانعدام التماسك الاجتماعي في اسرائيل الناشيء عن عدم طبيعية تكوينها الديموغرافي ، وتناقض المصالح والاتجاهات الاجتماعية في حظيرتها بسبب ذلك ، ثم المصادر الطبيعية لاقتصادها ، وما يبدو من تباين بين متانة هذه المصادر وبين المطامح التي تحدو الصهيونيين الى تكوين دولة تستوعب نحو سبعة ملايين من السكان ، هذا مع اعتبار ان الافاق التي يعتمدها هؤلاء تحقيق مثل هذه المطامح هي آفاق غامضة واحتمالية فقط ، تقوم على امكانيات الغزو

والتوسع الاقليمي من جهة ، وعلى المؤثرات السيكولوجية داخل الجماعات اليهودية في العالم من جهة اخرى ، ويدخل في حسابها ايضا باب المناورة في العالم الدولي واستدرار المنافع من هنا وهناك ، سواء باسم التعويض عن الاضطهاد النازي ، او احباط الروح اللاسامية في اوربا ، او الحفاظ على حالة التوازن في الشرق الاوسط ، او المساعدة على توسيع العمران والازدهار بالمنطقة ، او مقاومة النشاط الشيوعي والتيار العربي الاسلامي في ربوعها ، او مجرد الحق في الاستفادة من برامج مكافحة التخلف في العالم او غير هذا وذاك من الاسباب والتعلات ، ان دراسة موضوعية لحقيقة الاقتصاد الاسرائيلي ومعطياته وآفاقه تبدو — على هذا الاساس — غير مؤدية الى استنتاجات صحيحة وثابتة دائما من شأنها ان تساعد على تقييم الطاقة الاقتصادية الاسرائيلية ، والتأكد مما اذا كانت هذه الطاقة تعكس حالة تقدم حقيقي ، او تشير على النقيض من ذلك الى وجود حالة تخلف جزئي او اشد من ذلك ، على اننا اذا ما تخلينا عن اتباع منهج دراسي من هذا القبيل ، واجتزأنا باستقاء الراي من المصادر الدولية المعنية بمثل هذه القضايا فاننا سنجد ان اسرائيل قد اصبحت في اعتبار البعض من هذه المصادر — خارجة — بالفعل — من نطاق التخلف العام ، اي انه يمكن ان تكون قد اصبحت دولة صناعيا واقتصاديا واجتماعيا مثل ما هو عليه الامر عادة بالنسبة الى كافة الدول المعتبرة متقدمة في العالم ، ذلك على الاقل هو الرأي الذي جهرت به منذ شهور عديدة بعض الاوساط الامريكية التي لم تتردد في التأكيد بأن اسرائيل قد خرجت عمليا من اطار الدول المتخلفة وان حاجتها للمساعدة التي تقدم للمتخلفين قد اصبحت بالتالي اقل شدة والحاحا ، فهل يعني ذلك حقا ان النظام الصهيوني في فلسطين قد غدا في امكانه الاستغناء عن برامج المساعدة الدولية وانه قد اضحى على درجة من الاكتفاء الذاتي ماليا وفنيا وانتاجيا وانه قد تجاوز ذلك كله الى درجة القدرة على مساعدة الغير في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية وتقديم ما هو موجود لديه من وفر مالي وفائض انتاجي وخبرة فنية الى البعض من الاقطار المتخلفة في هذه القارات ؟ لكن قبل تحديد اي جواب عن مثل هذه الاستفهامات على المرء ان يتساءل :

اولا : ما هي مقاييس التقدم او التخلف ؟ وهل التقدم لا يتحقق في جميع الحالات الا على اساس وجود وفر وغنى ؟ اي انه ينافي الفقر مطلقا ، ام انه حالة يمكن فصلها عن اعتبار للفقر او للغنى ، وتقييمها حسب مقاييس ومعطيات غير ذلك ؟ اننا اذا ما وضعنا مفهوم التقدم باعتبار عام وشامل ، اي الاعتبار الذي يستوعب التقدم من جميع مناحيه وابعاده مادية وانسانية ، فانه لا مناص للمرء حينئذ من مزجه بمفهوم الغنى المادي بل واشتراط ذلك لتحقيق حالة التقدم من هذا المستوى

اما اذا جزئ مفهوم التقدم ، وفصل الى عناصره الاولى ، باعتبار كل عنصر على حدة (التقدم الفكري مثلا ، او التقدم الاجتماعي او التقدم الاقتصادي ، او غير ذلك) ، اذ حلل مفهوم التقدم العام على هذا النحو ، فانه من الجائز حينئذ فصله احيانا عن مفهوم الغنى والثراء ، اي ان الغنى المادي لا يشترط كحتمية اساسية في تحقيق بعض حالات تتأثر هي نفسها — في بعض الحالات — بدرجة التقدم الاقتصادي وما يقتضيه من عوامل التنمية في مختلف الميادين ، وفي امكان القائمين على اسرائيل ان يتحدثوا عن عدد من المظاهر الموجودة داخل الدولة الصهيونية ، والتي يعتبرونها دليل تقدم انساني ومادي حققوه خلال السنوات الست عشرة الماضية ، والواقع ان هذا التقدم — اذا ما نظرنا اليه من نواحيه الثقافية والاجتماعية ، فاننا نجد ان الكثير من مظاهره ليست من صنع النظام الاسرائيلي بالذات ، وانما هي من صنع المجتمعات الاوربية والامريكية التي ينحدر منها المهاجرون المكونون للمجتمع الاسرائيلي الحاضر ، وبالنظر للتفاوت الموجود بين هؤلاء المهاجرين ، وبقية العناصر المهاجرة الاخرى ، القادمة من اقطار آسيا وافريقيا ، فان سياسة التناسق الفكري والتوازن الاجتماعي داخل الدولة الصهيونية تثير قدرا كبيرا من المشاكل والصعوبات التي يعد بعضها من اعوص ما يلاقيه النظام الاسرائيلي في فلسطين ، وعلى كل فبصرف النظر عن هذا الجانب ، الفكري والاجتماعي ، وعما يتميز به من مظاهر تقدمية او سلبية في اسرائيل من : الجانب الآخر المالي والاقتصادي هو الذي من شأنه ان يثير الالتفات اكثر في هذا المجال . فكما تقدم — وكما يلم به الكثيرون بما في ذلك المسيرون الصهيونيون انفسهم — فان البناء الاقتصادي الاسرائيلي — فيما اذا استمر على وضعه العادي فان من المستبعد حالتئذ ان يؤدي بطبيعته وعناصر تركيبه الاساسية الى حالة تقدم عميق الجذور ، وراسخ الدعائم بالكيفية التي تفترض في وجود تقدم من هذا المستوى ، اما العلة في ذلك فهي معروفة متداولة ، وهي ان القسط الاوفر من تمويل الدولة الصهيونية الاساسي يأتي عن طريق مصادر ووجوه غير مضمونة دائما كالهبات والعطاءات والتعويضات المستخلصة بمختلف الوسائل التي — وان كان البعض منها تلجأ اليه بعض الدول المتخلفة ، الا ان البعض الآخر تكاد تنفرد به اسرائيل على نحو يجوز اعتباره شاذا في مفهوم الكيانات الدولية الطبيعية ، ويمكن في هذا المضمار تكوين بعض الملاحظات ، من بينها :

1) ان الذي تثبته الارقام والاحصائيات الصادرة في الولايات المتحدة نفسها ان ما تكلفه اسرائيل لدافع الضرائب الامريكي هو من اعلى النسب التي تكلفها اية دولة اخرى متخلفة في العالم ، بل اذا استثنينا الاعانات التي تدفع لبعض الاقطار الاسيوية الاوربية برسم المعونة العسكرية فاننا سنجد حينئذ ان اسرائيل تكاد تشكل العبء الاكثر ثقلا على بنود

ميزانية الاعانة الامريكية ، وتوجه ملايين الدولارات التي تقدم للاسرائيليين في هذا المضمار سواء لتمويل المشروعات المدنية او العسكرية ، ومع ذلك ، فان حالات العجز في ميزانيات المدفوعات الاسرائيلية كثيرا ما تسجل ارقاما هائلة تقاس بملايين الدولارات ، كما تعترف بذلك الاوساط المالية الرسمية في اسرائيل (✶) .

2) علاوة على ما يستخلصه الاسرائيليون من امكانيات المساعدة الدولية فانهم يعتمدون كذلك كثيرا على الهبات والاعطيات التي من الصعب تقدير حجمها واهميتها تقديرا دقيقا ومضبوطا ، الا انها — كما يؤكد الخبراء ذلك — تملا حيزا هاما وضروريا في تنفيذ المخططات التوسعية الاقتصادية التي تحاول منها اسرائيل اقامة اقتصاد محلي منتج وثابت ، وقد انشط المسيرون الاسرائيليون منذ بعيد ، في استغلال الجماعات اليهودية في امريكا واوربا وغيرهما ، وذهبوا واسعا في استنزاف الصلة الدينية التي تجمعهم بمثل هؤلاء اليهود ، وذلك ما كان سببا في الخلاف الذي نشب منذ سنين بين رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق ، وبين رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي حول موضوع المساعدة التي يتحتم ان يقدمها الاجانب الى اسرائيل ، وهل تتحقق هذه المساعدة بمجرد تقديم العون المادي الى الدولة الصهيونية عن كثب ،او يشترط فيها — اكثر من ذلك — وجوب التخلي عن الاوطان الاصلية ، والانتقال بالنفس والممتلكات الى الارض الموعودة ، ومن المعروف ان رئيس الوزراء الاسرائيلية السابق كان من اشد انصار هذا الحل الاخير ، وما زال متشددا فيه الى درجة اثارت التذمر منه عند عدد من كبار اليهود خارج اسرائيل وهم الذين لم يستطيعوا ان يتقبلوا فكرة الاستقرار باسرائيل نهائيا والتعرض لما يحف ذلك من مغامرات اقتصادية واجتماعية غير مأمونة العواقب ، وقد اسفرت المجاذبات التي ما برحت تشتد حول هذا الموضوع عن موقف سياسي دولي اتخذته الولايات المتحدة في هذا المضمار خلال الشهر الماضي وذلك حينما اعلنت في بلاغ رسمي عن رأيها في انه ليس ثمة من رابط سياسي او قانوني بين اليهود الامريكيين وبين اسرائيل ، اي من نوع العلاقة التي ترغب اسرائيل في ان تكون قائمة بينها وبين هؤلاء اليهود على اعتبار ان هناك صلات انسانية واسعة تربط بينهم وبين الدولة الصهيونية وتخولها حق الاستفادة من امكانياتهم الانسانية والمادية ، بل وتمثيلهم والتحدث باسمهم عند الاقتضاء ، ومما لا ريب فيه ان هذا الموقف الامريكي المتخذ على الصعيد الرسمي سوف لا يغير من الحقيقة القائمة شيئا ، وهي ان الاقتصاد الاسرائيلي سيبقى متوقفا في كثير من مصادره وموارده على الاستغلالات المستخلصة من الاوساط اليهودية في امريكا وعلى ما يدره ذلك على الخزينة الاسرائيلية التي تعد ذلك من اغرب الخزينات الدولية (نسبة الى الدولة) واقلها تمثلا للاوضاع المالية العادية .

3) من بين الموارد المهمة التي ما فتئت اسرائيل تعتمدها منذ سنوات نشوئها الاولى تقريبا : مورد التعويضات الالمانية هذه التعويضات التي يستغلها اليهود في كثير من جوانب احتياجاتهم كدولة بما في ذلك حتى تكوين الموظفين الذين يشكلون بعض اطارات هذه الدولة والذين يبلغون عدة آلاف ، وقد قدر الحجم الاجمالي لما كان يستخلصه اليهود من المانيا برسم التعويضات بمليارين ونصف من الماركات الالمانية الغربية ، ولا تختص المانيا بتحمل مثل هذه الاعباء المالية التي تكلفها اياها اسرائيل وان كانت تتحمل القسط الاوفر في هذا الميدان ، ميدان التعويضات ، فان النمسا هي كذلك قد اصبح عليها منذ عدة سنوات ان تدفع مبالغ هامة على هذا الاساس يقدرها البعض باكثر من مليار شلن نمساوي ، واذا ما اضيف الى ذلك جملة الاستغلالات العقارية والارضية الراجعة الى اللاجئين العرب والتي تتصرف فيها دولة الصهاينة بكيفية غير مشروعة ، وبالتالي فان ملكية هذه الاستغلالات غير قارة ، ومن الممكن ان يقع الفصل فيها من الناحية القانونية الدولية حتى قبل ان تصفي مشكلة الوجود السياسي الاسرائيلي من الاساس اذا اضفنا هذا الى ذلك ، تبين للمرء كيف ان الاقتصاد الاسرائيلي يقوم على اساس غير مألوف في عالم الاقتصاديات الدولية (نسبة الى الدولة) العادية ، وان آفاق تطوره وامكانياته تبدو نتيجة لذلك على درجة من الالتواء والغموض ، وقد دأبت اسرائيل منذ انشئت على استنزاف موارد برنامج المساعدة الدولي المعروف بالنقطة الرابعة ، وبعد افول ذلك البرنامج سارت ابعد من ذلك في استنزاف القسط الاوفر من الموازنات الدولية المخصصة لانهاض اقطار الشرق الاوسط وآسيا الصغرى ، وقد قدر بعض المعنيين بمثل هذه القضايا ان كل اسرائيلي يحصل فعلا على 700 ضعف ما ينال العربي من مساعدات دولية وذلك بالنسبة لمجموع الاقطار العربية المتاخمة لاسرائيل ، وعلى الرغم من كل ذلك ، فلا يبدو ان هناك استقرار ماليا واقتصاديا حقيقيا ، بدات ملامحه ترتسم في افق الدولة الصهيونية ، ومن بين الظواهر البسيطة التي لها بعض الدلالة في ذلك ان اكثرية ما تحصل عليه اسرائيل من موارد لتسلحها الخاص انما تحصل عليه عن طريق الاعانة المباشرة التي تستدرها بواسطة الادعاء المستمر بان التوازن في الشرق الاوسط معرض في اي وقت للاختلال وان من الضروري الحفاظ عليه من طرف الدول الكبرى، هذا بينما

✶) يلاحظ ان العجز في ميزان الاداءات الذي سجله الخبراء سنة 1961 لا يزال يتزايد باطراد وخصوصا والمرحلة الحاضرة من التعويضات الالمانية بلغت نهايتها .

يعتمد الكثير من البلدان العربية في تسلحه على الطريقة التجارية العادية ، اي على اساس التبادل عن طريق المقايضة او الدفع النقدي العاجل او المؤجل ، ومما يزيد في ارباك الاقتصاد الصهيوني والابقاء على شذوذه ان السوق الاقليمية الطبيعية له – وهي السوق العربية – توجد مقفلة في وجهه تماما ، ومنذ ان اقرت الجامعة العربية مبدا مقاطعة الصهيونية تجاريا (الجلسة المنعقدة في 3 دجنبر 1945) ، اي قبل قيام اسرائيل نفسها بنحو سنتين ونصف – منذ اقرت الجامعة مبدا هذه المقاطعة بذل الصهيونيون كثيرا من المساعي الملتوية من اجل احباط المقاطعة عن طريق التهريب وغيره ، الا ان كل هذه المساعي لم تستنفذ اهدافها الاساسية نظرا للمراقبة الصارمة التي تقوم بها مكاتب المقاطعة ونظرا ايضا لاستحالة عمليات الترانسيت عبر الاقطار العربية ، وذلك بالنسبة لاي مورد اقتصادي اسرائيلي ، وصعوبة تصريف البضائع المهربة الى الاقطار العربية بسبب ما يفرضه هذا التهريب من كلف مالية اضافية تضخم من اثمان البضائع المهربة وتجعل الاقبال عليها – ولو انها متنكرة تحت شعار دولة اخرى غير اسرائيل – امرا غير ممكن في اكثرية الحالات ، وعلى الرغم من طرق اسرائيل لابواب السوق الاوربية المشتركة فان ذلك ليس من شأنه ان يغنيها عن السوق العربية ، وذلك اولا لان المنتجات الزراعية الاسرائيلية محدودة جدا لا تخول الاسرائيليين فوائد كافية ، وثانيا لان المصنوعات الاسرائيلية لا تزال تجتاز مراحل النشوء والتطور الاولى ، ولهذا فهي لا تستطيع – بسبب فداحة تكاليفها وانخفاض مستوى جودتها – لا تستطيع ان تفتح افاقا مهمة داخل اطار سوق الدول الست ، وحتى اذا ما حظيت اسرائيل بامتيازات واسبقيات خاصة فان ذلك لا يمكن مطلقا ان يخفف من تاثير المقاطعة الصارمة ، التي تطوقها من كل جانب على الصعيد الاقليمي الذي توجد مندمجة فيه اي على صعيد الشرق الاوسط .



يستطيع المرء ان يستنتج من مراجعة التقارير والبيانات التي يدلي بها الخبراء حول الاقتصاد الاسرائيلي ومن ملاحظة الافاق العامة سواء اقليمية او دولية التي ما برحت تحيط بنشوء هذا الاقتصاد ومراحل تطوره ، ومن الاعترافات الرسمية التي يصدرها المسيرون الاسرائيليون انفسهم بين الفينة والاخرى – ان الدولة الصهيونية – وان كان البعض يحشرها في ضمن الاقطار الاكثر تطورا – غير انه ليس ثمة امكانية ما للادعاء من جانب الصهيونيين انفسهم بان اسرائيل قد اصبحت ذات كفاية مالية واقتصادية حقيقية ، تمكنها من الخروج من نطاق المناطق الفقيرة وتؤهلها لاداء ادوار مجدية وحقيقية في مجال التطور الاقتصادي العالمي ، وذلك عن طريق تقديم الاعانة للدول المتخلفة ومساعدة هذه الدول على مكافحة الفقر والتخلف اللذين يجثمان عليها بكلكله ، وقد اكدت وزيرة خارجية اسرائيل ذاتها هذه الحقيقة البارزة في حديث لها مع بعض اليوميات الفرنسية اجرته خلال شهر مارس من العام المنصرم ، اكدت ذلك حين ذكرت ان اسرائيل تعتبر دولة فقيرة ومن بين الاقطار التي لا تزال آخذة سبيلها الى التطور ، اي انها بلد نام كجميع البلاد النامية ولو ان البلاد النامية تتفاوت في درجة تخلفها ونسبة حظها من النمو والتطور ، واذا كان هذا صحيحا – وقد اكدته مسيرة تعاقبت على منصة المسؤولية سواء في عهد الوزارة الاسرائيلية الحالية او السابقة – فلما ذا تحرص اسرائيل اذن على التظاهر بمظهر الدولة الثرية المتقدمة التي حققت حالة محترمة من الاكتفاء الذاتي في مختلف الميادين وصارت بسبب ذلك اكثر عناية بتطور الدول المتخلفة واهتماما بمصير التنمية والتقدم في ربوع العالم الثالث ؟ لقد لاحظت وزيرة خارجية اسرائيل نفسها – في ختام الرحلة التي قامت بها خلال السنة الماضية الى افريقيا – لاحظت وجود هذه الحالة من التناقض فذهبت تعلل ذلك بقولها « .. ان اقدام اسرائيل على اعانة الدول الافريقية قد يبدو غريبا حقا ، افلا توجد بلاد عديدة في العالم تعتبر اكثر اهلية من اسرائيل لتقديم المساعدة والمشورة للدول المتخلفة ، وذلك نتيجة لما لهذه البلاد الساعدة من وفرة في الممكنات وسعة في التطور ومقدرة في الانتاج الصناعي وغيرة، ولكن باعتبار ان اسرائيل نفسها دولة فقيرة ونامية فهي لهذا اقرب من غيرها للدول المتخلفة وناقصة التطور لانها تعرف كيف تقوم بمهام ضرورية في هذا السبيل ، فقد واجه الاسرائيليون مثل هذه الاحوال ، وكان عليهم دائما ان يحلوا نفس المشاكل الزراعية التي تعترض الان اكثرية الدول النامية، وما يصدق على الزراعة يصدق كذلك على ميدان التربية ، وبالاخص ما يتعلق من ذلك بقيام حركات الشبيبة .. » ولكن ما ذا يمكن ان تستفيده اسرائيل من اتباع سياسة تعاونية على هذا النحو ؟ تجيب على ذلك الوزيرة الاسرائيلية بما معناه : (ان اسرائيل تحس بتاثير كبير كلما ارتقى احد الاقطار الى درجة الاستقلال ، ولذلك فان الذي يعنيها اولا واخيرا هو مساعدة هذه الاقطار التي تخلصت بعد جهاد مرير من حالة التبعية والعبودية والاستغلال) .

وبالطبع فانه ليس من الضروري اطلاقا مناقشة مثل هذه الاقوال التي هي ذات محتوى دعائي لا غير ، كما انه ليس من الضروري كذلك البحث عن التاثير الذي يمكن ان تحدثه مدعيات من هذا النوع على الرأي العام والمسيرين في البلدان المتخلفة، اذ ان هذه البلدان لا تجد خارج نطاق المدعيات هذه من الشواهد والوقائع ما يستطيع ان يقنعها بتاكيدات على هذا النحو ، اي على اعتبار ان اسرائيل توجد في طليعة القوى الدولية المناوئة للنظام الاستعماري قديمه وجديده ، والمكرسة طاقاتها لاقصائه وتصفية امره على اساس

جدي وصحيح ، ومن دون ذلك فان الاسرائيليين انفسهم يدركون هذه الحقيقة لانها من الوضوح بدرجة كبيرة جدا ولهذا فانهم لا يذهبون كثيرا في التشديد على هذا الجانب ، جانب متاوأة الاستعمار وابراز ذلك اشد ما يكون الابراز في مجال تفسيرهم للعلاقة الموجودة بينهم وبين البلدان المتخلفة ، واتخاذه دائما كمبرر اساسي لوجود هذه العلاقة ، وما يحرصون ان تناله من نماء وازدهار ، وعوض ذلك فانهم يركزون موضوعاتهم الدعائية بهذا الصدد حول محور ايسر منالا واقل احراجا لهم ، وهو محور المصلحة المشتركة التي يجب ان تدعو الدول المتخلفة — من جهة — الى الاستفادة من الخبرة الاسرائيلية والتجارب الزراعية والتعميرية والاجتماعية التي مارسها الاسرائيليون في النقب ، وادت — كما يقولون — الى نتائج عملية مهمة ، كما يدعو هذه المصلحة ايضا الصهيونيين من جهة اخرى الى توسيع نطاق اختباراتهم في هذه الميادين واصطناع افاق جديدة للتعاون الدولي تحد من خطورة الحالة الناشئة عن استحكام المقاطعة العربية واستفحال اثار العزلة الاسرائيلية نتيجة لذلك ، واذا ما حاولنا استخلاص مجمل النقط التي تدور في محيط الاجهزة الدعائية الاسرائيلية حول الموضوع ، فنجد من بينها :

1) القول بان الدولة الصهيونية هي اكثر قابلية من بين جميع الدول الكبرى والمتقدمة في العالم ، على تفهم مشاكل الاقطار المتخلفة وذلك بحكم ما تتوفر للاسرائيليين من وجوه الخبرة التي تصلح للتطبيق في مثل هذه الاقطار ، بينما الحال ان الخبرة التي يمكن ان تقدمها الدول الكبرى في هذا المضمار قد لا تكون صالحة دائما للتطبيق في العالم الثالث باعتبار ان هذه الخبرة مستخلصة في بيئات اخرى غير البيئات المتخلفة ، وبالتالي فانها تتلاءم مع واقع المشاكل القائمة في الدول المتقدمة اكثر مما تتفق مع حالة المشاكل الموجودة في البلدان المتخلفة .

2) القول بان التجارب الاسرائيلية قد برهنت بالفعل على صلاحيتها وجدواها في مضمار محاربة التخلف والتوسع في مشاريع التنمية والتعمير والاسكان وتقديم الخدمات الصحية والاجتماعية عموما ، ويباهي الاسرائيليون خصوصا بالنتائج التي حصلوا عليها — بهذا الصدد — وذلك فيما يتعلق بمشاكل الارض والمحاصيل والمياه والمكننة الزراعية والاستنباتات كالقطن مثلا ، بل انهم قد يذهبون احيانا الى درجة القول بان خبراتهم في هذا الابواب هي خبرات فريدة من نوعها وتجاربهم هذه لا يستطيع ان يضاهيهم فيها احد باعتبار مالها من عملية وإنتاجية خارقـــة .

3) القول بان الفنيين الاسرائيليين هم اكثر استعدادا للعمل الجدي ، وتحمل المهام الشاقة من جميع الفنيين الآخرين الذين ينتمون لمختلف الدول الكبرى والاكثر تقدما ويعملون باسم بلدانهم الاصلية او تحت اشراف الامم المتحدة في اقطار العالم الثالث ، والميزة التي تنسبها اسرائيل لرعاياها الذين تبعثهم برسم الاعانة التقنية الى بعض الدول المتخلفة ، وخاصة في القارة الافريقية — هذه الميزة تتخلص في انهم جديون كما يجب ان يكون الجد ، عمليون بقدر ما يتطلبه تنفيذ اي عمل مهما كان جسيما فهم — كما تقول في معرض دعايتها الرسمية — ذوو استعداد قوي للتشمير عن السواعد ، وعدم الاكتفاء بتقديم الارشادات والنظريات المجردة بل تنفيذ كل ذلك بانفسهم لاعطاء المثال العملي وحسبما تردده الدعاية الرسمية الاسرائيلية فان مثل هذه المزايا لا توجد متوافرة دائما في التقنيين الذين ينتسبون الى الدول المتقدمة الاخرى ، اذ ان هؤلاء — عكس الخبراء الاسرائيليين — يجتزؤون بمجرد اسداء النصح وتخطيط السبل والوسائل ثم لا يشاركون في عمليات التنفيذ بادنى نصيب .



تعود الصهيونيون — منذ ان تمكنوا من انشاء النظام الحالي لهم في فلسطين — تعودوا على جانب الاقناع الدعائي اكثر من اللازم ، وذهبوا بعيدا في التهويل والمغالاة في ذلك الى درجة يمكن معها اعتبار ان الدعاية تكاد تشكل دعامة الاتصال بين اسرائيل وبقية اليهود في العالم ، وبين الدولة الصهيونية كذلك ، ومختلف قطاعات الراي العام العالمي سواء على مستوى الدول او المنظمات الدولية ، او الهيئات السياسية والثقافية والاجتماعية في العالم ، وموضوع الصلة بين اسرائيل ودول العالم الثالث وخاصة ، القارة الافريقية — يلعب فيه المنطق الدعائي الاسرائيلي دورا كبيرا جدا بحيث ان الاسرائيليين يكادون يركزون جهودهم في هذا الباب حول اقناع الملأ في افريقيا بان الدافع الاساسي لتعاون الدولة الصهيونية مع الافارقة يرجع في جوهره الى رغبتها في العمل على جلب النفع اليهم ، اكثر مما يعنيها هي بالذات استحصال الفائدة من ذلك ، هذا الى الميزات الباهرة التي تنسبها — كما راينا — الى الخبرة المتوفرة لها في ميدان التوسع الاقتصادي والاجتماعي وغيره ، والخصائص المهمة التي تقول انها تهيأ لخبرائها في مثل هذه الميادين الشاسعة ، على اننا اذا جارينا هذا المنطق وحملناه كل ما يمكن ان يحمل من مفاهيم يقتضيها التسلسل المنطقي لكان لنا من ذلك سبيل الى تكوين بعض الاستنتاجات التي لا بد للمرء ان يتقبلها اذا ما استطاع ان يسلم بما تستند اليه من مقدمات واستدلالات اي بما تردده الاجهزة الدعائية الصهيونية في المضمار ، ومن بين هذه الاستنتاجات :

1) ان اسرائيل بناء على ما تقتضيه استراتيجيتها التوسعية في افريقيا من توافر التجهيز والاطارات فان هذا يعني اذن انها يمكن ان تكون قد اصبحت مستغنية عن تلقي المعونة الاجنبية بحكم انها حققت حالة من الاكتفاء الذاتي جعلتها تصدر التقنين

والتجارب والخبرات الى مختلف افاق العالم الثالث ، بعد ان اصبح الفائض عندها في هذا المضمار اكثر مما تستوعبه حاجيات البلاد ومتطلباتها على الصعيد المحلي والحال ان الواقع الذي تعيشه اسرائيل يختلف عن ذلك كثيرا ولا يقصد بهذا مجرد احتياجها الدائم الى الموارد المالية والتجهيزية بل يقصد به – اهم من ذلك – وجود الخصاص ايضا في الاطارات التقنية والمصالح المسيرة والملاحظ ان هذا الخصاص لا يظهر في اسرائيل بالصورة التي يظهر بها في اية دولة اخرى من الدول التي تعاني من عواقب العوز والاحتياج في هذا المضمار ، فاسرائيل اذ تطلب الاعانات المادية والاسلحة والآلات فانها لا تستبيح بنفس الدرجة الاعلان عن حاجتها الشديدة للتقنيين والخبرات الزراعية والاجتماعية ، وذلك تاكيدا لادعائها بانها في قمة التقدم بهذا الصدد ، والواقع ان حاجة اسرائيل في مضمار التقنية والتقنيين والخبرات والمناهج لا يقل عن احتياجاتها في مختلف الميادين الاخرى ، ولذلك فانها تدأب – بنهم غير محدود – على طلب الفنيين والخبراء والبحث عنهم باي وجه ممكن ، ولكن في اوساط الجاليات اليهودية باروبا وامريكا الشمالية ، ان لها في هذا المضمار موردا هاما تعتمده كثيرا في انجاز مشروعاتها التوسعية الاقتصادية ولهذا فان حرصها على استقدام المهاجرين الاوربيين والامريكيين ليس له من حدود ، اما اليهود المنتسبون للاقطار المتخلفة فتستصلحهم كمورد لليد العاملة غير المختصة ، ولكن هل يكفي اسرائيل ما استوردته لحد الآن من فنيين اوربيين وامريكيين باسم الهجرة اليهودية ؟ ان المصادر الرسمية الاسرائيلية تعترف هي نفسها بذلك وتقر ايضا بان السلطات الاسرائيلية تعاني مشاكل جمة مع التقنيين العاملين في اسرائيل والذين لا يتقبلون دائما ان يعملوا في المناطق الصحراوية النائية بالنقب الجنوبي ، ومع ذلك فان اسرائيل تصدر الخبراء والتقنيين الى الدول المتخلفة بافريقيا وغيرها .

2) – حيث ان المناهج الاسرائيلية في ميادين الري والمكننة الزراعية والاسكان والتطور الاجتماعي هي على مستوى رفيع جدا واليق من جميع المناهج للتطبيق في الاقطار المتخلفة – فان من المنطقي اذن ان تختص المنظمات الدولية كالامم المتحدة مثلا الطريق فتكتفي – في نطاق اهتماماتها بمحاربة التخلف الزراعي والاجتماعي بالعالم – تكتفي في ذلك بدراسة الاساليب والطرق الاسرائيلية الفريدة وتوصي بتطبيقها في مختلف الدول التي تشبه حالة تطورها حالة التطور في اسرائيل او تتولى احسن من ذلك الاشراف بعض الشيء على اجراء هذا التطبيق وذلك بواسطة بعثات المساعدة الاممية المرسلة الى كثير من مناطق العالم المتخلف .

3) وحتى اذا لم تنجح الامم المتحدة في استغلال فاعلية الاساليب الاسرائيلية على هذا النحو الدولي المنظم فان الدول الافريقية المعنية بالامر اي الدول التي تتلقى المساعدات والخطط التقنية الاسرائيلية في موضوع التطوير الفلاحي والنمو الاجتماعي وتوجد مقتنعة بان هذه الاساليب هي الاليق باحوالها المادية والبشرية من اية اساليب اخرى تتلقاها في ميدان الزراعة والاسكان وما اليهما – من المعقول اذن ان تعني مثل هذه الدول باخضاع مجموع سياستها الزراعية لطبيعة الاسلوب الاسرائيلي واحتذاء سبيل التجارب الاسرائيلية على نطاق واسع ما دام المفروض انها ذات حد اقصى من الجدوى في هذا الميدان فذلك يمكن ان يكون افضل من تعديد الاساليب وتشعيب الخطط والتجارب ، الامر الذي يقود عادة الى كثير من التعقيدات غير المرغوب فيها ويخلق من الصاعب والمعضلات قدرا كبيرا جدا والملاحظ من دراسة اوضاع التطور في افريقيا وغيرها ان الاساليب الاسرائيلية في ميادين الزراعة والتوسع الاجتماعي – وان كانت تجد بعض مجالات التطبيق في اقطار عديدة من افريقيا السوداء ، فانها لا تقوم في هذه الاقطار كمثال اساسي يعتمد عليه في بناء الهيكل الزراعي والاجتماعي هنا او هناك ، وقد يامل الاسرائيليون ان يتوسع نشاطهم في خلال السنوات العشر القادمة عبر افريقيا فتجد اساليبهم وخططهم مجالها الى التسرب واكتساح طبيعة الحياة الافريقية بعد ذلك ، ولكن التسليم بهذه الفرضية يقتضي التسليم كذلك بان المجال الافريقي سيبقى مجالا بكرا امام الخطط الاسرائيلية في مثل هذه الميادين وان الافارقة يجوز ان يبقوا دائما محط التجارب الاجنبية في مضمار التخطيط البنياني لتقدم قارتهم ، اي ان الفكر الافريقي والتجربة الافريقية ربما يبقى نطاقهما منحصرا دائما اذن في تلقي التعليمات والتوجيهات الخارجية بما في ذلك التوجيه الصادر عن بلد كاسرائيل يقوم هو نفسه باستيراد الخبراء من الخارج في شكل مهاجرين مهربين من اقطارهم الاصلية ويعاني مآت المصاعب في استصلاح اراض شاسعة كصحراء النقب ، وفي تنظيمه الاجتماعي والصناعي واخيرا في اثبات كيانه الاقليمي والدولي ضد الانواء الهائلة التي تواجه هذا الكيان باستمرار ، ان النزوات العاطفية النابعة عن اعتبارات السياسة والقومية ليست هي التي تقودنا الى اطلاق القول هكذا بشكل قد يقال عنه انه (على عواهنه) ، فالواقع ان بلدا يواجه من المشاكل الكيانية والتنظيمية ما تواجهه اسرائيل لا يمكنه مطلقا من حيث النظر العقلي والحصيلة التجريبية – ان يتولى حل مشاكل ضخمة كمشاكل العالم الافريقي او حتى مجرد ان يسهم في حل هذه المشاكل ، اضف الى ذلك انه لاينتسب سواء من الناحية السياسية او الفكرية او المذهبية او غيرها الى هذه القارة وليس له بها ارتباط ضمن منظمة كمنظمة الوحدة الافريقية الاسيوية او كتلة شعوب « باندونغ » او مجموع دول الحياد او غير هذا او ذاك من التنظيمات الدولية الموجودة ، على انه بصرف النظر عن

الروابط الموضوعية التي تصل اسرائيل بافريقيا والتي هي ناشئة – كما يقول الاسرائيليون – عن غيرتهم على مصالح القارة وسعيهم الى المساهمة في تحسين المستويات الزراعية والاجتماعية في ربوعها – بصرف النظر عن ذلك فما هي القيمة الحقيقية لما تردده اسرائيل من تعليقات مستفيضة حول اهمية الاساليب التقنية والتنظيمية التي تزود بها الافريقيين ؟ توجد – بحق – معاهد في اسرائيل مفتوحة في وجه الطلبة الافريقيين او الاسيويين الذين آثروا ان يتلقوا معلومات وتدريبات في هذه البلاد فهناك مثلا في « حيفا » المركز الدولي للتطوير الجماعي ، كما يوجد في تل ابيب المعهد الافريقي الاسيوي التابع لـ «الهيستدروت» النقابة الاساسية في اسرائيل ، هذا الى معاهد اخرى ثانوية كمعهد « ناتانيا » وما في نوعه ، ومن جانب آخر فان الدولة الصهيونية تشرف على حملة من البعثات التابعة لها في بعض دول افريقيا السوداء ، وتنتشر هذه البعثات سواء في شرقي القارة او غربيها او جنوبها الغربي وتمارس مهام تدريبية في ميادين الصحة والفلاحة والشؤون البحرية وغير ذلك .

لكن هل تبرر حالة من هذا النوع من التعاون بين اسرائيل وبعض الاقطار الافريقية كل هذه الحملة الدعائية التي يثيرها الاسرائيليون حول مساعدتهم لافريقيا وان هذه المساعدة قد اصبحت ضرورية للقارة باعتبار ان غير ذلك من الاساليب والمناهج لا يصح تطبيقه على الاوضاع الزراعية والاجتماعية الافريقية لانه غريب عنها الا ما كان من الاسلوب الاسرائيلي فهو غير الغريب وهو الملائم والاكثر فاعلية وعائدة ؟ ان من الممكن للاسرائيليين ان يذكروا انهم قد استطاعوا ان يحققوا بعض الاتصال بافريقيا عن طريق بعض البعثات الطلابية وعدد من المنشآت التقنية ولكن ليس من المعقول ان يستغل ذلك على الصعيد الدعائي بالصورة التي يستغل بها بالفعل ، بيد ان هناك نقطة جديرة بالاعتبار وهي ان المتعود على اساليب الحرب السيكولوجية الاسرائيلية قد يرى فيما يبذل من مدعيات من جانب اسرائيل حيال افريقيا امرا عاديا ، فقد اثار الاسرائيليون – مثلا – قبل سنين موجة حول طريقة علمية فريدة قالوا ان احد علمائهم (الدكتور جرجي) قد توصل الى ابتداعها وتوشك ان تصبح ذات فاعلية واسعة النطاق في وقت قريب ، وتتعلق هذه الطريقة بموضوع مياه البحر التي اصبح من الممكن اعذابها اي جعلها عذبة بفضل الجهاز العلمي الجديد المنسوب للدكتور جرجي واستصلاحها بالتالي لاغراض التوسع الفلاحي على اوسع نطاق ممكن ، وقد استغلت الاجهزة الدعائية الاسرائيلية هذا الاعلان كثيرا فاطلقت في حينه تيسر الامال العراض حول هذا الجهاز الاسرائيلي الفريد وتؤكد – على اساس ذلك – ان مشكلة مياه السقي واستصلاح الاراضي في اسرائيل قد باتت وشيكة الحل وان مياه المتوسط قد غدت كفيلة – بعد اعذابها – بري جميع مناطق النقب وكافة القطاعات غير المروية من اسرائيل بل ان الدعائيين الاسرائيليين قد ذهبوا بعيدا في استغلال هذه المسالة من الناحية السياسية والدولية فاعلنوا ساعتها ان الولايات المتحدة نفسها قد اصبحت معنية جدا بطريقتهم العلمية هذه وتلح كثيرا في طلب المعلومات عنها وامكانية الاستفادة منها داخل القارة الامريكية نفسها وان الدول العربية ايضا وخاصة منها التي تعاني من مشاكل المياه والري – قد اخذ اهتمامها يتزايد هي الاخرى بطريقة الدكتور جرجي وان الباب مفتوح امام جميع هذه الدول للاتصال باسرائيل وامكانية الانتفاع بالوسيلة العلمية الجديدة عن طريق التعاون مع الدولة الصهيونية بهذا الصدد وبعد ان استنفدت هذه المدعيات كل اهدافها اسدل الستار بعد ذلك على القضية بكاملها وبقيت مشكلة المياه باسرائيل قائمة كما كانت دائما وعوض اعذاب مياه المتوسط بواسطة الجهاز الاسطوري للدكتور جرجي عمدت السلطات الاسرائيلية الى التطاول على مجمل الامكانيات المائية بالشام العربي ولا تزال تجد في التهامها لفائدة التحويل الاقتصادي والاجتماعي الذي يبتغيه ولو ان هذا التحويل يقوم على حساب شعوب المنطقة الشامية كلها ، وفي ذات الوقت اخذ المسؤولون الاسرائيليون يضعون كل اعتماداتهم على الولايات المتحدة لكي تزودهم بما لديها من خبرة واعداد حول موضوع مياه البحر وطريقة تجريد هذه المياه من ملوحتها الطبيعية .

وقد يتساءل المرء بعد ذلك عما يدفع اسرائيل الى كل هذا الحرص على بذل المعونة لدول العالم الثالث والتطوع بتقديم النصح والتوجيه المجاني الى عدد من الدول الافريقية وذلك في مضمار التنظيم الاقتصادي والاجتماعي الذي توجد هذه الدول بصدده ان نغمة الدفاع عن مصالح الدول النامية التي « ذاقت من قبل مرارة الاستعباد والتحكم » هذه النغمة التي تبرر بها الدعاية الاسرائيلية حالة التدخل الصهيوني في افريقيا – هي كما تقدم – لا يمكن ان تقنع احدا والقول – كذلك – بان الدافع هو الرغبة في توسيع المجال امام التجارب الاسرائيلية وسبر غور فاعليتها في اكثر من بيئة في العالم هو – بدوره – قول تعلوه مسحة من البزنطية البارزة وهو اقرب الى السفسطائية منه الى شيء آخر ويبرز بهذا الصدد التعليل الذي يتبادر الى الذهن من اول وهلة وهو ما يتعلق بحرص الدولة الصهيونية على مد شبكات استغلالها الاقتصادي عبر افريقيا واحكام حلقات هذا الاستغلال وتمتين فاعليته وذلك عن طريق تقديم الخطط وفتح المعاهد وانشاء الفروع المختلفة للشركات والمصارف الاسرائيلية ، والدعاية الاسرائيلية – من جهتها – تتحمس كثيرا لنفي مثل هذه الاحتمالات بل تذهب اكثر من ذلك الى رفض وجود اية اعتبارات مالية حقيقية في موضوع التعاون بين اسرائيل ودول العالم الثالث وخاصة الدول الافريقية وان الامر ينحصر فقط في مضمار التعاون التقني وتقديم الخبرة والنصح من جانب اسرائيل الى الافريقيين حول مقتضيات التطور والتنمية التي توجد في اساس برنامج مختلف الدول حديثة العهد

بالاستقلال وعلى الرغم مما هو موجود الان من ضآلة حجم المبادلات التجارية والقضايا المالية بين اسرائيل ودول القارة فان الذي يبدو واضحا من ملاحظة العقلية الاسرائيلية والظروف الاقليمية والدولية التي تحيط بالنظام الصهيوني ان الاغراض التجارية والمالية توجد في اساس القضايا الدافعة باسرائيل الى الجوس خلال افريقيا وعموم العالم الثالث وان كان المسؤولون الاسرائيليون يحرصون ــ بحق ــ على تفادي ابراز هذه الاهداف صراحة والاقتصار في كثير من الحالات الان على جانب المساعدة الفنية والتدريب المهني من موضوع التعاون بين اسرائيل والدول الافريقية جنوب الصحراء على ان الاسرائيليين وان كانوا في الوقت الحاضر يتسترون غالبا ــ بهذا الصدد ــ على اهدافهم التوسعية الاقتصادية فانهم لا يبدون نفس التستر على ما يحدوهم من اهداف في افريقيا تتصل بموضوع التوسع الثقافي والروحي وما بسبيل ذلك ، فحسب التقارير الصادرة من اسرائيل فان كثيرا من الطلبة الافارقة الذين يستدرجون الى هذه الدولة برسم التدرب والتكوين المهني يجدون انفسهم ملزمين (كما هو الشان في مثال مركز « نتانيا » مثلا) بتعلم العبرية ايضا والثقافة اليهودية عموما ، وقد يبدو هذا عاديا في حد ذاته لان الدول التي تنظم برامج لتدريب الاجانب عادة تجعل معرفة لغتها ضرورة اكيدة للاستفادة من ذلك ، لكن الملاحظ بالنسبة للاسرائيليين انهم لم يكتفوا بمجرد جعل العبرية اداة تدرب بل انهم ما فتئوا يحيطون الافارقة باجواء تجعلهم يتخذون هذه اللغة كوسيلة وحيدة للتفاهم مدة وجودهم باسرائيل ، ولا يدرك المرء ما ذا يراد بذلك وهل يشكل بداية حملة تعززها المؤسسات والبعثات الاسرائيلية في افريقيا لنشر العبرية والثقافة الصهيونية عبر انحاء القارة ؟ مهما يكن من امر فان مسالة من هذا النوع لا ينبغي ان تثير حالة من الاهتمام المبالغ فيه والذي يصل الى درجة القلق والشعور بالخطر ، فافريقيا ليست مستعدة في الواقع ــ وبصورة غير محدودة ــ لتلقي مزيد من الثقافات الطارئة عليها كالثقافة العبرية ــ الصهيونية وعلى الرغم من الافاق والاحتمالات التي يود الاسرائيليون ان يفتتحوها ــ بهذا الصدد ــ في الارض الافريقية فان التيارات الفكرية والثقافية الجديدة التي بدات تعم القارة في خلال السنوات الاخيرة وتدعوها الى العمل على استكمال شروط ثقافة افريقية متطورة ومتحررة تعبر عنها لغة او لغات افريقية متجددة ومتجهة الى التطور نحو الافضل ــ كل ذلك ليس من شانه ان يترك افريقيا مفتوحة دائما لتيارات الغزو الثقافي ذي الصبغة السلبية اي ذلك النوع من الغزو الذي يتمثل في التسربات العقلية والحضارة الاجنبية التي لا تستهدف العمل على التلاقي مع الانسان نحو سبيل النهوض والتطور المجرد واعانته على استرجاع مقوماته الروحية والفكرية واغنائها ان كانت قد تعرضت للضياع او مساعدته على اصطناعها وتنميتها ان كان بدائيا فطريا وانما ترمي عوض ذلك الى الغزو بكل ما تحمل الكلمة من معنى اي مصادرة حرية الانسان في اختيار طريق النهوض والتطور المتلائم مع حاجياته واستعداداته والمستمد من ثمرات التفاعل بين عبقريته وعبقرية الاخرين ، واجباره في نفس الوقت على تقبل اعتبارات حضارية وفكرية معينة يراد منها امتلاك زمام انسانيته ووضعه في الاطار الذي يخلق منه اداة للتبعية والاستلحاق الاعمى ، ان الثورة الفكرية في افريقيا الجديدة ــ وان كانت تبدو غثة فطيرة في بعض الصور ــ الا انها تسير سيرا حتميا نحو سبيل التلاقي مع تيار الافكار التقدمية والمسالمة في العالم وليس من الممكن ان تستطيع العبرية والثقافة الصهيونية ــ بسبب عزلتها التاريخية وتراثها المنطوي على نفسه المليء بالعقد والمركبات من كل نوع ــ ليس في استطاعتها لذلك ان تتولى توجيه الفكر الافريقي او فكر العالم الثالث بوجه عام لان هذا الفكر قد بدا يتفتح تفتحا انسانيا صحيحا ويحاول ان يستوعب قضايا الانسان المضطهد والمحروم رافضا في نفس الوقت الحلول الامبريالية والرجعية ومعتمدا بالتالي سبيلا من التقدمية الثورية او الاصلاحية تزداد افاقها بازدياد العوامل الداعية الى ذلك . ان التفكير الصهيوني تفكير لا افريقي ولا اسيوي وليس هو كذلك ثوري او اصلاحي شيوعي او لا شيوعي انه تفكير صهيوني وكفى ، ومثل هذا التفكير لا يمكن ان يجد فرص التجاوب الكافي مع الفكرة الافريقية الاسيوية المتطورة والمتجهة نحو انسانية متكاملة ترفض العنف وتنبذ مبدا اقامة الدول على انقاض الشعوب المغلوبة ، واذا كان الصهيونيون يجدون الآن للحصول على بعض المجالات النفوذية في افريقيا وآسيا فان حالات التقدم التي يحققونها في هذا المجال هي حالات سطحية وغير قارة ومن المؤكد ان التطورات الفكرية والسياسية التي ستعرفها حركة التضامن الافريقي الاسيوي والوحدة الافريقية في السنوات القادمة لا بد ان يكون لها تاثير مهم على هذه الحالة التوسعية المحدودة التي تسجلها اسرائيل الآن في بعض اقطار العالم الثالث والقارة الافريقية على وجه الخصوص .

وليست حالة التوسع الثقافي والفكري هذه هي ما تتوخاه اسرائيل في القارة الى جانب الاهداف الاقتصادية بعيدة الاجل التي تتستر عليها الآن . ان المقاصد السياسية البحتة لها جانب مهم فيما يبتغيه الاسرائيليون في هذا المضمار ومن بين المقاصد هذه :

1) محاولة استغلال الحركة الافريقية الاسيوية ومصادرة اهدافها ومكتسباتها للصالح الاسرائيلي الخاص ، ولو كان من نتائج ذلك ازاغة هذه الحركة عن خط سيرها الطبيعي والاتجاه بها نحو اهداف غامضة .

2) توسيع رقعة الصراع العربي الاسرائيلي المحدود الان في منطقة الشرق الاوسط والعالم العربي ومده الى مناطق دولية

اكبر كالمنطقة الافريقية والاسيوية بكاملها وذلك على اساس تعقيد الموقف امام العرب ، والنيل من امكانيات نشاطهم الايجابي داخل الحركة الانبعاثية الجديدة في ربوع العالم الثالث وضمن مدلول الثورة التاريخية القوية التي تجتازها الشعوب الملونة في العصر الحاضر (ويذكر بهذا الشان الحرب الدعائية التي تشن ضد العرب في بعض انحاء القارة والتي لا تخلو الاصابع الصهيونية من الخوض فيها مباشرة او من كثب) .

3) العمل على تدعيم مركز اسرائيل تجاه الدول الكبرى شيوعية او رأسمالية والمعتقد بهذا الشان ان التوسع السياسي الذي تستهدفه اسرائيل من تحركاتها الحاضرة في كل من آسيا وافريقيا يمكن ان يكون من انجع الوسائل واقواها في ضمان شروط هذا التدعيم وموجباته وذلك على اساس اقتناع الدول الكبرى بان النظام الصهيوني يمكن ان يصبح عاملا فعالا في تيار الاحداث باقطار العالم الثالث وانه لذلك يستحق مزيدا من القيمة والاعتبار اي مزيدا من المساندة له ضد العوامل القوية التي تستهدف الاحاطة به في نفس المنطقة التي يعيش في خطيرتها .



كان مؤتمر « موشي » بطانكانيكا الذي عقد خلال شهر يبراير من سنة 1963 ، وضم وفودا من جميع الارجاء الافريقية ، كان هذا المؤتمر مظهر انهزام مهم للدبلوماسية الاسرائيلية لان المقررات التي صدرت عنه في النهاية انطوت على اكبر ادانة للدولة الصهيونية من جانب الافريقيين باعتبار ان هذه الدولة تشكل قاعدة استعمارية خطيرة وان من المتعين على الاقطار الافريقية ان تعمل على فسخ ارتباطاتها حالا بالنظام الصهيوني القائم في فلسطين المحتلة (✱) وما فتيء العرب يرددون وحدهم مثل هذه العبارات في حق اسرائيل لكن المهم في مؤتمر « موشي » ان وفودا افريقية عديدة قد تبنت هي كذلك مثل هذه الوجهة من القول وصادقت عليها بشكل علني وحاسم ، وبطبيعة الاشياء فان الاسرائيليين لا يمكن ان يتوقفوا امام هذا الانهزام المعنوي الذي منوا به قبل خمسة عشر شهرا في افريقيا فهم شديدو الدأب والمثابرة على نحو يتجاهلون بموجبه كل ظواهر الهزيمة ويحاولون بعد ذلك تحويلها الى انتصارات ، ومن المؤكد — على كل حال — ان موقفهم الحالي بافريقيا ليس متزعزعا بالدرجة التي يأملها العرب مبدئيا ، بيد ان آفاق المستقبل لا تدعو من هذه الناحية (الناحية السياسية) وكما رأينا ايضا من الناحية الثقافية والفكرية — لا تدعو هذه الآفاق الى المغالاة في التشاؤم ، ومن النقط التي يجدر ذكرها بهذا الصدد :

1) ان اسرائيل دولة غير محايدة دوليا رغم انها لا توجد منتسبة رسميا الى احلاف او تكتلات والعالم الثالث — وهو عالم محايد — لا يمكن ان يترك المجال لدولة مشبوهة في حياديتها لكي تندمج به اندماجا مطلقا .

2) خطورة النزاع القائم حول اسرائيل ، وواضح ان اقطار العالم الثالث التي يزداد حرصها على التضامن والتعاون فيما بينها — لا تستطيع — لذلك — ان تتحمل عواقب هذه الخطورة وآثارها لمدى غير محدود اي انه سوف لا يمكنها دائما وفي جميع الحالات ان تساير اسرائيل الى الدرجة التي يجوز ان تنال من اندفاعية الثورة العربية المضادة للاستعمار ومن جبهة التضامن الافريقي الاسيوي القائم .

3) ان اتجاهات التطور العام في ربوع آسيا وافريقيا وما يشمله هذا التطور من ازدياد مبادرات التعاون الاقتصادي والنظامي بين الدول الافريقية والاسيوية ، هذا الى اتساع نطاق التدخل الدولي الجماعي المتجلي مثلا في الامم المتحدة وغيرها وذلك في موضوع مكافحة التخلف الموجود وتنظيم هذه المكافحة على اسس عالمية شاملة كل ذلك ليس من شانه ان يعين اسرائيل على استبقاء حجتها التي تتمسك بها الان لامد غير محدود ، هذه الحجة التي تقوم على فكرة وجوب مد افريقيا بالمساعدة الفنية الاسرائيلية على اعتبار ان القارة هي في امس الحاجة الى هذه المساعدة ، وليس هناك في العالم ما يسد مسد الفنيين الاسرائيليين في هذا المضمار .



وبعد ، فان مستقبل التوسع الاسرائيلي في اقطار العالم الثالث ، يبدو محدود الفرص والامكانيات بدرجة بارزة جدا ، وفي جميع الاحوال فان اتساع مداه او تضاؤل شانه هو — كما تقدم — رهين بنوع التطور الذي يجب ان يكيف وجهة الاحداث في افريقيا وآسيا ، والعوامل والملابسات والتفاعلات الفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، التي يمكن ان تؤثر في ذلك على نحو او آخر على انه اذا كان للمجريات العامة في اقطار العالم الثالث — تأثير مهم في الامر فان اتجاهات العلاقة بين العرب وشعوب هذا القطاع الدولي الهام وتطور هذه العلاقة نحو آفاق ارحب ، واكثر ايجابية وفاعلية من شانه ان يساهم في هذا الشان بنصيب جدي ووافر ، ويعين على افتتاح مجالات لها اهميتها التي لا تنكر .

سلا : المهدي البرجالي

✱) من مقررات مؤتمر « موشي » .

ديوان دعوة الحق

مقاهي

للشاعر : محمد أحمد حيدر

تـرك الـدار والقـى بيـد ... يـد البـؤس صفـاره
ومضـى والليـل قـد مـ ... ـد على الكـون خمـاره
امـل يحـدو خطـاه ... ودجـى يقطـن داره
زوجـه تـزداد ما ازدا ... د دجى الليـل مـراره
تـارة تجتـر ماضيهـا ... وتبكـي الحـظ تـاره
جـارة تسالهـا الصبـ ... ـر . وتذكي النار جـاره
وهـدوء كـرمـاد ... صـامت يـأكـل تـاره
قلـق يغمـر افقـا ... جمـع الليـل غبـاره
ضجـر لا يبلـغ الحلـ ... ـم . مدى الدهـر قـراره
شقـة تـدعـو ووجـه ... لـون الحـزن اصفـراره
وعيـون تـزدرع الافـ ... ـق وتحيـاه خسـاره

✻ ✻ ✻

غرفـه صـاغ لها البؤ ... س . عـن البـؤس ستـاره
غـرفـه لا تعـرف النـور ... ولا لـون الحضـاره
تشبـه الكهـف اذا انـ ... ـحت اولا فمغـاره
وصغـار قتـل الفقـر ... بهـم كـل نضـاره
ضحكـات ربمـا تسمـع ... لـكـن مستعـاره

✻ ✻ ✻

والـى مقهـى بعيـد ... تخـذ البغـي شعـارا
يتعـاطـى الخمـر فالمقـ ... ـهى ومـن فيه سكـارى
قهقهـات وانحـ ... ـلال لايرى فى العار عـارا
وشبـاب يقطـع العمـ ... ـر خمـورا وقمـارا

✻ ✻ ✻

دخـل المقهـى وعـن ... انسانـه الهـادي تـوارى

واليـه مقعـد يعـ ـرفه أمس . اشـارا
مقعـد منـذ قـرون شـاخ . وانحـل ومـارا
والـى منضـده عمبـ ـاء للعـب . استـدارا
ورق (الشـده) فـي صـ ـندوقه . جـن وثـارا
ود لـو يستطيع مـن علـ ـلبتـه تلـك فـرارا
واذا بالـورق المحمـو م . فـي الـداره دارا
والـى بيـض الامـانـي شعـر الكـل وسـارا
امنيـات سلخـت مـن ظلمـة الليـل نهـارا
مقلـة المصبـاح فيهـا وقـف النـور . وحـارا
وعلـى الاهـداب راح النـور يمتـد جـدارا

* * *

اقبلـوا . واستمعـوا لحـديث الـورق
منطـق الـفـاظـه تشـوى فيـنا للمنطـق
منطـق محتقـر صـادر عـن احمـق
امـل اصبعـه تفقـا عيـن القلـق
حـرق تغنـي الامـا نـي في سعيـر الحـرق
شفـق مـات وفـي برديـه لـون الشفـق
خجـل التفـاح لم يحـ ـفل بغيـر الـورق
مـا انتفـاع الزهـر اخـ ـفـى عنك روح العبـق

* * *

وهـم فـي نشـوه السحـ ـر وراء الافـق
ابـن منهـا الخمـر وان اصفت والشهـد النقـي
يتغنـون بـآمـا ل وضـاء المشـرق
كلمـا اغفـى نـداء عـاد صـوت الفـرق
امنيـات تتـوالـى مـا بهـا مـن رمـق
وغـد ولـى ذليـلا تحـت جنـح الفسـق

* * *

ويمـوج الـدرهـم الحـ ـيران مـوج الزئبـق
مـن يـد آثمـة نحـو يـد لم تـرفـق
مـركـب . مضطـرب منطلـق للفـرق

* * *

راحهـم مصفـوقـه تزهـو بلـون النرجـس
وكـؤوس تتـولـى يـا لقلـب المحتسـ
دربهـا الليـل وكـم تخشـى شعـاع القبـس

فـاذا دارت . ودارت   بعقـول الجالـس
جمـد اللفظ ففـي الا   فـواه مثـل الخرس
واذا عـاد الى البـ   ـيت فكالمفتـرس
عـودة مؤلمـة   تجرح وجـه الانس
عـودة الانسـان   للبيـت بقلب الاطلس
وبقـرب البـاب زو   ج لم تنم . لم تيأس
اي انثى ساقهـا الحـ   ـظ لحـظ تعس
اي رجس اي عـا   ر فيـم لـم ينغمس
دائم الثـورة ان   افلس ام لـم يفلس
شـرس لا يعرف الرحمـ   ـة قلب الشرس

* * *

وتـوارى فـي فـراش   هـرم غيـر مريح
اي ريـح لا مسـ   ـت اطرفـه . راح يصيح
اي سجـن . اي ماو   ى موحش اي ضريح
نتـن مـن صوفـه   رائحـة المـوت تفـوح

* * *

نهض الفجـر وما زا   ل . مـع الليـل سطيح
وعلى اهـدابـه الا   حـلام . تغدو وتروح
تـارة فـوق الروابـي   تـارة فـوق السفوح
جـذلا يختـال كالطـ   ـائر . فى افق فسيح

* * *

نفـرت احلامـه   صرخـة الطفـل الكسيح
يطلب الخبـز وعين الا   م بالـدمـع تسيح
ابـن مـن وثبته   وثبـة الوحش الجريح
هـاجـم الطفـل وأم   الطفـل كالثكلى تنوح
ذل مخلـوق علـى   اطفـالـه فـظ شحيح
والضميـر الحـر في   ثـوابه بـات ذبيح

محمد احمد حيدر

مع الليل

للشاعر: محمد حسن طريبق

يا ابا السر ، يا صدى الكتمان ... يا حليف المتيم الهيمان
انت ادرى بكل ما يتراءى ... فيك للناس من رؤى واماني
تتراءى لنا من الوهم الوا ... ن ، ولكنها بغير معاني
لا شذى لا طيور ، لا طيب ، لاسحـ ... ـر ، سوى طيف من رؤى الوسنان
كم هفا الناس ... كم يد لك تمتـ ... ـد لتدني الرؤى الى الاحضان !
ايه ياليل ، كم من النور تزجيـ ... ـه على كل هذه الاكوان !
لم يلح فى الآفاق نجم اذا لـم ... يمتلىء بالظلام كل مكان
ارمق النور ، والظلام حبيبيـ ... ـن على الود فيك يأتلفان
وسرايا السحاب تلعب كالمو ... ج على وجه نورك الريان
يا ابا الحزن : يا ضمير السجي ، يا ... ملتجا كل شاعر فنان
كم انا فيك ساهم ، وبي الشو ... ق الى كل هذه الالوان
هي أجدى للنفس من عالم ما ... فيه غير الهموم والاحزان!
ليس الاك سامري وانيسي ... عندما انثني الى اشجاني
لك افضي بالسر جهرا ، وعينا ... ي بها عبرتان تبتدران
انا فى مهجة الظلام اناغي ... الوهم وحدي بالحس والوجدان
اتناسى الشقاء فيك وارتا ... ح من الغم والضنا والهوان
فيك قلبي قد عاد كالطير بالشو ... ق جناحاه والرضى يخفقان
يرفل العطف فيك ، والنفس بالسـ ... ـر تناجيك يا اخا الانسان
ياليالي الشتاء ، عودي الى قلـ ... ـبي لأطفي ما فيه من نيران!
واعيدي الى سماعي صدى الامـ ... ـس ، فعيناي عنه لا تكفان
ورعودا قصافة لم تزل فى ... مسمعي كالشجي من الحاني
سأغني لها ، وانحت أشعا ... ري فيها من مهجتي وجناني
غن يا ليل لي ، كما سيغني ... لك قلبي بالشعر فى كل آن!

القصر الكبير ـ حسن محمد الطريبق

جمال الأحاسيس

للشاعر: محمد غربي

يـا لابسـا ثـوب النجـ ـوم لانـت منهـا كوكـب
بـل انـت فـوق ترابنـا ابهـى النجـوم واثقـب
لـم تـرض منزلـة السمـاء لان ارضـك اطيـب
فتـركـت فـوقـك سحبهـا تبكـي عليـك وتنـدب
ونـزلـت مـن عليـائهـا وبـك الجبـال ترحـب
فـاذا بكتـك سحـابـة وغـدت تنـوح وتسكـب
فـلأن حبـك قـاهـر وفـراق مثلـك يصعـب
لـو لـم تكـن فـي البحـر امـ ـواج تجـيء وتـذهـب
لحسبـت ثلجـك مثلـه ولـو انـه لا يصخـب
لـو كنـت فـي اليمـن القـد يـم لمـا تهـدم مـأرب
ولكنـت تمنـع سيلـه ابـدا ، فـلا يتسـرب
منـك استمـد ثبـاتـه وارادة لا تـغـلـب
وعـزيمـة مثـل الحـد يـد ، شبـابنـا المتـوثـب
وطنـي الحبيـب أحبـه حبـا يـزيـد ويـدأب
مـاذا تـريـد العيـن بعـ ـد جمـالـه او تطلـب ؟
فيـه العيـون تـرقـرقـت تـراء ليسـت تنضـب
فيـه الـروابـي تكتسـي حلـل الربيـع وتعجـب
فيـه الطيـور تغـرد اللحـن الجميـل وتطـرب
فيـه السمـاء تشـع باللـ ـون العجيـب وتخلـب
فيـه الاراضـي تنتـج الخيـر الكثيـر وتخصـب
فيـه الكـرامـة أمـة تلـد الـرجـال وتنجـب
تلـد الشبـاب البـاسـل الشهـ ـم الـذي لا يرهـب!
طـوبـى لكـم يا زائـريـن فـان هـذا المغـرب
مـا هـذه ارض ولكـن جنـة او ارحـب
هـذا هـو الفـردوس كلـوا مـا اشتهيتـم واشربـوا !
الا « السيـادة » لا تنـالـوا ثمـرهـا أو تقـربـوا !
نحـن الالـى زرعـوا المهـا بـة فـي القلـوب وحببـوا!

الرباط ـ غربي محمد

قصة العدد

موت الساحر

للكاتب الروماني : الكسندر ساهيا
ترجمة : كوليت حبيب

يعتبر الكسندر ساهيا من ابرز الكتاب المحدثين ، وذلك رغما عن ضآلة انتاجه ، اذ توفي وهو في السادسة والعشرين من العمر ، في 12 آب عام 1937 .

ولقد ولد ساهيا في اسرة من الفلاحين ، ولم ينجح في التعليم الا بعد صـراع محموم ضد المصاعب المادية ، وحين انهى دراسته الثانوية جعل يسهم في تحرير بعض المجلات الادبية ، ثم اصدر مجلته الخاصة وصحيفته اليومية الخاصة ، لكنهما لم تعيشا طويلا بسبب الضغط الذي كانت السلطات تمارسه على الصحافة .

ولقد عاش ساهيا ، وهو ابن الشعب ، بين الشعب ، هذا الشعب الذي وصف حياته في قصصه ، ودافع عن حقوقه في مقالاته ودراساته ، ولذا كانت كتاباته جميعا تنبض بمحبة الشعب ، وبالامل العريض في المستقبل السعيد .

وان القصة التي نقدمها هنا ، « موت الساحر » ، لتشكل نموذجا رائعا عن ادب هذا الكاتب المدهش الذي فقده الادب الروماني قبل ان يحقق جزءا من امكانياته الفنية . :

على طول الدروب المغبرة ، كانت عربة مترنحة العجلات ، مغطاة بقطعة من الخيش ، تتقدم بعناء من قرية الى قرية .

وكان حصان كبير ، رمادي اللون ، بارز الاضلاع، ندي العينين ابدا ، يجر العربة وهو يشد بوهن كبير على عدته التي رقعت مرا تعديدة .

انها عربة ميخائيل جيرلاس ، الساحر الغريب ، الذي كانت الاعيبه تبهج الفلاحين دائما وتبعث سرورا عظيما في قلوبهم .

فهو لا يكاد يظهر في الطرقات الضيقة لقرية ما حتى ينتشر خبر قدومه مثل النار في الهشيم ، فيتراكض الصبية جميعا ، في وقت واحد ، كي يشاهدوا ـ جيرلاس ـ « بالع السيوف » ويواكبون عربته حتى الساحة المركزية وهم لا يكفون عن الزعيق .

ويبرز ميخائيل جيرلاس من تحت خيمة العربة ، انه رجل مديد القامة ، عريض المنكبين محدودب الظهر قليلا ، استولت الغضون على وجهه العجوز ، ويرفع قبعته في شيء من الحياء ، وينحني ليحيي الاولاد من حواليه ، فيردون عليه في صوت واحد وقد غمرهم الفرح : « اهلا بك يا جيرلاس .. هيا وارنا سيوفك .. اننا نريد ان نراها ، سيوفك الرائعة » .. ويبتسم الرجل في لطف ، وينزلق بخفة فيما بينهم ، محاذرا الاصطدام بهم ، ويذهب ليتناول من صندوق عربته شيئا من العلف يقدمه للحصان ويروح يلاطف عينيه الجاحظتين العمياوين .

ويأتي الناس مواكب مواكب في هذه الاثناء ، ان القرية كلها تجتمع هناك ، ويبدأ جيرلاس يمارس الاعيبه السحرية امام هذا الجمهور المتشوق الى مثل تلك المشاهد النادرة .

انه يبتلع ، وقد تسلق كرسيا يقوم لديه مقام خشبة المسرح ، كميات كبرى من الزجاج ، ويسحب من انفه اشرطة ملونة ، وحلقات ، وبيضا ، وقطعا نقدية من فئة الخمسة قروش ، او يطلق من قبعته المهترئة ، بضربة من عصاه السحرية ، حمامتين بيضاوين .

ويصفق له الفلاحون بكل قواهم وهم في غمرة الفرح ، ويصيحون بملء اصواتهم : « مرحى يا جيرلاس عظيم ... مرحى .. عاش جيرلاس .. » .

وينتهي المشهد دائما بالنمرة نفسها : ان جيرلاس يبتلع ثلاثة سيوف ، ذلك كان حجر الزاوية في برنامجه، وكان يترك على الدوام اثرا عظيما في المشاهدين .

فهو لا يكاد يبدا في نزع السيوف التي يتألق حدها المصقول في الشمس من حزامه ، حتى يتضاعف انتباه المتفرجين ، فهم يلاحقون مأخوذين كل حركة من حركاته ، ويشرع جيرلاس السيوف في الهواء باديء الامر ، فاذا هي تصطك فوق رؤوسهم ، ومن ثم فانه يبتلعها ، وحين يصبح السيف الثالث داخل فمه المفتوح حتى درجة فائقة ، فانه ينحني الى الخلف قليلا ، ويفتح ذراعيه ، مثيرا في الاذهان صورة صليب مائل ، على وشك السقوط ارضا في كل لحظة ، ويظل بضع دقائق على هذا القرار ، مصلوبا في الهواء جامدا لا حراك فيه .

ويلقي الفلاحون في ختام المشهد بضع قطع من من النقود الصغيرة في قبعته السحرية — كل ما تجود بـــه نفسه ....

فيما مضى ، كانت حياة جيرلاس مختلفة كل الاختلاف ، فقبل زمن غير بعيد — حوالي احد عشر عاما على اكثر تعديل — كان في مقدوره ان ينافس اشهر المشعوذين في العالم ، وكان اصحاب المسارح ومدراء اشهر سيركات العالم وانديته الليلية يقدمون اليــه عروضا خيالية ، وكانت اعلانات هائلة تحمل صورته المكبرة بصورة تفوق الصحف تغطي جدران المدن الكبرى ، ولم يكن هذا الفنان المدلل ، البوهيمي المزاج، يفكر في الشيخوخة قط ، بيد ان السنوات تتابعت ، منتزعة منه الشباب والصحة ، وذات يوم ، وجد جيرلاس نفسه وحيدا ، عجوزا ، مفلسا ، ولم تعد اشرطته وحماماته تدهش كائنا من كان ، واصبحت سيوفه الثلاثة التي يغرسها في جسده حتى المقبض تثير النفور والاشمئزاز في الجمهور الاجنبي الرفيع الذوق ، وهكذا عاد ادراجه الى بلاده .

واستقبلته الضواحي والقرى بحماسة فائقة ، فعاش مرة اخرى ايام مجده المنصرم ، لكنه كان مجدا سهلا هذه المرة ، ولم يكن يعود عليه بالربح الوفير ، كان يقيم مشاهده في الهواء الطلق ، دون اعلانات ، الى جانب حصانه العجوز وعربته المحطمة ، وكان يفعل ذلك كله لقاء قوت يومه .

ولقد توقف قبل بضعة ايام في احدى القرى ، كانت تلك المرة الاولى التي يقصد فيها هذه القرية ، فاسرع الفلاحون لمشاهدته بجموع غفيرة ، لقد بلغتهم الاعاجيب عنه ولذا فقد ذهب الجميع يقصدون مشهده وبدا جيرلاس الاعيبه وقد تسلق كرسيه وسيطر من فوقه على الجمهور ، لقد ابدع فعلا ، وكان يشعر هو نفسه انه لم ير قط في حياته المسرحية كلها مثل هذا الحماس الرائع ، وخاصة بعد ان بدأ يتجول بين القرى والضواحي ، لقد ذكره هذا الحماس المنقطع النظير بتلك اللحظات من المجد التي عاشها في سيركات الغرب الكبرى ايام كانت العروض تنهال عليه بسخاء خيالي ، وما اسرع ما غاب عن باله كل شيء باستثناء الالاعيب التي يقدمها .
وكان جمهور الفلاحين يصفق له دون انقطــاع ويحييه بحرارة : مرحى ياجيرلاس .. مرحى ياجيرلاس
وتجاوزت الحماسة كل حد حين لوح الساحر بحرابه الثلاث في نور الشمس ، وهي تختفي الواحدة تلو الاخرى في جوفه .

وتضاعف التصفيق .

وتردد صوت ابح فوق رؤوس المتفرجين واصواتهم يهتف :

— هذا كله احتيال ان هذا الرجل مشعوذ دجال، ان سيوفه مغشوشة ، فليبتلع حربتي اذا كان يريدنا ان نصدقــه .

وقال صوت آخر :

— نعم هذا صحيح .. فليبتلع حربة الرئيس .. افلا ترون انه يسلبنا اموالنا ، انه يسخر منا .

وشرع الفلاحون الذين كانوا يعدون بالمئات ، وقد ثاروا على حين غرة ، يزعقون بكل قواهم ، وشق رئيس المخفر طريقه بين الجمهور ، متحديا ، وتوقف

امام جيرلاس الذي كان ينتصب بعد على قدميه فوق كرسيه ، وقال :

ـ اجل يا ميخائيل جيرلاس ، اذا اردتنا ان نصدق الاعيبك ، فابتلع حربتي اذن وليس خيوطك الحديدية، ما اكثر ما شاهدت لصوصا من امثالك فى اسواقنا ، كانوا ياخذون نقودنا لقاء لا شيء ، ومن ثم حذار حذار، فانا امثل السلطة هنا ، ولن اسمح لك ان تغش اهل قريتنا .

وترددت بعض الاصوات تقول :

ـ هذا صحيح ، ان جيرلاس يخدعنا ، افلا تخجل اذن ؟ يالك من لص محتال ...

وشرع الجمهور المتوعد يزعق ، مضيقا الحلقة حول جيرلاس ، وجال الساحر ، مذهولا ، بانظاره فوق الرؤوس ، ابدا لم يحدث له مثل هذا الامر من قبل ؛ لما ذا يصفرون له هكذا ؟ ايكون فى وسع هذا الرقيب فى الشرطة ان يفعل مثله ؟ من المؤكد ان لا ، وفكر في ان يعرض عليهم ذلك ، ان يقدم حرابه اليهم كي يلمسوها باصابعهم ، واذا تمكن احدهم ان يبتلعها ، فلسوف يعترف بهزيمته اذن .

ورفع حصانه الرمادي اذنيه ، وهو يقف الى جواره ، انه لا يفهم شيئا هو الآخر .

ويرفع الساحر اخيرا ذراعه ، ممسكا فى قبضته بالحراب الثلاث ، ويقول للجمهور :

ـ اليكم حرابي ، خذوها وافحصوها ، انها عندي منذ اربعين سنة ، وانا لم اخدع قط ، اني رجل شريف ويمد حرابه الى الجمهور ، لكن احدا لا يصغي اليه ، كما ان احدا لا يلمس الحراب التي يمدها عبثا فوق الرؤوس .

وعاد الرقيب يقول :

ـ اني اسخر من حرابك ، ابتلع حربتي اذا كنت تريدنا ان نصدقك .

وينفجر الجمهور من جديد :

ـ هذا حق ابتلع اذن حربة الرئيس ، انك تغشنا وتسرق نقودنا .

ويرى الساحر الدمار يحيق بوجوده والخطر يحل بشهرته ، فيربط بحزامه شاحب المحيا ، حرابه الثلاث التي استخدمها حتى ذلك الحين كي يدهش الجماهير ويتناول بيد راعشة حربة الشرطي ، انها لا تتألق تحت اشعة الشمس ، فهي مغطاة بالشحم ، ويسحبها جيرلاس على كم سترته كي ينظفها .

ويبتسم الشرطي متشككا ، فى حين كان الجمهور ينتظر ، مرتابا هو الآخر .

ويبدو الساحر كمن يترنح لبرهة على كرسيه ، لقد اخذ الحربة بين ابهامه وسبابته وراح يدفعها في فمه ، ولا يبتلعها حتى منتصفها حتى يسحبها من جديد بسرعة فائقة ، ويجففها مرة اخرى على كم سترته ويدفعها من جديد فى جوفه ، وتمر كلها هذه المرة ، فلا يشاهد الجمهور المتفرج منها سوى قبضتها والشحم الاصفر المتراجع على ذقن الساحر ، ويباعد جيرلاس ما بين ذراعيه ويشكل الصليب المائل ، انه يرتجف مثل عصفور جريح يريد ان يحلق فى الفضاء .

ويصفق الناس بصورة محمومة ، انهم يزمجرون وقد اجتاحتهم حماسة فائقة : مرحى يا جيرلاس عاش جيرلاس .

ويطبق جيرلاس على قبضة الحربة بحركة يائسة ويسحبها ، لكن موجة من الدم تتدفق من فمه مع الحربة فى وقت واحد .

ويريد ان يتكلم ... لكنه يترنح برهة يتهاوى بعدها الى الارض ، الى جانب حربة الشرطي ، قرب المسرح الممدود الذي هو كرسيه ...

دمشق : كوليت حبيب

معرض الكتب

اللغات الدولية

تقديم : للأستاذ عبد اللطيف الخطيب

كتب السيد Pierre Burney كتابا قيما بهذا العنوان صدر عن « المطابع الجامعية لفرنسا » ضمن سلسلة « ما ذا أعلم ؟ » فجاء في مائة وست وعشرين صفحة من حجم الجيب تضمنت بحق معلومات عديدة سديدة حول هذا الموضوع الحيوي الهام بالقياس الى مختلف الاقطار سواء كانت متطورة او متخلفة كما يعبر عنها في السياسة الآن . واذا كنت متتبعا لما يصدر ضمن تلك المجموعة القيمة فقد ارتأيت أن أخص كتاب « اللغات الدولية » بهذا التلخيص الذي اريده جامعا بقدر المستطاع نظرا لكونه يعالج قضية تعرض بعض جوانبها الهامة لوطننا بصفة عامة ، وآملا في مساعدة بعض طلبتي الجامعيين ورفقائهم من الذين يهتمون بدراسة اللغات الحية .

فاما الكتاب فينقسم الى خمسة فصول يدرس الفصل الاول منها ظاهرة « البابلية » ويعنى الفصل الثاني بالقاء نظرة تاريخية على اللغتين اليونانية واللاتينية وبنشأة اللغة الفرنسية الى القرن السادس عشر وانتشارها العالمي خلال القرنين التاليين ؛ ثم ارتقاء اللغات المنافسة لها خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين معا . اما الفصل الثالث فيدرس اللغة والثقافة الفرنسيتين وانتشارهما عبر دنيا اليوم في قسمه الاول ، بينما يتضمن قسمه الثاني دراسة مستفيضة لكافة اللغات القومية المرشحة لتصبح لغة عالمية . وقد قصرت الاهتمام على هذه الفصول الثلاثة الاولى لقيمتها ولاحتكاكها اليومي بواقع الحياة . اما الفصل الرابع فيختص باللغات الدولية الاصطناعية بينما يعنى الفصل الخامس والاخير بتقارب اللغات والتوجيه اللغوي والتعلم المبكر للغات الاجنبية والعمل على اتخاذ لغة واحدة للعالم كله .

نظـرة تاريخيـة

يتراوح عدد اللغات الموجودة في عالمنا اليوم بين الفين وخمسمائة وثلاثة آلاف وخمسمائة لغة . وتكاثر اللغات ظاهرة الازمان المعاصرة ، اذ يؤدي في مجال المواصلات الدولية الى وضعية صعبة يمكن أن نسميها « البابلية » نسبة الى ما حدث في برج بابل من نزول العقاب ببني الانسان متمثلا في الفوضى التي ظهرت في السنتهم حتى لم يعد بعضهم يفهم للبعض الآخر قولا ولا يفقه له حديثا .

وتؤدي هذه البابلية في عالم اليوم الى تبذير عظيم للوقت والطاقة والمال جميعا . فمنظمة الامم المتحدة وغيرها من الهيآت الدولية تصطدم بمصاعب كبيرة وتنفق اموالا عظيمة في أعمال الترجمة ، وقد أصبحت الحالة اليوم أكثر خطورة مما كانت عليه فيما مضى نظرا لان المواصلات الدولية تتطور وتنمو بسرعة لم يسبق لها نظير حتى ان الكرة الارضية قد أخذت المسافات بين اطرافها تتقلص بصورة مستمرة فيما يرجع الى ابعادها الزمنية . وقد كان بعض العلماء يعربون فيما سبق عن مخاوفهم من ان يصبح البحث مستحيلا بسبب تكاثر اللغات الضرورية للبحاث وتعددها ، وبحكم التحاق بعض الامم المتخلفة سلفا بركب الحضارة واسهامها في ميدان الابحاث العلمية . وسيصبح من المتعين بعد وقت طويل ان يكون الانسان قادرا على القراءة بعشر لغات وحتى بعشرين لغة ليتمكن من ان يعمل عملا مجديا فعالا . ولا حاجة الى القول بان اللغات الروسية واليابانية والصينية هي في طليعة تلك اللغات . ولقد كان Libenez محقا عند ما كان يؤكد انه لو كانت بالعالم لغة واحدة لطال عمر

الانسان بنسبة الثلث لاننا مضطرون الى انفاق ثلث اعمارنا في تعلم اللغات ...

لقد شهد التاريخ القديم امبراطوريات لغوية ، وكان النجاح الباهر المعروف في هذا المجال هو مـا حققته اللغتان اللاتينية واليونانية من سيطرة على القسم الشرقي من حوض البحر الابيض المتوسط . ثم ان التفوق الفكري لليونان هو الذي يشرح لنا كيف ان الامبراطورية الرومانية كانت مزدوجة اللغة ، بحيث ان المراسيم والنصوص كانت تنتشر باللغتين المذكورتين اللتين كانت النخبة تتكلم بهما معا . وعلينا ان نلاحظ ان اللغة اللاتينية قد توغلت بعد ذلك في الغرب بقوة وان انتشارها في شرق حوض ذلك البحر قد ظل ضعيفا لغلبة اللغة العربية على معظم اطرافه .

وقد اصبحت اللاتينية لغـة الكنيسة والامم النصرانية ، ثم اصبحت اللغة الدولية طيلة العصور الوسطى وان تفرعت عنها لغات متعددة كاللغة الفرنسية التي كانت اللغة الغالبة على الامم النصرانية المشاركة في الحروب الصليبية واللغـة الرسمية والقضائية للمواقع اللاتينية بالشرق . كما اصبحت اللغة الرسمية ولغة الطبقة الحاكمة في انجلترا ايضا . الا انها شرعت تفقد اهميتها ابتداء من اواخر القرن الثالث عشر في الجزر البريطانية . كما توغلت هذه اللغة توغلا عميقا ايضا في هولندة والمانيا ثم في ايطاليا بعد ذلك وان بقوة اقل ، دون ان يكون في ذلك ما يمنع « ماركو بولو » من استعمالها في وصفه لاسفاره ومغامراته العجيبة ببلاد الصين عندما املى احاديثه حولها على صاحبه ...

وقد كانت فرنسا آنذاك اغنى البلاد الاوربية واكثرها سكانا ، كما ان تجارتها كانت طيلة القرن الثالث عشر تجارة قوية رائجة تمكن مقارنتها بالتجارة الانجليزية الامريكية خلال القرن العشرين ، ومع ذلك فقد جاءت اللغة الايطالية خلال القرن السادس عشر فزاحمت اللغة الفرنسية ، ثم صحبتها اللغة الاسبانية في هذه المنافسة خلال القرن التالي بحيث ان الفرنسية لم تسترجع سمعتها الدولية الا في القرن الثامن عشر .

وجاء اختراع المطبعة فساعد بكثير على انتشار اللغات الناشئة وذيوعها . وعلينا ان نتذكر ان حركة اصلاح الكنيسة كانت ضربة شديدة نزلت باللغة اللاتينية باعتبارها « لغة كاثوليكية » فزالت من مجال الحياة العملية اليومية وتراجعت كثيرا في ميدان الثقافة . وعند ذلك بدات اللغة الفرنسية تحتل اوربا رغم النفوذ العظيم للغتين الايطالية والاسبانية ، حتى كان لها الظهور على المانيا وانجلترا وهولندة والبلاد الاسكندينافية وبولونيا وذلك قبل ان يؤول الامر الى لويس الرابع عشر . ويمكن القول بأن روسيا نفسها قد تفرنست حتى ان مسرحا فرنسيا صميما قد تاسس بمدينة بطرسبورغ ، عاصمة البلاد . ثم انتشرت الصحافة الدولية باللغة الفرنسية وتعاقب صدور الكتب الهامة بهذه اللغة فشاعت بفضلها في المجر ورومانيا ثم في سويسرة بعد ذلك . وان ايطاليا نفسها لم تنج من غلبة اللغة الفرنسية عليها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر رغم ان لغتها القومية الناشئة قد شهدت انتشارا وقوة عظيمين طيلة مائة وخمسين عاما .

الا ان ارتقاء الطبقات المتوسطة والشعبية في مختلف الاقطار قد اضر باللغة الفرنسية التي كانت تعتبر « لغة الملوك والقصور » ، كما اضر بها ايضا تقدم انجلترا والمانيا في ميدان الصناعة والتجارة وتوفرهما على مصادر جديدة للطاقة . وجاء تطور الولايات المتحدة الامريكية ودخول الامبراطورية البريطانية في مجال السياسة العالمية فكتبا الغلبة للاقطار الناطقة باللغة الانجليزيـة .

مكانـة اللغة الفرنسية الراهنـة

ورغم ذلك فلا تزال الفرنسية لغـة رسمية في اللوكسمبورغ ، كما انها اللغة القومية للقسم الجنوبي من بلجيكا ، ولها نفوذ قوي في سويسرة الى جانب اختيها الرسميتين الاخريين . وهي تعتبر اولى اللغات الاجنبية في ايطاليا واسبانيا .

واذا ما غادرنا القارة الاوربية وجدنا ان الفرنسية هي « اللغة القومية الثانية » حقا في لبنان ، غير ان مكانتها داخل الاقطار العربية الاخرى بالشرق في تراجع . اما في الشمال الافريقي فمكانة اللغة والثقافة الفرنسيتين قوية للغاية ، مع العلم بانها تتطور الى وضعية الازدواج مع اللغة العربية طبعا .

واذا ما توغلنا في افريقيا السوداء راينا ان الفرنسية قد اصبحت اللغة الرسمية للاقطار التي استقلت مؤخرا كالكاميرون والسينغال وغينيا ومالي والطوغو والنيجر وساحل العاج وفولتا العليا والغابون ومدغشقر وغيرها من الاقطار التي كانت خاضعة للسيطرة الفرنسية . كما انها ذات مكانة قوية في الكونغو

البلجيكي السابق . ويمكن القول بأن الفرنسية هي فى الوقت الراهن لغة ستين مليون افريقي ، أو بسبيل ان تصبح لغة لهم .

والفرنسية رابعة اللغات فى امريكا بعد الانجليزية والاسبانية والبرتغالية ، وهي لغة رسمية فى جمهورية « هايتي » ، كما انها رسمية أيضا لا فى مقاطعة «كيبك» الكندية فحسب ، بل فى برلمان « أوتاوة » والمحاكم الاتحادية جميعا .

وللفرنسية المكانة الاولى فى الاقطار التي كانت تؤلف الهند الصينية الفرنسية فيما سبق ، ولها المكانة الثالثة فى اليابان بعد الانجليزية والالمانية وان كانت هذه البلاد متشبعة بالثقافة الفرنسية من خلال الترجمة . وهي اللغة الثانية فى اوستراليا ، كما انها اللغة المختارة عند المثقفين فى ايران .

اللغات المرشحة لتصبح لغات عالمية

ان عدد الاشخاص المتكلمين باللغات الدولية الكبرى عامل ذو اهمية عظمى ، فالاحصائيون الانقلوسكسونيون يقدرون مجموع الناطقين بالفرنسية بما يتراوح بين سبعين وثمانين مليون نسمة ، بينما يقدرون عدد المتصلين بهذه اللغة بوساطة المحادثات والقراءة بما يبلغ 200 مليون . يرجع الفضل فى هذا الانتشار الى المدارس الكاثوليكية الفرنسية التي يقارب مجموعها عشرين الفا ، وكذلك الى مدارس «الاتحاد الاسرائيلي العالمي» ومراز « الاتحاد الفرنسي» وبعض المدارس البروتستمانتية أيضا . ان « المديرية العامة للشؤون الثقافية والتقنية » التابعة لوزارة الشؤون الخارجية تسير عددا كبيرا من المدارس والمعاهد ، فعدد الاطفال الذين يختلفون الى مدارس البعثات الجامعية الفرنسية فى المغرب وتونس لا يقل عن تسعين الفا .

ومع ذلك فانه من الصعب على اللغة الفرنسية ان تصبح لغة عالمية نظرا لشدة المنافسة التي تلقاها من جانب « لغات كبرى » متعددة بالاضافة الى اللغة الانجليزية .

الاسبانية والروسية والصينية والالمانية والعربية

هذه هي اللغات التي تنافس الفرنسية على المكانة العالمية الاولى بجانب لغة شكسبير ، فعلينا ان نقول ان مؤتمر سان فرنسيسكو المنعقد سنة 1945 كان قد اتخذ اللغات الانجليزية والاسبانية والروسية وحدها لغات رسمية لهيئة الامم المتحدة ، وان الوفد الفرنسي لم يوفق الا بعد جهد جهيد لحمل المنظمة العالمية على اتخاذ الفرنسية لغة رسمية لها أيضا .

ثم ان الاسبانية هي اللغة الرسمية لعشرين دولة بامريكا الجنوبية او الوسطى ، وهي اللغة الثانية فى الولايات المتحدة ، كما انها لغة رسمية فى الفيلبين . واذا كانت البرتغالية هي اللغة القومية والرسمية للبرازيل الذي يقارب سكانه نصف مجموع سكان امريكا اللاتينية كلها فانها لا تنافس اللغة الاسبانية لما يوجد بينهما من التشابه والتكامل . وقد اخذت البرتغالية تتوغل فى انغولا وموزمبيق بغرب القارة الافريقية وشرقها .

و « لغات العمل » فى هيئة الامم المتحدة ثلاث ، وهي الانجليزية والفرنسية والاسبانية ، الا ان للمنظمة « لغتين رسميتين » تكميليتين هما الروسية والصينية اللتان تجتهدان للارتقاء الى مرتبة « لغات العمل » السالفة الذكر . وتعمل حكومة الصين الشعبية على توحيد البلاد لغويا لان « الصينية » ما هي فى الحقيقة الان الا مجموعة من اللهجات التي يصعب التفاهم فيما بينها . وقد اخذت الحكومة الشيوعية على نفسها مهمة الاخذ بالحروف اللاتينية نظرا لصعوبة استعمال حروفها التقليدية فى التمهيد لتدويل اللغة التي يتكلمها الان ما يزيد على ستمائة مليون نسمة .

اما اللغة الروسية التي هي اللغة الرسمية لما يزيد على 200 مليون نسمة فقد تقدمت تقدما كبيرا فى العقود الاخيرة ، واذا كانت طريقه كتابتها قد بسطت فانها لا تزال صعبة . وعلينا ان نعلم انها اللغة الغالبة فى الاتحاد السوفياتي الذي يتوفر على عشرات اللغات القومية المحلية . ولهذا نجد شعوب الاتحاد السوفياتي مقبلة على الازدواج اللغوي ومضطرة اليه . ثم ان الاقبال على تعلم اللغة الروسية خارج البلاد لا يزال ضعيفا . الا ان مكانة الدولة السوفياتية فى مجال السياسة العالمية سيساعد على انتشار اشعاع هذه اللغة ، وآية ذلك تكاثر المدارس التي تعلم الروسية فى الولايات المتحدة الامريكية نفسها تكاثرا كبيرا خلال السنوات الاخيرة .

وتحظى اللغة الالمانية بمكانة هامة جدا فى عالم اليوم ، فقد كانت لغة شائعة خلال النصف الثاني من

القرن التاسع عشر ولم تتراجع الا عقب الحربين العالميتين ، غير انها استعادت ما فقدته خلال السنوات المنصرمة بفضل ما بذلت الجمهورية الاتحادية من جهود عظيمة فى هذا المضمار حيث اسست مائتين وخمسين مدرسة فى خمسة واربعين قطرا وشرعت معاهدها وجامعاتها تستقبل آلاف الطلاب الاجانب يتمتع كثير منهم بمنح حكومية . ويساعد على انتشار اللغة الالمانية ما تتوفر عليه البلاد من قوة اقتصادية ومالية ونشاط بنيها فى مختلف الميادين بالاضافة الى صيتها الطيب البعيد فى العلوم والآليات . وهي لغة يتكلمها مائة مليون نسمة ، كما انها اللغة القومية والرسمية للنمسا ومعظم سكان الاتحاد السويسري ، ولا جدال فى انها احدى اللغات الدولية الكبرى .

اما العربية الفصحى فهي اللغة الدينية لثلاثمائة مليون من المسلمين ، الا ان عدد العرب المتكلمين بها خمسة وخمسون مليونا ، وقد ظلت لغة العلم والادب والصحافة فى مختلف الاقطار العربية ، وقد اسس المجمع اللغوي بمصر سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة والف فاحدث ما يزيد على عشرة آلاف من المصطلحات العلمية والتقنية . ويتابع المجهود لتصبح اللغة العربية اداة التربية والثقافة المطابقة للعالم الحديث ، من ذلك مشروع « الف كتاب » فى مجال الترجمة واشتقاق الاسماء الجديدة من المفردات العربية العتيقة .

الانجليزية لغة عالمية

انا نرى ان اللغة الفرنسية تصطدم فى احتلالها للمكانة الثانية بمنافسة شديدة للغاية ، ثم ان جميع الناس لا يعترفون لها بذلك التبريز ، الا ان الملاحظين العارفين يعتبرون ان الانجليزية هي اللغة العالمية الاولى ؛ ويظهر انه من الصعب دحض قولهم هذا . ولا يرجع ارتقاء الانجليزية الى عهد قريب ، فقد كان الفيلسوف « دافيد هيوم » منذ قرنين تقريبا ينصح المؤرخ « ادوارد جيبون » باستعمال الانجليزية مكان الفرنسية متنبئا لها بالتفوق وسعة الانتشار نظرا لنمو المواقع البريطانية فى امريكا نموا سيضمن لها الاستقرار. وتدل جميع الاحصائيات التقديرية على ان النسبة المئوية لتكاثر اللغة الانجليزية فيما بين سنة 1470 وعام 1950 كانت تفوق جميع اللغات الاخرى بما فيها اللغة الصينية . فالانجليزية اليوم لغة يتداولها سبعمائة مليون من الاشخاص الموزعين فى العالم كله ، بينما اللغة الصينية لا تكاد تعرف خارج حدود بلادها.

وتقوم على نشر اللغة الانجليزية هيآت نشيطة سواء فى المملكة المتحدة او فى الولايات المتحدة الامريكية فقد بلغ مجموع الكتب الصادرة بهذه اللغة سنة 1952 ما لا يقل عن 000 32 كتابا ، أي ما يقارب 22 فى المائة من الانتاج العالمي كله ، ولم تحتل لغات الاتحاد السوفياتي كلها الا المكانة الثانية بنسبة لا تتعدى ثلاثة ارباع ذلك العدد ، وقد قاربها مجموع الكتب الصادرة باللغة الالمانية . واذا كانت معظم الترجمات تنقل عن ست لغات فى عالم اليوم فان الانجليزية تحتفظ بتفوقها فى هذا الميدان ايضا . فقد نقل اربعة آلاف كتاب بالانجليزية (اي 32 فى المائة من الانتاج العالمي فى الترجمة) الى ست عشرة لغة كانت الفرنسية فى طليعتها . اما مجموع الكتب التي تنقل عن الفرنسية فلا يزيد على نصف ذلك العدد الى اللغات الست عشرة والتي تاتي الانجليزية فى مقدمتها . ويبلغ مجموع الكتب الروسية المترجمة الى خمس عشرة لغة الفين وثمانمائة ، بينما الكتب المنقولة عن الالمانية لا تتعدى الفا وثلاثمائة . ولم يرد عدد الكتب المنقولة عن الايطالية على مائتين وخمسين كتابا ، اما الكتب المترجمة عن الاسبانية فكان مجموعها مائتين . وقد اكدت « اليونيسكو » هذه المعلومات المدققة فى احدى وثائقها الهامة .

ونجد نفس هذا التفوق فى جميع الميادين الاخرى اذ يظهر ان نصف ما يصدر من الجرائد فى العالم كله ينشر باللغة الانجليزية ، ثم ان ثلاثة اخماس النشرات الاذاعية الدولية تتحدث بهذه اللغة ايضا . وقد ادى هذا التفوق الى ان اصبحت الانجليزية لغة ذات قيمة كبرى فى المجال الديبلوماسي الذي كان من قبل مقصورا على اللغة الفرنسية . واذا كانت هاتان اللغتان تستعملان فى اشغال هيئة الامم المتحدة كما تقدم ذكره فان نسبة استعمال الانجليزية تبلغ 65 فى المائة . وقد كان اختيار نيويورك مقرا للمنظمة العالمية الكبرى مما ساعد اللغة الانجليزية مساعدة كبرى فى هذا السبيل .

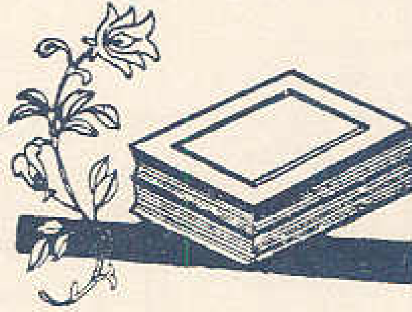
ومن الملحوظات الثابتة ان عدد الطلبة الذين يدرسون الانجليزية فى العالم كله هو فى نمو مطرد ، وهذه الظاهرة ملحوظة فى فرنسا نفسها . ومع ذلك فاللغة الانجليزية قد اخذت تصطدم فى تقدمها بمصاعب كبرى ؛ فقد حلت الروسية مكانها فى جزء من القارة الاوروبية ، ولعل هذا الامر قد حدث فى الصين ايضا ، كما حدث فى جهات اخرى من جراء انبعاث اللغات القومية ، من ذلك ان الانجليزية لم تعد لغة رسمية

للهند وباكستان وسيلان ، فقد اكدت بعض الاحصائيات ان عدد الهنود القادرين على القراءة والكتابة بالانجليزية بعد مرور قرن ونصف على السيطرة البريطانية لم يكن يبلغ المليونين . ثم ان الروسية هي اكبر منافس لها في الاقطار الاشتراكية .

* * *

هذه نظرة عن ماضي وحاضر اهم اللغات واكثرها انتشارا في عالم اليوم مشفوعة ببعض المعلومات عن التفاوت الموجود بينها في سعة ذيوعها . ومما لا شك فيه ان هذه الحقائق قد يطرا عليها بعض التغيير خلال العقود الباقية من قرننا هذا . ومن الراجح ان يقع انقلاب في مدى انتشارها وسعة ذيوعها خلال القرن المقبل نظرا للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحدث باستمرار في عالم اليوم . وارجو ان تكون هذه الصفحات قد تضمنت من الفوائد ما يدفع بنا حكومات وشعوبا الى الاهتمام بلغتنا حتى نجعل لها في دنيا الغد مكانة لائقة بالتي كانت لها في خدمة العلوم والاداب والفنون جميعا عند ما كانت الكثرة الغالبة من البشرية غارقة في بحر الجهالة والظلمات .

الرباط : عبد اللطيف الخطيب



روضة الآس

لأبي العباس المقري
قراءة وتعليق الأستاذ عبد القادر زمامة

منذ اتسعت آفاق البحث أمام الباحثين في التاريخ العلمي والادبي لبلاد الاندلس واقطار المغرب العربي لم يجدوا مرجعا لهم يعتمدون عليه كل الاعتماد اوفى من ابي العباس المقري وكتابيه العظيمين : نفح الطيب ، وازهار الرياض ، فقد شادت عارضة هذا الامام الضليع من الاخبار والآثار ... الريان من العلم والادب ان يجعل من شخصية وزير غرناطة ودفين فاس ، لسان الدين ابن الخطيب (713 هـ 776 هـ) محورا لموسوعة كبرى عن الاندلس وغابر ثقافتها وحضارتها وتاريخها ... وان يجعل من شخصية عالم سبتة ودفين مراكش القاضي عياض (476 هـ 544 هـ) محورا لموسوعة اخرى لا تقل عن سابقتها اهمية وفائدة في المباحث الاندلسية والمغربية

وكان اعجاب الباحثين بالموسوعتين لا يقل عن اعجابهم بمؤلفهما العظيم ، فراحوا ينقبون عن ترجمته وشخصيته وثقافته وآثاره الاخرى التي لم تشتهر اشتهار (النفح) و (ازهار الرياض) .

ومن حسن حظ المقري ان حياته العلمية والادبية توزعتها كل من تلمسان ، وفاس ، ومراكش ، والمدينة ، والقاهرة ، والقدس ، ودمشق ، فترك في كل منها خبرا او اثرا او تلميذا او شيخا او صديقا يروي للناس حديثه ...

ومن حسن حظ المقري ايضا ان لم يعرف في عصره بلون واحد من الوان العلم والثقافة .. لتبقى اخباره محفوظة عند طائفة خاصة من الناس .... بل انه كان حافظا للحديث . ثقة في روايته ... مفتيا في الفقه . متضلعا من فروعه واصوله ... عارفا وقدوة في علم التوحيد ومشكل العقائد ... خطيبا مدرسا ... واخيرا اديبا ومؤرخا من اعلى طراز ....

فلهذا نجد له صدى عميقا عند المهتمين برواية الحديث وفروع الفقه والفتوى بالاضافة الى المؤرخين والادباء ... في المشرق والمغرب ... فهذا يصل سنده في الحديث بالمقري .. وهذا ينسب له فتوى في الفقه .. وهذا ينقل عن كتاب من كتبه المتنوعة ...

لكن هذا الاهتمام ـ النسبي ـ بشخصية المقري والخطوط البارزة في ترجمته لم يمنع من ان تنال بعض آثاره حظها من الاهمال والتبعثر ان لم نقل الضياع ..!

وهذا ما يقال بالذات عن اثر فريد من آثار المقري وهو كتاب « روضة الآس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس » فقد ظل هذا الكتاب قريبا من ثلاثة قرون ... ! لا تراه عين . ولا تصل اليه يد . حتى يئس من العثور عليه الباحثون ، واطمانوا الى دخوله في خبر ليس .... !

ولكن الايام ابت الا ان تفاجئنا بالعثور على هذه الذخيرة النفيسة في نسختها الاولى الاصلية التي كتبتها يد المؤلف ... ! قبل ان تتاح له فرصة اخراجها في صيغتها النهائية ...

وقد عثر على هذه النسخة الوحيدة ـ لحد الآن ـ ضمن ذخائر الخزانة الملكية بالقصر الملكي بمدينة فاس ثم طبعت في سلسلة مطبوعات القصر الملكي بعناية وتصحيح المؤرخ الباحث الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور ...

وكان صدور هذا الكتاب فرصة مناسبة للحديث عن المقري وما جد من معلومات عن شخصيته وآثاره . مع اعطاء نظرة عن الكتاب واهميته في عالم البحث عن تاريخ الادب العربي بالمغرب في القرن الحادي عشر الهجري على عهد دولة السعديين .

عصر المقــري ونشأتــه الاولــى

عرف المغرب العربي اثر انهيار الوحدات الثلاث. دولة المرينيين في فـاس ، ودولـة بني عبـد الواد في تلمسان ، ودولة الحفصيين في تونس ، اهوالا داخليـة دكت صروح المجد والحضارة والثقافة ... تبعتهـا فواجع الهجمات الصليبية التي شنها شارل الخامس ملك اسبانيـا وعـدو السلطـان العثمـاني سليمـان الثاني ... ! وابنه فليب الثاني عدو السلطان سليم ... على طول الساحل الممتد من طرابلس الى وهران ... ساندهما في نفس الوقت هجمات دولة البرتغـال على الساحل المغربي من ثغر طنجة الى اكادير .. !

كما عرف المغرب العربي في نفس العصر الفصول الاخيرة من ماساة المهاجرين الاندلسيين الذين لجـأوا الى امصار الاقطار الثلاثة واندمجوا في حياتها العامـة وكأنهم كانوا لقاحا جديدا دب مفعوله في مرافق الحياة المادية والادبية . وطبـع بعض المدن بطابع لـه اثـره المعروف الى الآن ...

ومن اجـل ذلك ظلت فـاس وتلمسان وتونس وغيرها موصولة السند في عاداتها . وصناعاتها وحياتها العلمية والادبية والعمرانية بالاندلس والاندلسيين ... وظلت اجيالها تتوارث هذا التراث .

وفي غمرة الاحداث المتتالية استطاع العثمانيـون ان يثبتوا اقدامهم في تونس والقطـر الجزائـري وان يطردوا الاسبان ومن حالفهم من الامراء المتوثبين ... كمـا ان دولـة السعديـين استطاعت ان تملك زمـام السياسة والقيادة في المغرب الاقصى وان تجدد الامل . وتبعث الماضي ، حتى اصبح بلاطها كعبة رجال العلـم والادب من كل قطر من اقطار الاسلام ... لا سيما بعد فتوحات المنصور الذهبي وانتصاراته المتوالية في كـل ميــدان ...

والفرق واضح بين عمل الاتراك في تونس والجزائر وعمل السعديين في المغرب ... كما ان الفرق واضـح بين ما تصادفه اللغة والادب والعلـوم بوجـه عام من عقبات واشواك على يد حكام لا يمتون اليها بصلة ... وبين ما تجده عند دولة عربية احتضنت تراث العرب ورفعت شأن حامليه من شعراء وكتاب وعلماء ومؤرخين

في هذا العصر ولد ابو العباس احمد بن محمـد المقري بمدينة تلمسان من اسرة عرفت بثروتها وجاهها وعلمها في هذه المدينة منذ انتقل اليها جدها في القـرن السادس الهجري من مقرة او (مقرة) (بتشديد القاف) صحبة الشيخ الصوفي ابي مدين الشهير ... وكان ميلاد ابي العباس سنة 986هـ وقد اقترن هذا التاريخ بالحادث العظيم في المغرب وهو الانتصار الذي حققه السعديون في معركة وادي المخازن على جيش البرتغـال بقيـادة ـ سبستيان ـ وتسمى عند المؤرخيـن الاوربيين : Bataille des trois rois

وقد كانت نشأته نشأة الصيانة في الخلق ، والجد في الدرس ، والسباق الى المجـد العلمـي ، والنبـوغ الادبي ، ووجد في عمه سعيد عالم تلمسان ومفتيهـا ، نعم الاستاذ والموجه ، والقدوة المربي ، فتعهده بفنـون من العلم ، والوان من الثقافة طبعته منذ النشأة الاولى بطابع المعين الذي لا ينضب ، والفيض الذي لا يغيض ..

وكما رحل العم الى فاس لطلب العلم في صباه ، وربط باعلامها صلة متينة متجددة على ممر الايام ... كذلك رحل ابن اخيه الى هذه المدينـة التي احتفظت جامعتها ومدارسها وخزائن كتبها بما لم يحتفظ بـه غيرها من تراث العلوم الاسلامية في ذلك العصر ...

وصل صاحبنا الى فاس سنة 1 009 هـ وهو في الثالثة والعشرين من عمره وقد بدت مواهبه تتفتح عن الذكاء المتقد والفهم الواسع . والطموح المثري فحضر المجالس العلمية يفيد ويستفيد ونال مكانة مرموقة ... فأجازه اقطاب العلـم ، ورأوا فيه ما يبشر بالتفـوق والنبوغ ولم يلبث احد قواد السلطان احمد المنصـور الذهبي ملك المغرب اذ ذاك ان تعرف بهذا الشاب ورأى نبوغه المبكر فرأى ان يصحبه الى العاصمة ـ مراكش ـ ليلتحق ببلاط المنصور الذي كان حريصا على ان يضم مجلسه اكبر عدد من رجـال العلـم والادب ليستعين ويسترشد بهم في مهماته ومشاريعه المتعددة في العلـم والسياسـة ...

وفي مراكش عاصمـة السعديين فتـح الشـاب النابغة عينيه على عظمة دولة المنصور الذهبي ببلاطهـا وقصورها وجيوشها وحفلاتها ومجالسها العلمية التي كـان المنصور يترأسهـا ويبديء ويعيـد في الجـدال والمناقشة لآراء العلماء في جميع القضايا المطروحة على بساط الدرس .. كما سمع قصائد شعراء الدولـة الذين اشادوا بفتوحات المنصور ومؤسسـاته الحربيـة والعمرانية ولا سيما قصر « البديـع » الذي كان وما يزال عنوان طابع الدولة السعدية .

وفي مراكش تعرف باقطاب العلم والادب داخـل مجلس المنصور وخارجه واستفاد وافاد مما جعله يفكر

فى كتابة مؤلف يجمع فيه ما استقر بذاكرته من اخبارهم وآثارهم العلمية والادبية بالاضافة الى ما استقر بذاكرته عن اعلام فاس وعلمائها الذين فتحوا صدورهم لاستقبال نابغة تلمسان ...

وحيث ان هؤلاء الاعلام سواء منهم من لازم مجلس المنصور فى العاصمة .. ومن بقي منهم فى مدينة فاس ينعمون فى ظلال ما اغدقه عليهم هذا الملك العظيم من صلات ومرتبات وجوائز سنية فى كل مناسبة ... فقد اراد المقري ان يتوج كتابه بفصول يصف فيها دولته ومجالسه ونبوغه فى العلم والادب . وما قيل فيه من شعر ونثر ... وما الفه من كتب ... !!!

ولهذا اختار لمؤلفه هذا العنوان : « روضة الآس العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس » ورجع المقري من مراكش وقد اختمرت فى ذهنه فكرتان :

- الاقامة بالمغرب فى ظلال دولة المنصور العظمى .

- تاليف كتاب الروضة واهداؤه لخزانة المنصور.

اما التوقيت الزمني الذي تمت فيه رحلة المقري الى هاتين الحاضرتين الماخوذ من كتاب المقري نفسه فهو كما يلي :

- فى 4 صفر 1009 ه وصل لفاس
- فى رمضان كان بمراكش يزور معالمها
- فى شهر ربيع الاول عام 1010 ه حضر حفلات المولد النبوي بمحضر المنصور ...
- فى 15 ربيع الثاني من نفس السنة غادر مراكش الى فاس
- فى 17 ذي القعدة غادر فاسا الى تلمسان ...

وهكذا اقام بالمغرب اقل من سنتين عرف فيهما ما يجب ان يعرفه انسان فى مثل سنه وثقافته وطموحه، يريد ان يفارق وطنه الى آخر ، يجد فيه ما يصبو اليه من اسباب العيش .. وطمانينة النفس .. وفرص المجد والجاه ...

ومكث فى تلمسان يهيىء الاسباب فى شوق الى تحقيق مشروعه الذي خططه لنفسه ... ويكتب مؤلفه روض الآس ... وكلما ذكر المنصور دعا له بطول العمر .. ! ودوام العز والنصر .. !

ولكن الاقدار ابت الا ان يموت المنصور فى غيبة المقري سنة 1012 ه فلم يثن ذلك النبأ المقري عن عزيمته ، ولم يحل دون ارادته ... ووصل الى مدينة فاس بقصد الاستيطان بها فى جوار أعلامها ومدارسها وخزائن كتبها ... وجامعتها الكبرى ...

المقري في فاس

رجع المقري لفاس للمرة الثانية سنة 1013 ه وهو يحمل لها ولعلمائها وادبائها كامل التقدير والاكبار. كما ان هؤلاء عرفوا النابغة المتبحر العالم الواسع الافق والاديب الضليع ..

ورغم ان الجو السياسي فى المغرب على العموم اخذ يكفهر بموت المنصور بسبب مطامع ابنائه فى الاستئثار بالعرش وقيام الحروب بينهم هنا وهناك ...

ورغم ان نبغاء الفكر الذين اجتمعوا فى بلاط الملك الراحل قد عصفت بهم العواصف السياسية وتوزعتهم مصالح المتصارعين حول العرش ... وفقد كثير منهم جاهه ومكانته فى الدولة ... فان ذلك لم يحل دون الازدهار العلمي فى مدينة فاس .. ولم يثن العلماء عن التدريس والتاليف والبحث والمناظرة ... فوجد المقري ضالته المنشودة يدرس ويؤلف ويبحث ويفتي ويسهم فى الحياة العلمية والادبية يوصل السند وربط الصلة واخذ الاجازة من شيوخ العلم .. ومنحها لشبابه ...

لكن الفراغ الذي احدثه موت المنصور سار بالمغرب نحو اهوال وفواجع داخلية وخارجية قسمت البلاد بين الامراء السعديين وغيرهم من المتقلبين واباحت حمى ثغورها لهجمات الاسبان المتربصين ...

وجاءت قضية « العرائش » التي اراد فيها الامير السعدي المامون الملقب بالشيخ ان يجبر علماء الشريعة على فتوى بجواز تسليم هذا الثغر المغربي الى اسبانيا لتسلم له ما عندها من رهائن فيها اولاده .. ! ! فكان ذلك احراجا لرجال العلم والدين .. ! اوقعهم فيه هذا الطائش المفلس .. ! فتجرا بعضهم وارضى ضميره بالفتوى بمنع هذا التسليم وتحدى بذلك ارادة الامير .. ! فكان جزاؤه القتل ... ! من طرف الامير ... !

ووافق بعضهم ارادة الامير .. ! فكان جزاؤه الاهانة او القتل من طرف الشعب .. !

وتملص فريق ثالث من الفتوى بالفرار من فاس الى البوادي والجبال .. ! او الاختفاء فى مكان مجهول .. !

فماذا كان موقف المقري من هذه الفتنة العمياء ؟ يبدنا نصوص مخطوطة ومطبوعة عن موقف كثير من العلماء الذين امتحنوا بالفتوى في هذه القضية ... وبخصوص موقف ابى العباس المقري يبدنا نص صاحب « الاستقصاء » الذي يقول :

« فر جماعة من تلك الفتوى كالامام ابى عبد الله محمد الجنان صاحب الطرر على المختصر . وكالامام ابى العباس احمد المقري مؤلف نفح الطيب فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما .... »

وصرع الامير السعدي قريبا من مدينة تطوان سنة 1022 هـ . ولكن ذلك لم يجعل حدا للفتن والاهوال بل ان الجو السياسي لم يعرف استقرارا ولا هدوء . فظلت المدن الكبرى ولا سيما فاس ومراكش تشاهد الانقلابات وما يعقبها من حوادث الانتقام والفتنة .

وقد شاهدنا المقري يتخذ موقفه من قضية العرائش بالاختفاء حتى تمر العاصفة فلهذا يمكننا ان نقول ان امل المقري قد خاب في الحصول على منصب سام في بلاط دولة انتثر عقدها .. ! وحفت الاخطار بكل من يتولى منصبا فيها .. ! فلهذا عكف على دروسه وكتبه واوراقه قانعا بما ناله من تقدير في نفوس اهل العلم والادب وطلبتهما .. وفي تلك الفترة كان يكتب مؤلفه « ازهار الرياض » ويجمع مواده من عدة كتب اندلسية ومغربية .

ونستطيع ان نعرف الصدمة النفسية التي كان المقري يعانيها في فاس ايام الازمة السياسية من مقدمة كتاب « ازهار الرياض » فهو يشكو الغربة والاهوال ، ويعزي نفسه حينا بالجو العلمي الذي يعيش فيه ، وحينا بجمال فاس ومناظرها ومظاهر حضارتها ...

وفي سنة 1022 هـ نجد المقري متوليا الخطابة والامامة والفتوى بالقرويين ..

فمن ولاه هذه الوظيفة .... ؟

ان فاسا في هذه الظروف تعيش في فوضى ... فالشيخ خرج طريدا وصرع قريبا من تطوان ... وابنه عبد الله حاول الاستبداد بفاس لكنه غلب على امره بسبب قيام زعماء الشعب ، وفيهم سليمان الزرهوني . والمربوع يأخذ السلطة وقيادة الجماهير والسهر على الامن والنظام ....

فهل كان المقري في صف الثوار .. ؟ وهل تولى خطته السامية بارادتهم .. ؟

الواقع ان خطة المقري وسلوكه كانا بعيدين عن الثورة فلهذا فلا نشك ان وظيفته كانت بارادة الامير عبد الله بن الشيخ رغم انه كان مغلوبا على امره .... والدليل على ذلك شيئان :

ــ ان المقري لم يخرج من فاس مهاجرا الى الشرق وقاصدا بيت الله الحرام سنة 1027 هـ الا بعد ان اتهم بالميل الى « شراقة » وهؤلاء هم جيش متكون من اهل المغرب الشرقي الذين كان الامير عبد الله يعتمد عليهم كل الاعتماد في قمع ثورة زعماء الشعب ...

ــ ان المقري اخذ اذن الامير عبد الله قبل ان يترك « المنصب والاهل والوطن والالف » على حد تعبيره ...

المقري في الشرق

في رمضان سنة 1027 هـ ودع المقري المغرب لاداء فريضة الحج والاستيطان في بلاد يجد فيها الاستقرار الذي ينشده .. فيقصد الحجاز معرجا على القاهرة ويحضر موسم الحج مرات متعددة ويؤلف هناك عدة كتب اشتهر امرها بين الناس وذاعت نسخها في جميع الاقطار الاسلامية في حياة المؤلف وبعدها ...

وقد نال المقري شهرة واسعة في عواصم الشرق التي زارها ومكث بها مدة ... وكان حفظه ونبوغه مثار راعجاب العلماء في القاهرة والقدس ودمشق وقدروا فيه سعة العارضة وغزارة المعرفة وتنوع الثقافة ... فاجاز واستجاز وربط الاسانيد على القاعدة المعروفة في ذلك العصر ...

ولا نطيل الحديث عن حياة المقري في الشرق فالمعروف ان معاصريه هناك كتبوا عنه الشيء الكثير ..

وهذا الشهاب الخفاجي في « الريحانة » بعد ان ترجم له تلهف اشد التلهف حيث ان المنية حالت دون اجتماعه به وقال :

« وجاءني بنعيه من كنت ارجوه بشير التهاني »

ودع المقري هذه الحياة بالقاهرة سنة 1041 هـ بعد ان ترك هذا التراث العظيم .

كتاب روضة الآس

بهرت دولة المنصور الذهبي ابا العباس المقري.. كما ان شخصية هذا الملك العظيم اثارت اعجابه وتقديره ... وشاهد نفاذ سوق العلم والادب في مراكش وفاس ... واطلع على ما الف من كتب برسم خزانة الدولة ... فحفزه هذا كله ليؤلف هذا الكتاب في الفترة التي قضاها بتلمسان مستعدا لرحلته الى المغرب واللحاق ببلاط المنصور بتلهف وشوق :

« نسال الله ان يزعجنا عاجلا الى حضرته المقدسة الطاهرة من ادناس الجور والحيف .... »

والكتاب يشتمل على قسمين :

- ما يتعلق بحياة المنصور ودولته ومآثره ومؤسساته

- ما يتعلق بالعلماء والشعراء الذين اتصل بهم وعددهم 34 .

وقد اراد المقري بقسمه الاول من الكتاب ان يسير على سنن شاعر الدولة ابي فارس عبد العزيز الفشتالي الذي الف كتاب : « مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا » ومؤرخ الدولة ابي العباس ابن القاضي الذي الف كتاب : « المنتقى المقصور على مآثر الخليفة ابي العباس المنصور » وكاتب الدولة ابن عيسى الذي الف كتاب : « الممدود والمقصور » .

والنسخة التي عثر عليها من الكتاب ليس فيها من هذا القسم الا جزء يسير يتعلق بمآثر المنصور وحفلاته ومؤلفاته واشياخه ... ومع ذلك فما بقي لنا من هذا القسم يحتوي على معلومات قيمة نادرة عن ذلك العصر الذهبي ... كتبها شاهد عيان .. ويلاحظ الاستاذ المصحح ان المقري لم يعد النظر في كتابه مرة ثانية بسبب موت الملك الذي الف له الكتاب فظل في « مسودته » مشروع كتاب .. لا كتابا في صيغته النهائية . حتى رحل المؤلف عن المغرب وتركه فيما ترك من كتب واوراق ، الى ان استقر في الخزانة الملكية.

اما القسم الثاني من الكتاب فهو بيت القصيد كما يقولون فقد ترجم فيه المقري لاربعة وثلاثين من اعلام عصره الذين لقيهم واستفاد من علمهم وادبهم وروى اخبارهم واشعارهم وآثارهم ..

وهؤلاء الاعلام قسمان :

منهم المشهورون كابي العباس ابن القاضي . والشيخ احمد بابا السوداني . والشيخ القصار والشاعر عبد العزيز الفشتالي . وابو القاسم الوزير الغساني ...

ومنهم المغمورون والمجهولون الذين لم يبق لنا من اخبارهم وآثارهم الا النزر الذي لا يكفي للحكم على علمهم او ادبهم . كالشاعر محمد بن علي الوجدي « الغمات » وعبد الرحمن العلج والحسن المسفيوي ، واحمد الايسي وغيرهم ...

وكان عمل المقري بالنسبة لهؤلاء واولئك عملا مفيدا حيث انه وسع معلوماتنا عن الطائفة الاولى وروى لنا مجموعات شعرية هي لحد الآن اوفى ما نملك من آثارهم . كما انه لم يبخل علينا بما استفاد من اخبارهم وآثارهم في ميدان التاليف .

اما الطائفة الثانية فقد نشرها من مرقدها بعد ان اخنى عليها الاهمال والنسيان وهذا عنصر الاهمية والفائدة في هذا الكتاب بالنسبة للتاريخ العلمي والادبي لدولة السعديين بالمغرب .

وفي الكتاب بالاضافة الى ذلك نظرات المقري الخاصة في الحياة المغربية في ذلك العصر وما فيها من عادات في الافراح والمآتم وحياة الجد والهزل مما يكون مادة للدراسة والبحث عن ذلك العصر ...

لكن يجب ان نلاحظ هنا ان كتاب روضة الآس ليس « فهرسة » لابي العباس المقري ولهذا لا تستغرب اذا رايناه يغفل كثيرا من اعلام فاس في هذه الحقبة وفيهم اشياخه الذين ذكروا في ترجمته وهم من الشهرة بحيث لا يمكن اغفالهم ...

وكما نلاحظ ان الكتاب وصلنا مبتور الاول والآخر وانه كتب في مدة وجيزة ولم يعد مؤلفه النظر فيه مرة ثانية فلهذا نحن امام كتاب لم يتم ... وامام فائدة لا شك في اهميتها النسبية ...

ولو وصلنا الكتاب بعد ان عمل فيه المقري عملا جديدا حين استيطانه بفاس ... لكنا اذ ذاك امام معلومات بالغة درجة عالية في الاهمية ...

ولكن رغم هذا كله فالكتاب اثر فريد من آثار ابي العباس المقري جدير بالدراسة والبحث ...

اما عن طبع الكتاب واخراجه الى عالم النور بعد طول هذا الرقاد فان ذلك حسنة من الحسنات ومبرة من المبرات نشكرها ونباركها ونرجو لها ما بعدها ...

فاس : عبد القادر زمامة

مناقشات

حول الانتحال في شعر المهلهل

تعقيب: للأستاذ محمد الحلوي

لا يقل المهلهل شهرة ومركزا عن ابن اخته امريء القيس ، فهو شاعر لامع من شعراء الجاهليين ، ولد ونشا فى بني تغلب ، واندفع يشبع نزوات شبابه في جنون أعمى منصرفا الى الخمر والنساء حتى لقبه اخوه كليب (زير النساء) ، وظل هكذا مغمورا لايعرف فى حرب ، ولا يذكر فى غارة ، حتى نعي اليه اخوه كليب فحولته الفاجعة الى اسد جريح وتفجر الشعر من قلبه فياضا يبكي اخاه بكاء الثكالى الموجعات ، فاقترن اسمه بالبسوس اشأم حرب اكتوى بها العرب فى الجزيرة وترددت اشعار الشاعر الموتور على كل لسان مراثي حزينة واناشيد بطولة رائعة تناقل العرب اخبارها بينهم اقاصيص واسمارا ...

واذا كان القصاصون قد جنوا على المهلهل فى قصة الزير فنسبوا اليه من الخوارق البطولية والقصائد الشعرية على سبيل التسلية والتفكهة ما ليس له ، فان ذلك كله لم يستطع ان يغرق الحقيقة التاريخية للمهلهل لنشك فى وجوده فنراه اسطورة من اساطير الاجيال الغابرة ، ولم يستطع ان يضعف من قيمة اشعاره التي سجلت صفحة من حياة العرب طافحة بالمآسي والدماء . وانه ما من شك فى ان الجزيرة انجبت ما لا يعد من الشعراء ، ولكن التاريخ لم يحتفظ لنا باسمائهم لانهم لم يستطيعوا ان يدخلوا فى التاريخ ولا ان يفرضوا وجودهم على الحياة التي لا تمنح الا للاقوياء ... والاستاذ ابن تاويت وهو يتصيد شواهد الانتحال فى شعر المهلهل لا يخفي شكه فى وجود الشاعر ، ويعتبره متورطا فيما نسب اليه (ان كان له وجود) .

ولست اريد ان اذكر الاستاذ باعتناء العرب بايامهم واعتزازهم البالغ بابطالهم وحرصهم على رواية مآثرهم وامجادهم التي كان الشعر الديوان الذي يدونها، والقيم الامين على نشرها وصيانتها ، ولا اريد ان اثير انتباهه للاثر العميق الذي كانت تتركه الاحداث في نفوسهم جيلا بعد جيل ، والانطباعات التي كانت تختزنها ذاكرتهم القوية عبر الايام والسنين مما حدا بهم ان يتخذوا من هذه الاحداث تاريخا يرجعون اليه .

انما اريد فقط ان اتساءل ، هل نستطيع ان نجد لحفظ التاريخ وصيانته طريقا آخر غير النقول والروايات ؟ وهل يستطيع المؤرخ لفترة ما أن يؤمن بوجود شاعر وينكر آخرين ووسائل علمه واحدة وطرق دراسته غير مختلفة ؟ اننا ونحن فى عصر الكتاب ما نزال نعتمد الى حد كبير على الروايات كمصدر من مصادر ايماننا ومقارناتنا ، على ان روايات الاقدمين وفى وقت لم يكن فيه كتاب قد تكون ادعى الى الثقة واميل بالانسان الى اليقين لانها غدتهم فى تحقيق الوقائع وتسجيل الاحداث ، ومن تم كانوا يبالغون فى ضبطها وتمحيصها ويقولون : وما آفة الاخبار الا رواتها . ان معرفتنا بالنابغة والشنفرى وعمرو بن كلثوم وامثالهم لم تكن الا عن طريق هذه الروايات المتسلسلة ، فليس لنا خيار فى ان نعترف بفريق من هؤلاء وننكر آخرين لانهم جميعا يمثلون وحدة تاريخية تمخضت عنها اجيال العربية فى تلك القرون ، وانكار وجود واحد انما يعني انكار الآخرين .

ومن سوء حظ المهلهل انه فارق شعراء عصره بظاهرتين ادبيتين : احداهما هذه الهلهلة والسلاسة التي طبع بها شعره والتي تبلغ حد الاسفاف فى غالب شعره ، وثانيهما رهافة عواطفه ورقة احساسه التي تذكر برقة الحضريين مما دفع الكثير الى الشك فى صحة هذا الشعر المنسوب الى المهلهل لا الى انكار وجود الشاعر نفسه .. والواقع ان الرجل امتاز عن بقية

الشعراء بهذه السلاسة التي تقابل المتانة والقوة عند الشنفرى ، او تأبط شرا ، ولم يكن له فيها يد ولا اختيار ، فقد يوجد في العصر الواحد شاعران ينحو احدهما منحى السلاسة ويجنح احدهما الى القوة والمتانة ، وقد يذهب الشاعر الواحد في شعره المذهبين معا يشتد احيانا ويلين اخرى ، حتى لكأن الشعر لشاعرين لا لشاعر واحد ، وبهذا الاعتبار لاينبغي ان تتخذ من هذا التردد بين السلاسة والقوة عند الشاعر دليلا على الانتحال في شعره او انكار وجوده بالمرة .

اما الظاهرة الثانية فتتجلى في عواطف المهلهل الرقيقة واحاسيسه المرهفة التي هي اشبه بعواطف الحضريين . ومرجع هذه الرقة الى نوع الحياة التي عاشها الشاعر بين الملاهي وارتشاف الملذات ، والى طبيعة المواضيع التي طرقها شعره والتي صور فيها حياته الداخلية التي كانت النبع الصافي لشعره المهلهل النسيج الرقيق الديباجة ، فالذين يرفضون شعر الرجل لسلاسته ورقة عواطفه يتناسون اثر العامل النفسي في توجيه الادب وقدرته على تكييف انتاج الشاعر وتلوينه ، ويتناسون ان هذا العامل ابعد اثرا من البيئة وطبيعة الحياة نفسها .

فقد يولد التوامان في بيت واحد وتحت تاثير بيئة واحدة فيتشابهان في كل شيء ولكن طريقتهما في التفكير واسلوبهما في التعبير ابدا لا يخضع واحد منهما لهذه التوأمة ، اما الذين يرفضون وجود المهلهل كشاعر عرفه التاريخ فسيكون الحق بجانبهم يوم تكون عندهم دلائل النفي اقوى من عوامل الاثبات عند آخرين .

وفي نطاق الشك او الانكار ــ لا ادري ــ تناول الاستاذ كلامه عن شعر المهلهل مدللا على مواطن الانتحال فيه ، منبها الى ان الدافع هنا لم يكن قرآنيا او لغويا ، ولكنه جاء فقط لعمل فني هو اتمام قصة المهلهل البطولية وسد فجوات فيها لا يمكن ان يضطلع بها الا الشعر . واعيد هنا ما قلت سابقا : اني لا استطيع ان افهم وجود قصاص بارع في الشعر يتطوع لخدمة شاعر في عداد الاموات وقد كان اجدى عليه ان يزاحم بشعره ابواب الخلفاء فينال المجد والمال ، واذا كان المهلهل من الشعراء الكثيرين الذين كانت كثرة شعرهم جناية عليهم ودافعا للشك في صحة اشعارهم ، فقد فحص الرواة طائفة من شعر الرجل اشهرها قصائده المنتقيات، ولكن الاستاذ لم يستحسن من هذا كله الا قصيدته الرائية التي قالها بعد دفن اخيه كليب ، وقد وقف الاستاذ امام هذه الرائية طويلا ووضع تحت اعيننا نماذج من الانتحال في شعر الرجل يراها ماخوذة من الخنساء والافوه الاودي وعمرو بن كلثوم ، والاعشى والفرار السلمي والفند الزماني ، وابي نواس ، وتأبط شرا ، واخيرا من القرآن كذلك .

فشعر الرجل كما سنرى اشبه بصندوق عطار توارد عليه القصاصون واقحموا فيه ما لذ لهم من معاني الشعراء ، الرجال منهم والنساء ، فانت لا تكاد تقرا فيه بيتا للخنساء حتى تتعثر بآخر للافوه ، وآخر لابي نواس الى آخر السلسلة ، فليت شعري اذا كان الشعر لهؤلاء فأين هو اذن شعر المهلهل ؟ وما مدى صحة ما فضل عن هؤلاء ؟ أفلا يجوز ان يكون هو ايضا ماخوذا من آخرين ؟ .

ان الطريقة التي ركبها الاستاذ في التدليل على الانتحال في شعر الرجل غير سليمة ولا مامونة اذ يجب اولا ان نسلم ان مطلق التشابه في المعاني والتوارد عليها وعلى الصيغ في بعض الاحيان لا يعد اخذا بين الشعراء المتعاصرين بله المتباعدين (وقد اطبق المتقدمون والمتاخرون على تداول المعاني بينهم الا اذا اخذه بلفظه كله او اخذه فأفسده) .

هذه عبارة ابي هلال العسكري اسوقها باللفظ الكامل ومنها ندرك ان المعاني مشتركة بين عموم الناس يتفقون جميعا في ادراكها وانما يتفاضلون في صياغتها واختيار احسن القوالب لتاديتها ، وقد اثبت الادب المقارن وحدة الشعور وادراك المعاني بين مختلف الامم والاجناس ، فكانت نتائجه تاكيدا لما قال الامام علي : لولا ان الكلام يعاد لنفد ، وقد كان القدماء يرون المعنى حقا مشاعا بين الجميع وانما يكون الاولى به من اجاد التعبير عنه ، فقد قيل لدعبل يوما وقد كان يتهم ابا تمام بالاخذ منه : ان كان سبقك ابو تمام بهذا المعنى فتبعته فما احسنت ، وان كان اخذه منك فقد اجاد وصار اولى به منك .

وحين سمع بشار قول المجنون :

الا انما ليلى عصا خيزرانة
اذا غمزوها بالاكف تلين

قال والله لو جعلها عصا من زبد او مخ لما احسن الا قال كما قلت :

اذا قامت لحاجتها تثنت
كأن عظامها من خيزران

ولما قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

تبعه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غما
وفاز باللذة الجسور

فلما سمع بشار هذا البيت قال ذهب ابن الفاعلة ببيتي .

واكثر ما يقع التشابه عند ما تتجاوز القرائح في ارض واحدة وتغذيها روافد متحدة فتتزاحم الخواطر المتعددة حول المعنى الواحد وتلتقي جميعا عنده وكأنها كانت معه على ميعاد ، فقد روي ان عمر بن ابي ربيعة انشد ابن عباس (ض) « تشط غدا دار جيراننا » فقال ابن عباس « وللدار بعد غد ابعد » فقال عمر : والله ما قلت الا كذلك ، من هذا يتضح ان هذه النماذج التي اختارها الاستاذ للتدليل على الانتحال غير واردة في عمومها لان مطلق التشابه في اللفظ او المعنى بين شاعرين لا يجيز لاحد الحكم بان احدهما ماخوذ من الآخر ، وأن بيت المهلهل مثلا ماخوذ من بيت الخنساء او من الاعشى ، ولست ادري لماذا لم يعكس الاستاذ فيقرر ان معاني الخنساء وغيرها ممن ذكر ماخوذة من المهلهل وقد تقدمهم بقرن ونيف وقد آن ان اسوق الى القاريء بعض النماذج التي طعن الاستاذ في صحة نسبتها الى المهلهل بدعوى انها ماخوذة من شعر الخنساء ، تقول هذه وهي ترثي اخاها صخرا :

فبت ساهرة النجم ارقبه
حتى اتى دون غور النجم استار

هذه الخنساء تبيت ساهرة لايغمض لها جفن ترقب النجوم البطيئة وترصد حركاتها حتى تختفي عن انظارها هذه النجوم باستار السحب الكثيفة التي طوتها قبل ان تغور في آفاقها ، ويقول المهلهل :

وبت اراقب الجوزاء حتى
تقارب من اوائلها انحدار
اصرف مقلتي في اثر قوم
تباينت البلاد بهم ففاروا

انه هو كذلك يسهر الليل ويراقب النجوم التي راقبتها الخنساء الى ان تقترب اوائلها من الافق آخذة في الانحدار فيسرح بطرفه خلفها في الفضاء وكأنما يشيع مع هذه النجوم قومه الذين تصدعوا وتفرقت بهم البلاد فاختفوا وغاروا كما ستغور النجوم بعد حين

ان التقاء الشاعرين كما نلاحظ لم يكن الا حول معنى بدائي عام لهج به الشعراء منذ القدم وهو التشكي من السهر وطول الليل وبطء النجوم مما نجده في الغزل والرثاء ، ولكن المهلهل يفارق الخنساء في الصورة الادبية المكتملة في شعره وهو يستغل ملاحظاته للنجوم فيتذكر قومه وقد ابتلعتهم الصحراء الشاسعة كهذا الافق الفسيح ، ويتمثلهم متفرقين كهذه النجوم المتناثرة في كبد السماء والتي توشك ان تغور كما غار قومه منذ حين ، فاذا كان لابد من الموازنة بين البيتين واصدار حكم ادبي صحيح فلن يكون الا بتفضيل بيتي المهلهل على بيت الخنساء الذي جاء قاصرا عنهما .

وتقول الخنساء :

يا صخر وراد ماء قد تناذره
اهل الموارد ما في ورده عار

تندب اخاها وتثني عليه باقتحامه للمنايا وخوض ساحاتها التي يتجنبها الابطال ويتحاماها الشجعان فيخوف بعضهم بها بعضا ، وهو اذ يرد هذه الموارد الكريهة لا يردها الا كريما غير مدنس فيها بعار ولا متقهقر او لائذ بالفرار .

ويقول المهلهل يرثي اخاه كليبا :

لدى اوطان اروع لم يشنه
ولم يحدث له في الناس عار

هذا بيت من قصيدة قالها وقد عرج على قبر اخيه واوقف ناقته عند هذا البطل الاروع الذي خلف بعده الذكر الجميل والاحدوثة الطيبة فلم يدنسه عار ولم يحدث له في الناس ما يشين ، واترك للقاريء المقارنة بين معنى الخنساء ومعنى الشاعر وادراك التشابه او التقارب بينهما ، اما انا فاقول :

وبودي - لولا خوف الاملال - لوقفت امام كل النماذج التي جيء بها لتشهد على الانتحال ، ولكني استوقف القاريء امام هذا البيت كواحد من هذه النماذج :

فلا تبعد فكل سوف يلقى
شعوبا يستدير بها المدار

فالاستاذ ياخذ على المهلهل في هذا البيت انه استعمل تعبيرا خاصا بالنساء وان الاخذ في هذا البيت لم يتورع حتى عن التعبيرات النسوية وللاستاذ اذا سمح ان يقرا معي ما قالته العرب ليتحقق ان هذا التعبير (لا تبعد) ليس لغة نسوية كما يظن وانه مما تداوله رجال العرب ونساؤهم على السواء .

قالت الخرنق القيسية :

لا يبعدن قومي الذين هم
سم العداة وآفة الجزر

وقالت ليلى الاخيلية :

فلا يبعدنك الله ياتوب انما
لقاء المنايا دارعا مثل حاسر

وقال ضابيء البرجمي :

وقائلة لا يبعدن ذلك الفتى
ولا تبعدن اخلاقه وشمائله

وقال ابو حنش الهلالي :

يعقـــوب لا تبعـــد وجنبت الـردى
فلتبكيـن زمـانـك الرطـب الثـرى

وقال الرياحي يرثي طلحة بن عبد الله :

فـــلا يبعـدنـك اللـه امـا تركتنـا
حميـدا واودى بعدك المجد والفخر

وقال ابو نواس يرثي والبة :

لا تبعـدن ابا اسـامـة فالمنية واجبـة
قد كان يعظم قبل موتك ان تنوب النائبة

ويقول ابو العتاهية :

فــلا يبعـــدن اخــي ثـاويـا
فكـــل سيمضـي علـى اثــره

وقال البحتـري :

لا تبعـــدن وكيــف يقـــرب نـازل
بالغيـب تفنـى دونـه الاعـــوام

وقـال آخـر :

يقـولـون لا تبعـد وهـم يدفنـونني
وايـن مكـان البعـد الا مكـانيـا

كما ياخذ على البيت المذكور (يستدير بها المدار) فالتركيب في رايه تعبير علمي قد يقبل لو جاء من شاعر عباسي عاش في عصر ازدهـار علم الفلك وعلم الهياة ، وهـي ملاحظـــة غيــر واردة اذا عـرفنــا ان المدار ما يجري عليه الامر ، وانه هنا بمعنى الدهر الذي يدور بالشعوب ويتقلب بها ، وهو اشبه بقولهم دارت عليهم الدوائـــر .

ولم يكتف هؤلاء المنتحلون بما اخذوه من الشعراء ونحلوه المهلهل فعمدوا الى القرآن واخذوا منه المعانـي ثم صاغوها ونسبوها اليه ؛ ولا عجب قرب ساع لقاعد ، من هذه النماذج التي ورد الاخذ فيها من القرآن البيت التالـي :

نكـب القـــوم للاذقـان صرعـى
وتاخـــذ بالتـرائـب والصـــدور

اما الوجه في هذا الاخذ ـ كما يرى ـ فهـــو في استعمال الاكباب للاذقان وفي الاخذ بالترائب والصدور، لانه جاء في القرآن ويخرون للاذقان يبكون ، فلا بد اذن ان يكون الواضع اخذ هذا المعنى حتما من القرآن كان الاكباب على الوجوه والاذقان صورة نادرة غريبة علـى العربي الذي طالما جندل الابطال وارغم انوف الاعداء ، وكان العربي لم يستعمل يوما هذا التركيب للتعبير عن صورة يراها في كل غارة وتقع عليها عينه في كل معترك حتى جاء القرآن ....

اما الاخذ بالترائب والصدور الـوارد في البيت فهو اشبه في كلام العرب بالاخذ بالزمـام وبالناصيـة وبالمخنق وبالتلابيب مما يراد به التمكن من الشيء فهو جار على مثـال معروف في لسان القـوم ومعزز مـــن القرآن في قوله : يعـرف المجرمون بسيماهم فيوخـذ بالنواصي والاقدام ـ اما هذه الآية الكريمة التي تذكر الانسان بخلقه ونشاته من ماء دافق ، « يخرج من بين الصلب والترائب » فما اظن انها تسعف الاستاذ بشيء ولا انها تمت الى الاخذ بالترائب والنواصي بصلة ما الا اذا كان يلاحظ استعمال الشاعر لكلمة الترائب الواردة في الآية خاصة فيصح حينئذ ان نعتبر كل كلام وجـد فيه لفظ من القرآن ماخوذا لذلك من القرآن .

ويكون قول امريء القيس :

ترائبها مصقولـة كالسجنجـل

ماخوذا من القرآن لهذا الاعتبار ...

ويوهن الاستـاذ في بيت المهلهل هذا راي القائلين بورود اللام بمعنى على في قوله : نكب الاقوام للاذقـان صرعى متهما اياهم بانتحال الشعر على لسان امـريء القيس لاثبات ذلك ...

وما اظن القوم في حاجة الى وضع ولا انتحال وقد جاءت اللام موافقة لعلى في نصوص كثيرة في القـــرآن وكلام العـــرب .

من القرآن قوله تعالى واذا مس الانسان الضـر دعانا لجنبه . وقوله وتله للجبين . ومن كلام الرسول لعائشة : اشترطي لهم الولاء ... ومن شعر لقاتل محمد بن طلحـــة :

ضممت اليــه بالسنـــان قميصـــه
فخـــر صريعـا لليديـن وللفـــم

والاستاذ يعتقد قبل هذا ان هـذه النماذج مـن الانتحال انما جاءت لسد فجوات في قصة المهلهل التـي هي اشبه بقصة سهراب ورستم ؛ فاين هي هذه الثغرات التي اضطلع الشعر بسدها في قصة الرجل التي امتدت مع حرب دامت مناوشاتها اربعين سنة .

واني لبيت منتحل من الشعر ان يسد فجـوة او يملأ فراغا لا تملأه الا القصائد الطوال .

وتلك ملاحظات عابرة سجلتهـا وانا اقـرأ للاخ الاستاذ مقاله حول الانتحال في شعر المهلهل لم اقصـد بها الا القاء الضوء على بعض الجوانب في حديثه وتذكيره بان في هذا الوطن كثيرا من اصدقائه الذين يتجاوبـون معه ويقراون له السلام .

فـاس : محمد الحلـوي

اضداء التهائف والقلم

اعداد : الأستاذ محمد برادة

عنقود ندي

« عنقود ندي » هو سابع كتاب ينشره الاستاذ محمد الصباغ الذي ارتاد عالم التاليف سنة 1953 عندما نشر « العبير المتهب » . والقارىء لهذه المجموعة من الكتب ينتهي الى حقيقة اولية واضحة ، وهي ان الاستاذ الصباغ يكتب باسلوب متميز يمكن ان يعتبر مدرسة خاصة في الابداع التعبيري للادب المغربي المعاصر . والى بضع سنوات كان بعض نقادنا ينظر الى كتابات الصباغ على انها امتداد ، وترسم لخطوات ادباء المهجر ، الذين يستوحون اسلوب جبران وميخائيل نعيمة . وربما كانت هذه الملاحظة صحيحة بالنسبة لبواكر الصباغ .. الا ان مضيه ـ باصرار ـ في الطريق الذي اختاره ، وتبلو تراكيبه ، واخيلته ، وقاموسه الشعري ، يثبت مدى الاصالة في اختيار الشكل ، ومدى التطابق بين استعدادات الصباغ وبين قدراته التعبيرية الفذة .

وهو شكل لا يمكن ان يدرج في مجال مغاير لمجال الشعر ، رغم ان الهيكل البنائي للمقطوعات خال من التفعيلات والميازين العروضية ، والقوافي . ان ارتباطه بالشعر آت من الرؤية التي يلتقط الصباغ من خلالها تجاربه ورؤاه ، ليمررها في ذاته الرقيقة الجياشة قبل ان يخرجها الفاظا منغمة حبلى بالهواجس ، والايحاءات الخصبة .. واذا باللغة تتعدى نطاق توصيل المعاني الى نطاق تفجير الكوامن ، وتحريك اللواعج . ومن ثم ، يلتقي الصباغ ، بالمدرسة الرمزية التي تنكر على اللغة قدرة تصويرها لحقائق الاشياء ، وتعتبرها مجرد رموز لاشتات من الصور التي تتلقاها من العالم الخارجي .. والمدرسة الرمزية لا ترى ان وظيفة الادب هي نقل المعاني ، بل نقل العدوى والايحاءات ، ولو ادى الامر الى استعمال اللغة استعمالا خاصا لتطويعها واخضاعها لخصوصية الرؤية الشعرية .. ان ادراك الاشياء ليس بالسهولة التي نتخيلها .. وعناصر الكون متشابكة ممتزجة .. واللغة لا تستطيع ان تنقل ادراكاتنا في معادلات لفظية . يقول الصباغ معبرا عن هذا الامتزاج في مقطوعة ((ذهول)) لقد انسلت من نفسي ، وانسلت نفسي من سمعي ، وبصري ، وذوقي ، ولمسي ، فلم اعد اذكر ، هل ذابت نفسي في هذه الاشياء : التي تشرب من كفي ، وتتوسد على صدري ؟

لست ادري هل تبزغ الشمس ، وتافل مع افول القمر ؟ اسواد هي في الليل ام بياض هي في النهار ؟ ام احمرار هي في الشفق ؟

هل اللمس يلمسها ؟ ام هي تلمس اللمس ؟

هل الصوت يسمعها ، ام هي تسمع الصوت ؟ ام كلاهما يسمع

ترى ، ام لا يسمع ؟

هل الضوء يستمد رؤيته منها ، ام هي تستمد الرؤية من الضوء ؟ ام كلاهما يستمد رؤيته من شيء آخر ؟ ..))

وانطلاقا من احساس الصباغ بعجز اللغة المتداولة عن ابراز التجارب والادراكات الجوانية ، نجده يتمهل في اختيار الالفاظ الشعرية الانيقة ، ويتمهل في توليد الصور والاخيلة ليشحنها بكل ما يختزنه من دفء وشفافية ..

وغلبة الروح الغنائية على عنقود ندي ، هي التي تضفي على معظم المقطوعات طابعا ذاتيا محضا ، وتنقلنا عبر احلامه ، وغرامياته ، وحسناواتـه العاريـات ، وتتجول بنا فى سماوات النجوم ، وجداول الحرير ، ومتاحف روما والاندلس ، وتمتعنا باصباح ايفـران ورقصات ((المياه الربيعية)) .. عالم مسحور ، ينضح بالفتنة والفرحة ، ويغرق فى بحر من العطور والالوان الزاهية .. ويدعونا لان نحلم بعيدا عن رجات الاعاصير، وولولات العواصف :

((دعيني احلم يا حلوتي – يقول الصباغ – كل ما حولي يبعث فى نفسي نشوة الحلم اللذيذ : النهار خيط من حرير الملمه على سبابتي ، والمساء مرآة تعكس لي ما وراء الغيب والمستحيل ، والنسيم ، فى يمناي مروحة من عبير ، وانا مرخى الجسد على العشـب الطرير ، فى غيبوبة ليـس لبياضها قرار ، وانت يا حلوتي غافية على صدري : غصن ليمون مثمر ..))

ان معظم مقطوعات عنقود ندي تفتقر الى نفحات واقعية تخصص التجربة ، وتمنحها حرارة الحياة ... ذلك ان الصباغ يقصد الى تعبير مطلق يعتمد علـى توليدات الالفاظ ، وتكاثف الاخيلة ، ليجعـل حديقته انسانية لا تحدها قيود ، يقول : ((لا حـدود ، ولا سياجات ، تسيج كرمتي)) . ولكنه عندما يتدلى من اغصان الفضاء لينتعل بالطين ، وينكب على جزئيات حياتية ، فانه يعطينا لقطات رائعة مثلما فعل فى قطعة ((غدا سيلدني طريق جديد)) يقول :

((.. كنت كلما تمزق شيء فى ثوبي ، طلبت من امي ان تصلحه ، فتلبي رغبتـي فى الحـال ، دون ان تستعين بشيء . اما اليوم فعندما اطالبها باصلاح شيء فى ثوبي ، تضع نظارتيها على عينيها ، وتطلب مني ان امر بالخيط فى سم الابرة قائلة لي : لقد تعبت عيناي يا محمد ...))

ولا يفوتني ان اسجل – بعد قراءتي لعنقود ندي ، ولبعض المقطوعات التي لم ينشرها الصباغ بعد – ان الكاتب مقبل على تحول جديد فى كتاباته .. وهو تحول نحس ارهاصاته فى مقطوعتين (انا الشعب) و ((لن اغنى بعد اليوم) ثم فى التابين الذي كتبه عن عباس محمود العقاد . ان هذه المقطوعات تشعرنا ان الكاتب بصـدد اعادة نظر فى طريقته التعبيرية ، ومحاولة ملاءمتها مع الحقائق المستجدة التي كثيرا ما تنبه وعي الادباء ، وتستحثهم على اثبات فعاليتهم فى عمليات التقويـم ، والكشف ، والتصحيح ..

ان مقطوعة (انا الشعب) يمكن ان تعتبر نشيدا تلقائيا يعكس حقيقة مـلأت جوانـح الصباغ فانطلقت متحررة من كل الزخارف والتوشيات :

((لينظر الى من لا يعرفني . ليتفرس فى غرتـي الحمراء وعضلاتي السوداء وعروقي البارزة الكاداء ، من يستبعدني ويذلني ، ويعفر جبيني ، انا الشعب انا ارادة الله .. »

ان التحول الذي نستشعر ارهاصاته من المقطوعات المشار اليها آنفا ، يمكن ان نقول عنه انه انتقال مـن الرؤية الوردية الحالمة ، الى الرؤية المدققة التي تعاين الالام والمشاكل ، وتشارك الاخرين عذاباتهم .. وهذا ما جعل الصباغ يعترف فى آخر مقطوعة من كتابه ، انه لم يعد قادرا على الغناء ، والتحليق فى سماوات الاحلام المجردة .. ويتدلى – بل يرتفع – الى ميدان المعركـة ليضم حنجرته الى حناجر الملايين ...

فى الثقافة والادب

مما يمتاز به استاذنا عبد الكريم غلاب ، حرصه على اصدار كتاباته المتنوعة فى كتب مستقلة تسهل على المتتبعين لنشاطنا الفكري الرجوع اليها ، واستقـراء انعكاسات عن المعركة الجديدة التي يخوضها المغرب .. فبعد (نبضات فكـر) ، و (فى الاصـلاح القـروي) ، و (الاستقلالية : عقيدة وفكر) و (فى الثقافة والادب)، وهو مجموعة مقالات كتبت لتحليل مشاكل ملتصقـة بمفاهيم الادب والثقافة ، من خلال التجربة التي يعيشها المغرب فى هذا الميدان .

والجزء الاول من الكتـاب مخصص لمناقشـة العناصر الاساسية المكونة للثقافة المعاصرة ، خصوصا فى بلد حديث عهد بالاستعمار . وفى مجتمع مماثـل لمجتمعنا لا يمكن للثقافة ان تعني شيئا آخر غير العمل ولا يمكن للمثقف ان يستحق اسمه بدون الاسهام الفعال فى تغيير بنيات المجتمع .. وهذا ما يعبر عنه الكاتب بقوله :

((وكثير من المثقفين – او من يحسبون انفسهم مثقفين – يتخلون عن مركز القيادة لاعتقادهم ان القيادة من تصيب السياسيين ، ولو لم يكونوا مثقفين . ومن اجل ذلك تراهم يبتعدون عن ميدان المسؤولية ، لانهم لا يشتغلون بالسياسة ، ومن اجل ذلك يختارون ميدانا للعمل يساعدهم على الانطواء ، والابتعاد عن المسؤولية))

وربما كانت شبه جريمة – كما قال سارتـر ان ينصرف مثقفونا وادباؤنا الى ربات الشعر والالهام ،

واصطياد المعاني الانيقة ، بدلا من المشاركة في تحطيم التركة الثقيلة التي اورثنا اياها الاستعمار ، وجعلهـــا سدا يحول بين مواطنينا وبين التمتع بالحياة السوية .. ففي بلد متخلف ، كل شيء يجب ان يعاد فيه النظر : القيم والموازين ، التاريخ والمفاهيم الحضارية ، العادات والتقاليد .. ويقول الاستاذ غلاب — عند حديثه عن الاستعمار الفكري — : ((.. والخطر في هذا الاستعمار الفكري ، بالاضافة الى احتقار اللغة والحضارة والادب والتاريز القومي، هو طريقة التفكير في مشاكلنا وتاريخنا وفي مستقبلنا . وما ظنك بمثقف لا يعرف الا التاريخ الفرنسي الذي يقدم اليه امثلة من تاريخ الاقطاع وتاريخ الوطن المقسم ، والامارات المستقلة التي تعتمد علـــى الاقطاع الارضي .. ما ظنك بمثل هذا المثقف الذي يحكم — بكل جراة — على تاريخ المغرب بانه تاريـــخ الاقطاع واستعباد الشعب))

ومن ثم فان كثيرا من موضوعات الكتاب تبـــدو قديمة ولكنها — في الواقع — تستعيد جدتها وحيويتها من خلال الظروف التي تعيشها بلادنا ، والتي تحتم على كتابنا أن يناقشوا جميع المشاكل وكاننا ننطلق من نقطة الصفر .. وهكذا ، فاننا نطالع مقالات عـــن الثقافـــة المتحررة ، والوعي الثقافي ، ودور الادب في الكفـــاح الوطني ، والدولة والادب ، والادب القديم يدافع عن نفســه ..

ومنهج الكتابة لهذه المقالات ليس واحـــدا .. فبينما يغلب على معظمها التعميم والتجريد ، نجد ان ((ملامح الادب العربي الحديث بالمغـــرب)) و ((دور الادب في الكفاح الوطني)) ثم ((الافـــاق الموضوعيـــة والفنية في شعر شاعر الحمراء)) تتخذ طابع البحث المـــدعـــم بالامثلـــة والشواهـــد ، وتعلـــو قيمتهـــا على بقية الفصول .

وكما سبق أن قلت في عرض كتبته عن ((نبضات فكر)) ، فان ميزة مقالات الاستاذ غلاب تكمن في قدرتها على طرح المشاكل ، وتكوين منطـــق للتفكيـــر عامـــر بالايحاءات . . .

ولا اريد الان ان اسجل كل الاصـــداء التـــي استوحيتها من قراتي لمقالات ((الثقافـــة والادب)) ، ولكنني اكتفي بالوقوف قليلا عند مقالته (القيود في الادب والفن) التي يناقش فيها مشكلة الشعر الحر ..

فهو بعد ان يقرر بان (الحرية في معناها الانساني هي التحرير من كل ما يعرضه الغير بدون حق) ، يلاحظ بان كل حرية لها حدود ، وفي جميع المجالات بما فيها مجال الفن . ويعود ليطبق هذه النتيجة على الشعر الحديث ، غير انني اجد هذا التطبيق سريعا ، ومبتسرا ومتقدا لبعض التعمق . يقول الاستاذ غلاب :

((.. واستمعت اخيرا الى احد رواد هـــــذا « الشعر » يتحدث عن كيف تحول من الشعر الموزون الى الشعر الحر فقال : انه غلط مرة في ابيـــات مـــن قصيدة موزونة ولم يكتشف الغلط في الوزن — اي في موسيقى الشعر — الا بعد حين ، ولكنـــه حينمـــا اكتشفه — او كشف له عنه — اصر على ان يحطم هذا القيد فبدأ ينتج شعرا حرا .. انه ضعف من الحاسة الموسيقية ، وضعف من اتقان فن الشعر ، وكانت ثورتهم « تعويضا عن ضعفهم » ...

والكاتب يقصد هنا الشاعر العراقي بدر شاكـــر السياب الذي كتب شعرا « تقليديا » موزونا كثيرا من قبل ، وبرهن على موهبته الموسيقية بما لا يدع مجالا للشك . ولكنه في اشارته السابقة يعني انه اكتشـــف لا حتمية الاوزان « الخليلية » .

وكم كنت اود أن يلجأ الاستاذ غلاب — في مناقشته لهذه القضية — الى استعراض الافكار الاساسية التي تستند عليها حركة الشعر الجديد ، كما جـــاءت في الدراسات القيمة التي كتبها رواد هذه الحركة ونقادها امثال نازك الملائكة في « قضايا الشعر المعاصر » ورجاء النقاش وعبد الصبور ومحي الدين محمد وغالي شكري والدكتور عز الدين اسماعيل الذين ربطـــوا الاتجـــاه التجديدي في الشعر العربي بجذور التغير الاجتماعي ، والتطورات الايديولوجية . ان اعلام هذه الحركة — وكل تقييم يجب ان يستند على انجح النماذج لاتجاه ما — يؤمنون بضرورة الموسيقى للشعر ، ويتقيدون باوزان التفعيلة .. وهم في تمردهم على الاوزان « الخليلية » يستجيبون لمقتضيات جمالية ســـواء في الاشكـــال او المضامين . انهم يريدون ان يرقوا بالشعر ليجعلوا منه لحظة حضارية تتجمع في بؤرتها احاسيس الوجـــود والعدم ، ومشاعر الحب والياس ، وانعكاسات الامل والقلق .. بعيدا تعميمات ، وتلخيصات ، وحكم الشعر التقليدي .

الرباط : محمد برادة

من نشاط وزارة الأوقاف

في الميدان الديني :

ـ من المنتظر ان تتم خلال صيف هذا العام اتمام بناء مسجد ايفران .

ـ وقع الشروع في بناء مسجد بمدينة آزرو .

ـ تواصل الوزارة جهدها لكي يفتح في القريب مسجد بالحي اليوسفي بمدينة الرباط .

وفي مدينة القنيطرة سيفتتح في القريب مسجد الحسن الثاني .

ـ وفي مدينة مكناس سينتهي في القريب بناء مسجد يحمل اسم صاحب الجلالة الحسن الثاني .

ـ وفي مدينة سلا ينتظر في القريب اتمام مسجد الشهداء .

ـ دشن مدير ديوان وزير الاوقاف بالنيابة عن معالي الوزير مسجدا جديدا بقبيلة فشتالة بناحية فاس .

ـ كما دشن مدير قسم الوعظ والارشاد بالوزارة نيابة عن الوزير مسجدا جديدا اخر بقبيلة اولاد قاسم .

ـ يتواصل العمل في بناء مسجد بني محمد بمكناس .

ـ شرعت الوزارة في بناء مسجد الحسن الثاني بتازة .

ـ وينتظر في القريب الشروع في بناء مسجد بخنيفرة ، وآخر بحي كليز بمراكش ، وثالث بالخميسات .

ـ تجري الوزارة اصلاحات مهمة على مسجد بريمة بمدينة مراكش ، وتباشر من جهة اخرى اصلاحات مختلفة على كل من مسجد المواسين ، والقصيبة والمنصور بنفس المدينة ، وستوزع الوزارة في القريب اعانات لاصلاح عدة مساجد بعبدة والشياظمة .

ـ وبناحية تازة تباشر الوزارة اصلاح عدة مساجد ترابية، كما اهتمت باصلاح مسجد اكنول .

ـ ومن مدينة فاس تم ادخال اصلاحات مهمة على مسجد الحمراء والقرويين ومسجد الاندلس وعدد من المساجد الصغرى .

ـ ومن مدينة فاس تم ادخال اصلاحات مهمة على مسجد الحمراء والقرويين ومسجد الاندلس وعدد من المساجد الصغرى .

في الميدان الفلاحي :

اصلاح الزيتون القديم : اعطيت جميع التعليمات الى النظار لكي يسرعوا في اجراء عمليات التجفين والسقي والتسميد والتقليم تحت اشراف النواب وبمعونة خبراء فلاحين والشيء الذي يحمل على الارتياح هو ان النتائج بدأت تلوح بوادرها على ضوء المقارنة الممكن اجراؤها بين نتائج بيع الغلال قبل تطبيق هذه العمليات وبعد ادخالها في حيز التنفيذ .

وفي كثير من الاحيان كانت نسبة الزيادة في نتائج بيع الغلال تتراوح ما بين خمسة مائة في المائة وثمانية مائة في المائة .

ويتعلق ذلك على الخصوص بنواحي : فاس ـ زرهون ـ صفرو ـ مراكش ـ وزان .

المساقاة في وزارة الاوقاف :

في كثير من الاحيان يتعذر على الوزارة القيام بعمليات التجفين والتقليم والتسميد والسقي في الاراضي المغروسة قديما باشجار الزيتون والتي توجد على مسافات بعيدة من المراكز العمرانية وفي اماكن وعرة يصعب الوصول اليها بوسائل التنقل العادية ، كما ان اشجارها تبعد عن بعضها بمسافات تقدر احيانا بالكلمترات .

ولكن هذه الحالة لم تمنع الوزارة من اتخاذ اجراءات كفيلة باجتناب وقوع اية خسارة في الاشجار بسبب عدم استفادتها من الاشغال الفلاحية الانفة الذكر ، والتي يطلق عليها اسم المساقاة .

فهذه الطريقة التي ادخلت عليها تحسينات فنية تقترن بالاتجاه الذي تسير عليه الفلاحة الحديثة والذي يتضمن ما ياتي :

يقع الاختيار في كل قبيلة من قبائل اقليم معين على جماعة من الفلاحين المقتدرين لتسند اليهم مهمة صيانة عدد من اشجار الزيتون الحبسية حسب الشروط الفلاحية المعمول بها في الوزارة.

وعند متم كل سنة فلاحية تقع مراقبة الاعمال التي قاموا بها ، فان كانت موفقة ومرضية تمنح لهم نسبة من الانتاج بعد بيع الغلال عن طريق السمسرة العلنية ، فمنهم من يحصل على ثمن الغلة ومنهم من يستفيدمن سدسها الخ.. وذلك حسب النواحي ، وحسب انواع الغلال ، وكذلك النشاط الذي يبذله كل فلاح اتيطت به هذه المهمة .

ولكي يقع التاكيد من قيام كل مساقي بانجازها ما تعهد بتنفيذه ، تحضر اوراق مطبوعة مشتملة على جميع البيانات والتوقيعات ، فترفع الى الوزارة من طرف الناظر ، حيث تنفذ على ضوئها واجبات هؤلاء الفلاحين .

ويرتكز نظام المساقاة على نظام المساجد لانه كلما كان مسجد معين يملك عددا من الاشجار الا ويجد من بين السكان المجاورين له فردا او افرادا يتكفلون بصيانتها حسب القوانين الجاري بها العمل في حظيرة وزارة عموم الاوقاف .

المملكـــــة المغربيـــــة
وزارة عمـــوم الاوقـــاف

دائـــرة ....
مقاطعة او جماعة ....
قبيلـة او مشيخة ....

نظـارة احباس ....
حراس اشجار الزيتون ....

نتيجة بيع غلـة ....
عن سنـة ....
نسبة واجب المساقين من هذه النتيجة ....
توقيع الناظر ....
توقيع النائب ....

نموذج من اعمال المراقبة التي يقوم بها النظار على المساقين

اسماء الحراس	عناوينهم	اسماء الاراضي التي يشتغلون فيها	عدد الاشجار التي قاموا بتجفينها وسقيها وتسميدها وتقليمها				ما ناب كل حارس من نتيجة الثمرة الآنفة الذكر	التوقيعات
			التجفين	التسميد	السقي	التقليم		
الجملة								

التاريخ من ....
الى ....

الأنباء الثقافية

* « معجم الاصول العربية والاجنبية للعامية المغربية » اسم كتاب صدر عن المركز الوطني للتعريب في سلسلة المعاجم والقواميس قدم له الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله مدير مدير المركز الوطني للتعريب بالرباط ، وهو يقع في 138 صفحة من الحجم الكبير .

* اقامت جريدة « العلم » مهرجانا كبيرا تخليدا لذكرى العقاد تكلم فيه الاساتذة : علال الفاسي عبد الكريم غلاب ، محمد الصباغ ، العربي الخطابي ، مصطفى الصباغ .

*** صدر عن المركز الجامعي للبحث العلمي العدد الاول من مجلة « البحث العلمي » في اكثر من 200 صفحة شارك بالكتابة فيه الاساتذة : احمد ابن موسى ، وعبد السلام الديوري ، بو فرتي ، محمد الفاسي ، محمد المنوني ، الناصر الفاسي ، محمد برادة ، محمد عبد الواحد بناني ، محمد برادة ، الحسن السائح . مديرها الاستاذ الناصر الفاسي مدير المركز الجامعي للبحث العلمي ، وسكرتير تحريرها السيد محمد الصباغ ، رئيس قسم الدراسات العربية بالمركز الجامعي للبحث العلمي . وستصدر هذه المجلة ثلاث مرات في السنة .**

*** صدر عن دار الكتاب بالدار البيضاء كتاب « عنقود ندي » لمؤلفه السيد محمد الصباغ .**

* اقامت كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط امسية ادبية بمناسبة وفاة الرئيس الهندي نهرو تكلم فيها السيد محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس وعميد كلية الاداب الاستاذ محمد عزيز الحبابي والسيد محمد العربي المساري ، ومصطفى الصباغ .

* صدر عن دار الكتاب بالدار البيضاء كتاب « تاريخ المغرب العربي » للاستاذين ابراهيم الكتاني ، والدكتور مختار العبادي .

* اهدى المغرب عددا من المطبوعات العربية الى المجامع والهيئات والمكاتب العربية وذلك لتوثيق الروابط بين المغرب .

* « قدر العدس » مجموعة اقاصيص قصيرة صدرت للسيد محمد بن احمد اشماعو

* مثل المغرب في المناظرة الدولية للشؤون الاليكترونية التي افتتحت في 26 مايو في لندن وحضرها 1 000 اختصاصي تكنولوجي ينتمون الى مختلف اقطار العالم .

وكذلك فلقد ارسلت كل من اسبانيا والعراق والكويت وسوريا ممثلين عنها لحضور المؤتمر .

والقت في المؤتمر اثنتا عشرة محاضرة تعالج موضوعات الكترونية مختلفة وخاصة استخدام الاليكترونية في دراسة الاحوال الجوية ونظام اوتوماتيكي لمراقبة مناجم الفحم .

* « في الثقافة والادب » عنوان الكتاب الذي صدر اخيرا للاستاذ عبد الكريم غلاب ، وسبق للمؤلف ان اصدر الكتب الاتية : « في الاصلاح القروي » « نبضات فكر » « الدستور » « يوميات صحفي » .

نرجو للمؤلف مزيدا من النشاط .

* « السليقة عند العرب المحدثين » هو عنوان البحث الادبي الذي يناقشه الان المجمع اللغوي بالقاهرة وهذا البحث هو للاستاذ العلامة السيد عبد الله كنون الامين العام لرابطة العلماء وعضو المجمع المذكور .

* تأكد ان مجموع ما حصلت عليه لحد الان مكتبة الجزائر بعد احراقها قد بلغ اكثر من 160 الف مجلد .

* يشتغل الدكتور زكي نجيب محمود في تالف كتاب عن « ابن طفيل » وسيصدره مجلس الفنون بالقاهرة بمناسبة الذكرى المائوية الثامنة لوفاة ابن طفيل .

* لوحتان من البرونز تحمل احداهما وجه احمد لطفي السيد والثانية وجه العقاد سيضمهما المجمع اللغوي بالقاهرة في قاعته الرئيسية .

* المقالات التي كتبت عن المرحوم عباس محمود العقاد ستصدر في كتاب عن مجلس الفنون والعلـــوم والاداب بالقاهرة .

* بعد احصاء مكتبة الفقيد العقاد وجد انهـــا تحتوي على 33 الف كتاب .

* سيتحول بيت الامام محمد عبده في عين شمس الى متحف يضم اعماله وتراثه .

* قررت كلية العلوم بجامعة الاسكندرية انشاء قسم خاص لعلوم الفضاء ستبدأ الدراسة فيه مـــن العام الدراسي المقبل .

* اعد الاستاذ عبد الحي دياب رسالة عن عباس محمود العقاد .

* تقرر تعيين الدكتور محمد البهي مديرا بجامعة الازهر .

* اقامت دار العلوم بالقاهرة حفل تابين للعقاد .

* الف الاستاذ سعد الخادم كتابا عن العرائس المتحركة وتاريخها عند العرب .

* صدرت في القاهرة الكتب التالية : « تهافت التهافت » لابن رشد تحقيق الدكتور سليمان دينا . « العوالم الاخرى » للدكتور محمد جمال الدين الفندي « الاصول العلمية للادارة والتنظيم » للدكتور علي عبد المجيد عبده . « اقتصاديات العالم العربي » من الخليج الى المحيط للدكتور راشدي البراوي . « يوميات » الجزء الاول لعباس محمود العقاد . « الكلمة المذاعة » لمحمد اسماعيل محمد . « ضوء وظلال » ديوان باللغة الفرنسيـة لسلوى حجازي تقديم احمد رامي . « معجزة النيل » لصوفي عبد الله « المرجع في علم النفـــس » للدكتور سعد جلال . « ديوان ابي تمام » شرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام « سخرية الناي » لمحمود طاهر لاشين . « عشرة من الخالدين » لابراهيم المصري . « القصة العربية القديمة » لمحمد مفيـــد الشـباشي . « الطريق » قصة لنجيب محفوظ « ديوان البحتري » شرح وتحقيق حسن كامل الصيرفـــي . « فضائح الباطنية » للغزالـي تحقيق وتقديـم عبد الرحمن بدوي . « ازمة الانظمة الديمقراطية » للدكتور عبد الحميد متولي . طبيعة الفن ومسؤولية الفنان » للدكتور محمد النويهي « المفضليات » للمفضل الضبي تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . « الادراك الحسي عند ابن سينا » للدكتور محمد عثمان نجاتي . « موسى بن نصير » حياته وعصره لعبد العزيز حافظ دينا . « تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى » للدكتور عبد المنعم ماجد . « قالوا » لانيس منصور . « مع الشعراء » لحراث طه الراوي .

* صدر في هذه الايام ديوان جديد للشاعر صلاح الدين عبد الصبور بعنوان « احلام الفارس القديم »

* وجد بمكتبة العقاد خمسون ورقة بخط يده يقص فيها سيرة حياته من طفولته الى خروجه من حزب الوفد .

* ترجم الى العربية كتاب « لن يجوع العالم » للكاتب الانجليزي كلمر نقله الى العربية الدكتور مصطفى عبد العزيز .

* انجز مجمع اللغة العربية بسوريا كل ما كان قد تقرر انجازه في الدورة السابقة . هذه اهم منجزاته :

— معجم المصطلحات الجراحية بالانجليزية والفرنسية والعربية للامير مصطفى الشهابي

— اخطاء شائعة في الفاظ العلوم الزراعية والنباتية

— جمع وطبع الابحاث اللغوية التي ظهرت في مجلة المجمع لحد الان في مجلدات وكتب .

* صدر للشاعر السوداني محمد الفيتوري ديوان جديد بعنوان « عاشق من افريقيا »

* اقامت جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية في بيروت ندوة ادبية موضوعها « الاديب الكبير عبـــاس محمود العقاد » اشترك فيها الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور عبد العزيز عتيق ، والشيخ عبد الله العلايلي ، والدكتور محمد عبد السلام الكتاني .

* توفي مؤخرا الشاعر اللبناني المعروف محمـــد علي الحوماني بعد ما اغنى المكتبة العربية بمؤلفاتها . منها « نقد السائس والمسوس » و « بين النهرين » و « المآسي » و « سلوى » و « في باريس » و « أنت انت » و « النخيل » و « فلان » و « حواء » .

* الضمان الاجتماعي عنوان كتاب يصدر عـــن منشورات عويدات مترجما الى العربية

* نعت بيروت الموسيقي المعروف الاستاذ الكسي اللادقاني صاحب جريدة « الفنون الجميلة »

* صدر في بيروت الجزء الاول من كتاب « أصول المحاكمات في القضايا المدنية والتجارية » من تاليـــف

الدكتور ادوار عبد المستشار فى محكمة الاستيناف ببيروت .

* صدر عن المطبعة الكاثوليكية ببيروت كتاب « قصص من لبنان » من تاليف لحد خاطر . وصدر عنها ايضا مترجما الى العربية كتاب « حل معضلة الحياة »

* اصدر الشاعر ميشال الصائغ مجموعة شعرية بعنوان « قصور فى الطفولة »

* صدر عن دار الكتاب العرب ببيروت كتابان هما « القرامطة » و « الامامة فى الاسلام » لمؤلفهما الاستاذ عارف تامر .

* « اربعة افراس حمر » رواية ليوسف حبشي الاشقر صدرت فى بيروت . وقد نالت جائزة اصدقاء الكتاب للقصة القصيرة سنة 1963 .

* تشتغل منشورات عويدات ببيروت بطبع المجلد الثاني من موسوعة « تاريخ الحضارات العام » باشراف يوسف اسعد داغر .

* فى سلسلة « ينابيع » ببيروت صدر ديوان للشاعر سنيه صالح بعنوان « الزمان الضيق » .

* يقوم الاستاذ خليل ابراهيم عطية بتحقيق « ديوان النابغة الجعدي » عن عدة نسخ ؛ويصدر له قريبا فى بغداد « الفاظ الشمول والعموم » للمرزوقي الذي قام بتحقيقه .

* منعت وزارة الارشاد العراقية المجلات الفنية اللبنانية التالية من دخول العراق : الموعد ، الوعد ، العروسة ، الشبكة ، الليالي ، اسبوع بيروت .

*منحت جائزة سعيد عقل الشهرية عن شهر مارس للفنان بيار جدعون

* صدرت فى عمان جريدة بعنوان « الصحفي »

* صدر فى حلب للاستاذ سامي الكيالي كتاب يشتمل على مجموعة من المقالات الوجدانية والتاملية بعنوان « من خيوط الحياة »

* « الفتوة » اسم مجلة صدرت فى دمشق .

* صرح العالم اللغوي السوري قاسم احمد بان كلمة الاديب واردة من الادب ، والادب مؤلفة من (آ) الشومري بمعنى البيت ودوت « بمعنى الالواح . فالادت اذا ، بيت الالواح وهذا المعنى وارد فى العبرية (بيت سفر) اي المدرسة ، وفى الاكدية ادوبة هي المدرسة اي بيت الدوب (الطوب) ولكن اذا حللنا (آ) الشومري ان اصله المسكن . واما (دوب فى فاصلها (طواب) : فالباء تعني اصبح وطوا ، تعني اشد . فالطوب اذن ، هو المادة المشتدة (الطي) المؤلفة من مادة (طوا) بمعنى اشتد ، والنون للتسمية . وبذلك اصبح اصلها (طوآن)

* « المقامات واصحابها » منذ بداية بديع الزمان الهمذاني يصدر قريبا فى بغداد .

* يعد هلال ناجي وعبد الله الجبوري دراسة ادبية موسعة عن الشاعر العراقي الفقيد عبد القادر رشيد الناصري .

* سيقيم العراق فى منتزه العاصمة تماثيل للشخصيات التالية المتنبىء ، الجاحظ ، الفراهيدي الخوارزمي .

* اتم الدكتور عبد الله درويش فى العراق تحقيق معجم : محيط المحيط « للصاحب ابن عباد » .

* صدر للكاتبة الفرنسية فرانسواز ساغان كتاب بعنوان « سموم » يتضمن مذكراتها عندما كانت فى المستشفى .

* صدر فى لبنان ديوان جديد لانطوان رعد بعنوان « تاجر الرماد » .

* اصدرت اخيرا مجموعة اليونسكو للروائع الانسانية « كتاب منكيوس » وهو يحوي اقوالا المنكيوس ، الفيلسوف الصيني الكبير الذي عاش فى عصر ارسطو ، اي فى القرن الرابع ق.م. وكان من مؤسسي الفلسفة الكنفوشيوسية .

* يقام فى براغ من 6 اكتوبر الى 8 نوفمبر من هذه السنة معرض دولي لرسوم الاطفال ، وقد اشترك فى تنظيمه وزارة التعليم والثقافة بتشيكوسلوفاكيا واتحاد الفنون والتصوير والشعبية التشيكوسلوفاكية القومية لليونيسكو .

* صدر مرسوم فى الكويت يقضي بانشاء مجلس استشاري للاعلام والانباء .

* نشرت دار جامعة اكسفورد للطباعة بانجلترا نسخة جديدة من « القرآن المفسر » باللغة الانكليزية للبروفيسور دا. ج. ادبري الذي يعد من اشهر وابرز المستشرقين المتضلعين فى اللغة العربية .

والمصحف الجديد فى غلاف من الورق المقوى

ضمن سلسلة « الكتب الكلاسيكية العالمية » وكانت اول نسخة من « القرآن المفسر » قد نشرت عام 1955 كي تحل محل الترجمة التي قام بها البروفيسور ه. بالمر فى القرن التاسع عشر، وقد صرح ناطق بلسان دار جامعةاكسفوردان البروفيسور اربي اذ يطلق على كتابه اسم « القرآن المفسر » يعترف باستحالة ترجمة القراءن الكريم الترجمة التامة .. واكد المتحدث ان من اهم ما امتازت به النسخة الجديدة استخدام المؤلف لجمل ادبية تعطي للقارىء غير المسلم بالخصوص فكرة عن الروح والسجع والقافية العربية ؛ مما لا يمكن للترجمات النثرية تحقيقه .

❋ قررت وزارة المعارف السعودية انشاء كلية جديدة للعلوم واخرى للرياضات بمكة المكرمة .

❋ يحتفل العالم فى هذه السنةبذكرى ميلاد العالم غاليلو الذي يعتبر من مؤسسي العلوم الحديثة ، وخاصة علم الفضاء .

❋ قصائد « عربية » عنوان المجموعة الشعرية التي تصدر فى نهاية هذه السنة باللغة الروسية فى موسكو وتضم قصائد من 12 قطرا عربيا .

❋ ظهر فى روسيا اول كتاب مطبوع منذ 400 سنة . وقد استغرق جمعه وطبعه آنذاك عشرة اشهر . وقد تم فى روسيا قبل ثورة اكتوبر الاشتراكية نشر 550 الف كتاب . بينما تم فى الفترة ما بين 1918 و 1962 نشر قدر ذلك العدد من الكتب ثلاث مرات اي فى حوالي 1.748.000 كتاب ظهرت فى الاتحاد السوفييتي باللغة الروسية وحدها . وقد ظهر فى عام 1962 اكثرمن 000 79 كتاب بلغ مجموع نسخها السنوي حوالى 000 18 مليون نسخة .

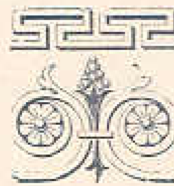
❋ سيقام قريبا الاحتفال بالعيد السنوي الاربعمائة لظهور اول كتاب روسي مطبوع فى الاتحاد السوفييتي . وقد تم طباعة كتاب « الرسول » فى 1 مارس عام 1954 . وقام بطباعته ايفان فيد دروف بالاشتراك مع بيوتر فيتسلاقيتس الشهيران .

❋ « انباء اسبانيا » اول مجلة اسبوعية صدرت فى مدريد لتدعيم العلاقات العربية الاسبانية .

❋ يبلغ ما يوزع يوميا من الصحف اليابانية ما مجموعه 39 مليون نسخة و240 الف . اليابان هي ثالث دولة فى توزيع الصحف بعد امريكا وروسيا .

❋ اعلنت الجزائر اقامة جائزتين سنويتين للاعمال الادبية .

❋ وافقت لجنة النشر فى مجلس الفنون للجامعة العربية على ان يعقد المؤتمر الخامس للادباء العرب فى شهر نونبر القادم تاريخا للمؤتمر .



فهرس العدد العاشر - السنة السابعة

صحفة

دراسات اسلامية :

ابحاث ومقالات :

ديوان دعوة الحق :

قصة العدد :

معرض الكتب :

مناقشات :